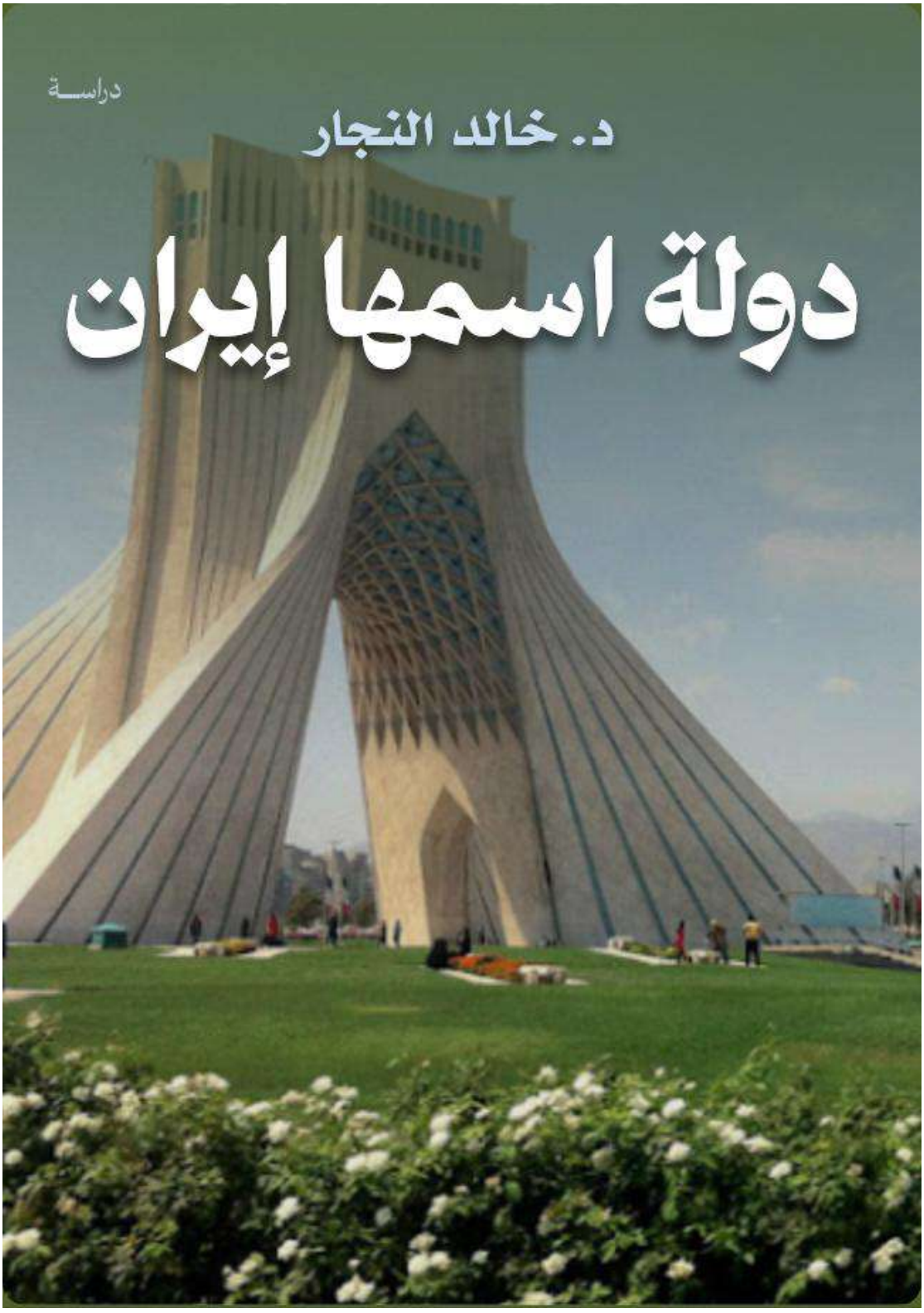
دراسة
د. خالد النجار
دولة اسمها إيران

بسم الله الرحمن الرحيم

دولة اسمها إيران

الحمد لله واهب النعم رافع النقم موفق أهل الفضل لبلوغ القمم، وصلاة وسلاما على حبيبنا ونبيا وشفيعنا محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أما بعد:

فإن مشروع هذا الكتاب خلاصة العديد من المراجع التي طالعتها في الشأن الإيراني أخص بالذكر منها:

- إيران إلى أين.. محمد صادق إسماعيل
- إيران بين طغيان الشاه ودموية الخميني.. ذيبان الشمَّري
- الخميني والوجه الآخر، في ضوء الكتاب والسنة.. د. زيد العيص
- إيران وحماس.. فاطمة الصمادي

ولقد حاولت جهدي أن أخرج عن النمط الأكاديمي والحشو الإحصائي الذي لا يفيد القارئ النهم إلى معرفة إيران تاريخها وحاضرها في شيء يذكر، وركزت على الأحداث الجسام في تاريخ هذه الدولة على صعيد الماضي والواقع المعاصر خاصة الثورة الإسلامية الخمينية والزخم الذي وقع حولها بكل شفافية.

يقول الأستاذ ذبيان في مقدمة كتابه ملخصا الهدف الذي سعيت له في هذا العمل المتواضع: الثورة الإيرانية هي ثالث الثورات التي شهدها التاريخ الحديث منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا.. فهي ترتفع إلى مستوى الثورتين الفرنسية والروسية علما بأنها بالنسبة لي كمسلم تتجاوزهما أهمية ومغزى، إذ إنها رفعت شعار الإسلام وزعمت بأنها تهتدي بعقائده، وتسترشد بسننه ومبادئه، لذلك فليعذرني القارئ، إذا لمس شيئا من توتر يتردد من خلال كلمة رافضة أو جملة مفجوعة، إنها رفض العقل للمكابرة وتفجع القلب على أمل خنقته الخيبة بحبل الجهالة.

ولكن كيف تمكن الخميني وثورته التي تحولت إلى مأساة من أن يسقطا نظاما كسرويا عريقا احتفل به الشاه ذلك الاحتفال الباذخ المشهود بمرور ألفين وخمسمائة سنة على مولده وذلك في برسيبلوس؟

وكيف انحرف الخميني بثورته عن الجادة وخرج بها على سماحة الإسلام وتراحم المسلمين وسلحها بمخالب الضغينة وأنياب الحقد؟

هذا والله من وراء القصد ولا حول ولا قوة ألا بالله.

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

٠٠٢٠١٢٢٩٥٩٦٦٥٨

مصر

إيران من التاريخ إلى المعاصرة

إيران.. بلاد فارس «أرض الآريين»

** يتألف اسمها من كلمتين باللغة الفارسية القديمة: "آري" وتعني النسبة للآريين و"ان" بمعنى أرض، لذا يطلق عليها "أرض الآريين".

وقد ظل اسم "فارس" يُطلق عليها لوقت قريب، إلى أن أعلن الشاه رضا بهلوي عام 1959 أنه بالإمكان استخدام الاسمين فارس وإيران للإشارة إلى الجمهورية الإيرانية.

العاصمة: طهران، وهي أكبر مدنها، تليها مشهد، فأصفهان.

أصل كلمة إيران كلمة أري (آريون) وتعني "الطاهر" وقد نزحوا إلى غرب فارس عام ٢٠٠٠ق.م. أيام حكم الأشوريين. وأقاموا لهم إمبراطوريتهم الفارسية التي بلغت أوجها أيام «الملك كورش الكبير» عام ٥٥٠ ق.م. والإمبراطور «دارا الأول» وخلفه «خشايارشا» الأول حيث كانت تضم مصر السفلى (الدلتا) واليونان وآسيا الصغرى وأجزاء مما يعرف حاليا بباكستان وتركستان أقاموا خدمة بريدية ومهدوا الطرق، وشجعوا التجارة وفنون الكتابة. وحاولوا دمج الحضارات البابلية مع الفرعونية والأشورية والليدية، إلا أن الإسكندر الأكبر أسقط هذه الإمبراطورية في القرن الرابع ق.م.

لكنهم استطاعوا التخلص من حكم الإغريق لبلدان الشرق الأدنى إبان القرن الثالث ق.م. واستعادوا قوتهم. لكن الساسانيون استغلوا النزاعات الداخلية ووحدوا فارس. وقاموا بنهضة. لكنهم دخلوا في حروب مستمرة مع البيزنطيين طوال أربعة قرون حتى جاء الإسلام في القرن السابع الميلادي.

ففي الفترة من 530–559 ق.م أسس قورش (كوروش) إمبراطورية فارس عام 550 قبل الميلاد، وكانت أول إمبراطورية عالمية. في عام 539 ق م استسلمت بابل سلمياً لقورش ورحبت به محرراً لها بسبب سياساته اللينة.

فحرر اليهود من السبي البابلي. وقد توفي قورش عام 529 ق.م. ثم توج حكم الملك دارا عام 521 ق.م ذروة إمبراطورية فارس أسس دارا إمبراطوريته على النظام المرزباني مشابه للحكومات القومية والمحلية. حيث أنشأ الطرق والموانئ والبنوك، كما بنى نظام ري تحت أرضي. كذلك تميز عصر دارا بازدهار اقتصادي، حيث عرف أقدم شكل من أشكال العملة في التاريخ "الداريك"، بالإضافة إلى توحيد الموازين والمقاييس وتنظيم

القوانين التجارية وتشجيع التجارة العالمية ورفع مستوى اقتصاد الإمبراطورية الفارسية إلى مستوى لم يسبق له مثيل من الرخاء.

وفي عام 334 ق.م: غزا الإسكندر الأكبر المقدوني فارس المتمثلة في الدولة الأكمينية وأسقطها. وبعد انتصاره على الجيش الفارسي أمر بإعدام كثير من الفرس وأحرق مدينة برسيبوليس انتقاماً لحرق مدينة أثينا. وكان يعتبر نفسه خليفة للملوك الأخمنيين. تقلد عادات البلاط الفارسي وحاول تكوين ثقافة جديدة مزجت بين الفارسية والإغريقية (الهلينية). ورغم أنه كان عسكرياً فذا، إلا إنه كان يفتقر إلى المهارات الإدارية.

وبعد وفاته بفترة وجيزة، قسمت إمبراطوريته بين الجنرالات المتنافسين. وكان من أبرز ما ورثه بعد انتصاره على فارس هو تقديمه النموذج الإمبراطوري الفارسي للغرب وتبني الإمبراطورية الرومانية له بعد ذلك، خاصة ما يتعلق بحكم الدولة والقانون.

وعقب وفاته قامت الدولة السلوقية نسبة إلى سلوق أحد جنرالات الإسكندر، والتي كانت تضم آسيا الصغرى وبلاد الشام والعراق وإيران، وشيد له عاصمة جديدة باسم سلوقية على نهر دجلة في العراق، والقسم الغربي وأسس له العاصمة "أنطاكية" على نهر العاصي. تناوب على مملكة السلوقيين ثمانية عشر ملكاً.

في عام 224 م أسس أردشير الأول حكم الساسانيين، وأحيى الساسانيون الحضارة الفارسية والزرادشتية وبذلوا جهداً ملحوظاً لإعادة تقاليد الأخمينيين.

وأقاموا علاقات تجارية مع عدويهم اللدودين الرومان – البيزنطيين والصينيين.

وتشير الحفريات المكتشفة في الصين إلى العملات الساسانية الفضية والذهبية التي كانت مستخدمة لعدة قرون. ويحتل أردشير مكانة كبيرة لدى الإيرانيين باعتباره موحد الأمة الإيرانية وباعث الدين الزرادشتي ومؤسس الإمبراطورية البهلوية.

توفي أردشير عام 240 م وخلفه ابنه شابور. وفي عام260 م غزا شابور الأول للإمبراطورية الرومانية وأسر الإمبراطور الروماني فاليريان. كما أنشأ مركز جندي شابور

للتعليم العالي. وأعاد تنظيم الإمبراطورية، وأقام سد شستر، وأنشأ العديد من المدن، منها نه شابور (نيسابور الحالية).

وفي عام ٢٨ م ظهر الداعية «مزدك»، في عهد حكم «قباد بن فيروز»، وعرض عليه نوعاً من الشيوعية في المال والنساء وقبل «قباد» مذهبه بهدف الحد من نفوذ النبلاء ورجال الدين. وأدت أفكار مزدك إلى حدوث صراع طبقي كبير بين الفلاحين والنبلاء. ويمكن اعتباره أول شيوعي اشتراكي" في العالم.

وخلال الفترة من 579–531 م تولى كسرى أنو شيروان حكم إيران بعد وفاة أبيه وقد استطاع في بداية حكمه القضاء على فتنة أتباع مزدك وأعاد الاستقرار إلى الأوضاع في إيران وخلال تلك الفترة وتحديدا عام 570 م ولد الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–

الفتح الإسلامي

يعود السبب المباشر لفتح بلاد فارس إلى عهد رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عندما أرسل لملوك العالم يدعوهم للإسلام وعلى رأس هؤلاء كان كسرى ملك الفرس، والذي رفض حتى قراءة رسالة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وقام بتمزيقها، فدعا عليه النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قائلا: (مزق الله ملكه كما مزق كتابي).

ولم يكتف كسرى بذلك، بل بلغ به الكبر والطغيان أن أرسل اثنان من جنوده للقبض على النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ولكن تحققت دعوى الرسول، حيث قتل كسرى على يد ابنه وتفكك ملك الفرس.

وبعد رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بدء فتح العراق بسلسلة حملات عسكرية قادتها الخلافة الراشدة ضد الإمبراطورية الساسانية الفارسية في القرن السابع الميلادي، في عهد سيدنا أبي بكر الصديق –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– واستكملت في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما)، وشملت معارك حاسمة مثل ذات السلاسل والبويب والقادسية، مما أدى إلى دخول العراق ضمن حكم المسلمين وطرد الفرس من العراق وإنهاء طغيانهم وظلمهم بأهله.

قاد هذه الفتوحات قادة بارزون مثل خالد بن الوليد، والمثنى بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص، وأسفرت عن فتح مدن رئيسية كالحيرة والأنبار، وإنهاء الحكم الساساني للمنطقة.

مراحل الفتح الرئيسية:

** عهد أبي بكر الصديق.. بعد الانتهاء من حروب الردة، أرسل أبو بكر جيوشًا بقيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة. فحقق المسلمون انتصارات في معارك مثل الحفير، وذات السلاسل (كاظمة)، والولجة، وأليس، وأمغيشيا.

فتح الحيرة: تم فتح مدينة الحيرة، عاصمة المناذرة، بعد مفاوضات ودفع الجزية.

انتقل خالد بن الوليد إلى الشام، مما أدى إلى ركود مؤقت في الفتوحات العراقية.

** أما في عهد عمر بن الخطاب فقد استؤنفت الفتوحات تحت قيادة المثنى بن حارثة، وتتابعت المعارك ضد الفرس. وشهدت مارك النمارق وكسكر والبويب انتصار حاسم للمسلمين بقيادة المثنى على الفرس، باستثناء هزيمة واحدة هي موقعة الجسر.

وفي معركة القادسية ٦٣٦م: أنزل المسلمون بالجيش الساساني بقيادة رستم، هزيمة فادحة كانت هي نقطة التحول الرئيسية في الفتح فتح العراق، فقد دخلت جيوش المسلمين بعدها «المدائن» عاصمة الفرس وسيطرت على وسط وجنوب العراق بالكامل.

وتوجت هذه الانتصارات بفتح الموصل وتكريت، مما أدى لإنهاء النفوذ الساساني في المنطقة وضم العراق بالكامل للخلافة الإسلامية. قبل أن ينطلق المسلمون لتعقب جيوش الفرس المنهزمة في عقر دارها ببلاد فارس حتى تم فتح كامل لدولة الفرس وإنهاء الدولة الساسانية.

وفي عام 642م انتصر المسلمون على الفرس في «موقعة نهاوند» وانتهى حكم الأسرة الساسانية بعد مدة بلغت 416 عاماً ودخل الشعب الإيراني في الإسلام وقبل ولاية العرب المسلمين.

نهاوند التي أسقطت عرش كسرى

في عام ٢١ هـ، في سهول نهاوند الوعرة، حُسم مصير إمبراطورية الساسانيين العريقة التي حكمت أربعة قرون ونصف.

كان الملك الشاب يزدجرد الثالث، بعد هزيمة القادسية المريرة، قد جمع آخر ما تبقى له من قوة: جيوشاً ضخمة من أذربيجان والري وأصفهان والسند، وأخذ يجمع الجموع، ويحشد الجيوش حتى اكتمل لهم خمسون ألف من أشداء المقاتلين، وتعاقدوا وتعاهدوا على النصر، وصمموا على متابعة القتال مع المسلمين حتى النهاية، وولّى عليها الهرمزان.

ولما علم الفاروق عمر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– بأمر تحرك الفرس من جديد أمر سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة بإرسال النعمان بن مقرن بجيش كثيف إلى الأهواز.

انطلق النعمان في أهل الكوفة فأخذ طريقة وسط السواد حتى قطع دجلة ثم أخذ البر إلى الأهواز، ثم سار نحو قائد الفرس الهرمزان، وقد علم الهرمزان بمسير النعمان إليه، فأراد أن يبادره راجيًا أن ينال منه، طامعًا في نصر أهل فارس الذين أقبلوا من كل مكان وتجمعوا عند تستر، وكان اللقاء عند أربك وهي مدينة بالأهواز فاقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم منَ الله على المسلمين بالنصر، وفر الهرمزان بفلوله ناحية تستر، واستولى النعمان على مدينة رامهرمز وأقام بها، يعيد تنظيم قواته.

وكان أهل البصرة بقيادة أبا رهم بن سبرة قد بلغتهم أنباء النصر الذي حققه النعمان ولجوء الهرمزان إلى تستر، فساروا إليها، وكتبوا إلى عمر، فأمدهم بأبي موسى الأشعري على رأس قوات جديدة، وعند تستر التقت جيوش المسلمين فحاصروهم، والهرمزان بها، وطال أمد الحصار عاما ونصف، وتزاحف الطرفان إلى بعضهم، واشتد القتال، وحقق المسلمون النصر في النهاية، وأسروا الهرمزان على يد النعمان بن مقرن.

كان ما حدث للهرمزان حافز لأمراء الفرس أن يوحدوا كلمتهم، فتكاتفوا وتجمعوا في نهاوند حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفًا، وكان قائد هذه الجموع ذو الحاجبين الفيرزان، لما وقف الفاروق على أخبار هذا الحشد العظيم، عزما على أن يمضي إلى مواجهة هذا الخطر الداهم بنفسه، ولكن وجوه الصحابة ردوه عن عزمه، وأشاروا عليه أن يرسل قائدًا يعتمد عليه في مثل هذا الأمر الجليل، فقال عمر: أشيروا علي برجلٍ لأوليه ذلك الثغر، فقالوا: أنت أعلم بجندك يا أمير المؤمنين، فقال: والله لأولين على جند الإسلام رجلاً إذا التقى الجمعان كان أسبق من الأسنة، واختار النعمان بن مقرن.

ثم كتب الفاروق إلى النعمان يقول: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن، أما بعد، فإنه بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فإذا أتاك كتاب هذا فسر بأمر الله، وبعون الله، وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا تواطئهم وعرًا فتؤذيهم، فإن رجلاً واحدًا من المسلمين أحب إليَ من مائة ألف دينارٍ، والسلام عليك.

أمر الفيرزان جنوده أن يحولوا نهاوند إلى قلب الإمبراطورية الأخير، فحفروا خندقاً عميقاً يطوق المدينة، وزرعوا أمامه الحسك الحديدي الشائك الذي يمزق حوافر الخيل، وصفوا الرماة على الأسوار كسحابة سوداء لا تنقشع .

وقال الفيرزان لجنوده بثقة: "هنا سيكون قبر العرب".

على الضفة الأخرى وقف جيش المسلمين، أقل عدداً بكثير، لكنه يقوده رجل اختاره عمر بن الخطاب بعناية فائقة: النعمان بن مقرن المزني، الفارس الهادئ العينين، الذي قال عنه الخليفة: "لو كان النعمان في الأمم السابقة لكان نبياً".

كان معه نخبة أسود العرب: القعقاع بن عمرو، وحذيفة بن اليمان، وطليحة بن خويلد الذي كان يوماً يدعي النبوة ثم صار سيفاً من سيوف الله.

هب النعمان بجيشه للقاء العدو، وأرسل أمامه طلائع من فرسانه لتكشف له الطريق، فلما اقترب من نهاوند، توقفت خيولهم، فدفعوها فلم تندفع، فنزلوا عن ظهورها ليعرفوا الخبر فوجدوا في حوافر الخيل شظايًا من الحديد تشبه رؤوس المسامير، فنظروا في الأرض فإذا الفرس قد نثروا في الدروب المؤدية إلى نهاوند حسك الحديد، ليعوقوا الفرسان والمشاة من الوصول إليها.

لثلاثة أيام متتالية هاجم المسلمون الحصون فلم يستطيعوا اختراقها. كانت السهام تنهمر كالمطر الغزير، والخيول تعرج، والشهداء يتساقطون .

وكان النعمان يطوف بالليل على جواده صامتاً، يرفع بصره إلى السماء كأنه يستفتي ربه.

في الليلة الرابعة، جمع أصحابه في خيمته. تقدم طليحة بن خويلد وقال بصوت خافت لكنه هز القلوب: "يا أمير، إن الله لا ينصر بالعدد، بل بالحيلة والصبر. دعنا

نريهم أننا انكسرنا، فنغريهم بالخروج من حصنهم، ثم نلتفت عليهم كالذئاب على الغنم".

ابتسم النعمان ابتسامة نادرة وقال: "هذا ما كنت أنتظره من الله".

مع أول ضوء الفجر، أرسل النعمان الفارس الباسل القعقاع بن عمرو على رأس الخيل، حتى دقوا أبواب الحصون، فخرج إليهم خيالة الفرس، ونشب القتال العنيف بين الطرفين، ثم تراجع القعقاع أمامهم برجاله.. فقد انطلقت طلائع المسلمين في هجوم يبدو يائساً، ثم بدأوا يتراجعون ببطء أولاً، ثم أسرع، يثيرون الغبار، يلقون بعض الأسلحة، يصرخون كأن الرعب أصابهم.

فجازت الحلية على الفرس، فما إن رأوا طليعة جيش المسلمين تمضي منهزمة أمامهم حتى أرسلوا عمالهم، فكنسوا الطرق من الحسك، فقاموا بمطاردة القعقاع ورجاله، وأغرى هذا التصرف آخرين من الفرس لا يزالون في خنادقهم وحصونهم، فخرجوا يتبعون القعقاع وخيله.

رأى الفيرزان الغبار من فوق السور فصاح مزهواً: "انظروا! هرب العرب! افتحوا الأبواب، اليوم ننهي أمر محمد كله".

فتحت أبواب نهاوند، واندفع الفرس كالسيل الجارف، يركضون وراء ظلال المسلمين الهاربين.

قطعوا خنادقهم، تجاوزوا حسكهم، ابتعدوا عن أسواره.. ثم دوّى صوت كالرعد من الخلف: كان القعقاع بن عمرو ومعه ألف فارس قد كمنوا في وادٍ ضيق طوال الليل، فانقضوا كالصواعق.

وفي نفس اللحظة كان المسلمون على تعبئتهم الكاملة، وقد أمرهم النعمان أن يثبتوا في أماكنهم، ولا يلتحمون بقتال حتى يأذن لهم، وأقبل الفرس عليهم يرمونهم بالسهام، وانتظر النعمان حتى يخرج جميع الفرس من الحصون، ثم ركب فرسه، وسار بين صفوف جنده، يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال، ويحرضهم على الصبر والشهادة ثم أعلن: إني مكبر ثلاث، فإذا كبرت الأولى فليتهيأ من لم يكن قد تهيأ، فإذا كبرت الثاني فليشدد

كل رجل منكم سلاحه على نفسه وليتأهب للنهوض، فإذا كبرت الثالثة، فإني حامل على أعداء الله فاحملوا معي.

ثم رفع النعمان يديه إلى السماء ودعا: اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، وذل يذل به الفرس، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة، وأجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك.

وكأن القوم لم يسعهم إلا التأمين على هذا الدعاء الجليل، فأمن المسلمين وبكوا.

صار الفرس محاصرين فجأة في أرض مفتوحة، بلا خندق ولا حسك ولا سور. اختلطت الصفوف، ارتفعت السيوف، صرخت الخيول.

ولقد اندفع النعمان في صفوف الفرس وأخذ يطعن ويطعن، متعرضًا في الوقت نفسه للطعنات عن يمين وشمال، حتى زلق جواده بسبب الدماء الغزيرة التي غطت أرض المعركة وسقط الجود صريعًا، وسقط النعمان من فوقه وجاء أحد أعدائه فعاجله بضربة برمحاً فارسياً يخترق صدره أعجزه عن الحركة، وشاهده أخوه نعيم وهو لا يتحرك، فحسبه قد فارق الحياة فغطاه بثوب بسرعة، وأخذ الراية من يده، ودفع بها إلى حذيفة بن اليمان.

وكأن مصرع النعمان كان ثمن النصر، فما هي إلا لحظات حتى دارت الدائرة على بقية الفرس، وقُتل الفيرزان في أول الزحام، وسقط جنوده في الحسك التي زرعوها بأيديهم، أو غرقوا في الخنادق التي حفرها آباؤهم لحمايتهم .

قيل إن سبعين ألفاً من الفرس قُتلوا في ذلك اليوم، حتى قال الرواة: "ما رؤيت أرض قط أكثر قتيلاً من نهاوند".

وأتى معقل بن يسار إلى النعمان وبه رمق من حياة فصب على وجهه الماء ليغسل عنه التراب، فقال النعمان: من هذا؟ فقال: معقل بن يسار، فقال: ما فعل الناس؟ قال له: فتح الله عليهم، فقال: الحمد لله اكتبوا بذلك إلى عمر، وفاضت روحه إلى بارئها.

ولما جاء نعيه إلى عمر بن الخطاب، صعد المنبر ونعاه إلى الناس، ووضع يده على رأسه وهو يبكي.

سقط البطل شهيداً، لكنه سمع قبل أن تفارق روحه جسده صياح إخوانه: «الله أكبر.. فتح الله».

دخل المسلمون نهاوند، ثم الري، ثم أصفهان، ثم فتحوا فارس كلها.

وفرَّ يزدجرد شرقاً حتى قُتل في مرو بعد سنوات، فسقطت آخر إمبراطورية قديمة عظيمة على يد عدد من المؤمنين آمنوا أن النصر ليس بالعدد والعدة، بل بمن كانت معية الله معه.

لذلك سُمّيت هذه المعركة في كتب التاريخ: «فتح الفتوح» لأنها لم تفتح مدينة أو بلداً فحسب، بل فتحت بوابات التاريخ كله.

** في عام 661م قتل علي بن أبي طالب، آخر الخلفاء الراشدين وبداية الخلاف بين السنة والشيعة حول القيادة الإسلامية، ورغم أن فارس لم تصبح دولة شيعية إلا بعد تسعة قرون منذ ذلك الوقت، إلا إن هذا الصدام كان بالغ الأهمية في التاريخ. ومنذ قيام الخلافة الأموية خضعت جميع الأراضي المفتوحة خضوعاً تاماً، وتم استخدام الحروف العربية في الكتابة الفارسية إلى يومنا هذا.

وقد ساهم الإيرانيون في إسقاط الخلافة الأموية وساعدوا في قيام الدولة العباسية. وانتقلت عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد. وخلال الفترة من 750–1258م اعتمدت الخلافة العباسية على الوزراء والبيروقراطية الفارسية في كثير من وظائف الدولة. وتغلغل التقاليد الفارسية في نظام الحكم العباسي. وأصبح الأسرة البرامكة الفارسية شأن كبير في النظام السياسي العباسي وتقلد كثير من أفرادها مناصب وزارية هامة في الدولة العباسية. بلغت الدولة الإسلامية ذروتها إبان الحكم العباسي.

وقد بدأت قبضة الحكم العربي على فارس تضعف، حيث وصلت ممالك فارسية محلية متعددة إلى سدة الحكم وأقامت دويلات مستقلة في بلادهم مثل الطاهريين، والصفاريين، والسامانيين، والزياريين، والبويهيين (945–1055)

ثم تبعتهم الأسر التركية ذات الثقافة الفارسية مثل الغزنويين (962–1186)، والسلاجقة (1038–1153)، والدولة الخوارزمية (1153–1220)

ومرة أخرى أصبحت فارس مركزاً للفن والأدب والعلوم. وكان للفرس أثر كبير في ازدهار الحضارة الإسلامية. وخلال هذه الحقبة ظهر نخبة من علماء المسلمين الأفذاذ مثل سيبويه مؤسس علم النحو، والخوارزمي، في الفلك والجبر، والرازي، والفردوسي، وابن سينا، والغزالي، وعمر الخيام، وغيرهم.

** وفي عام 1220م قاد «تموجين» أو «جنكيز خان» –كما لقب نفسه– قبائل المغول عبر آسيا، واكتسح البلاد الإيرانية من الشرق إلى الغرب والجنوب بعد أن سيطر على الصين، وقتل ملايين الإيرانيين، وحرق الكثير من القرى والمدن حتى قال الإيرانيون عن المغول أنهم جاؤوا وقتلوا وحرقوا ونهبوا وذهبوا.

ثم استيلاء «هولاكو خان» المغولي على بغداد وقتله الآلاف من الناس وحرق قصور الخلفاء ومساجدهم ومقابرهم ومكتبة بغداد الشهيرة وأعدم آخر خلفاء العباسيين.

ثم تقدم المغول إلى الشام إلا إنهم هزموا على يد المصريين في «موقعة عين جالوت» الشهيرة فانسحبوا إلى مراغة في الشمال الغربي من إيران وأسسوا دويلتهم تحت اسم «دولة الإيلخانيين» وعقب ذلك ظهر بعض الشخصيات التاريخية مثل جلال الدين الرومي الشاعر الصوفي الكبير، ونصير الدين الطوسي، عالم الفلك والفيلسوف، والسعدي صاحب ديواني البستان والجولستان.

وفي عام 1295م تولى «غازان خان» حفيد هولاكو، العرش وكانت فترة حكمه العهد الذهبي للمغول في إيران حيث كان أول قائد يعتنق الإسلام وصار طابع البلاط في مدينة تبريز العاصمة إسلامياً فارسياً تماماً، وكانت الإدارة الرشيدة والرخاء أهم مميزات عهده.

وساعدت إمبراطورية المغول المترامية في تسهيل تبادل الأفكار والبضائع بين الصين والهند وفارس. وقد توفي غازان وخلفه أخوه «أولجيتو» حتى توفي عام 1316م، وكان قد عُمد أثناء طفولته على أنه نصراني، ولكنه اختار الإسلام بعد ذلك واتخذ لنفسه اسم «محمد خدابنده» وبنى مدينة السلطانية بالقرب من قزوين والتي صارت عاصمة الإيلخانيين بعد تبريز.

وفي هذه الفترة ظهر عالم البصريات الشهير كمال الدين فارسي صاحب نظرية الانكسار والانعكاس وكذلك الشاعر الغنائي الكبير شمس الدين حافظ الشيرازي ألمع شخصية أدبية ظهرت في ذلك العصر وأشهر أعماله "الديوان"

الدولة الصفوية

** وخلال الفترة من 1524–1501م قامت الدولة الصفوية والتي تنسب إلى «صفي الدين الأردبيلي» الذي كان من شيوخ الصوفية التقليديين وكان شافعي المذهب.

أما مؤسسها فهو إسماعيل ميرزا أو الشاه إسماعيل الأول، حيث سار إلى تبريز وهزم القبائل الموجودة فيها وجعلها عاصمته. وأعلن المذهب الشيعي الاثنى عشري مذهباً رسمياً للدولة. واستخدم كل ما أوتي من قوة لفرض مذهبه في جميع أنحاء إيران.

ثم خلفه ابنه وتلاه آغا محمد خان الأول فأكمل ما بدأ أبوه ولكنه اختار أسلوب الإقناع والتأثير في نشر المذهب بدلاً من العنف والقهر.

واستمرت الحروب بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السنة مدة طويلة، ويبدو أن الضغط الخارجي سواء من جانب العثمانيين في الغرب وقبائل الأوزبك القوية في الشرق ضد الصفويين كان عاملاً مؤثراً في توحيد إيران والتفاف شعبها حول ملوك الصفويين والمذهب الشيعي.

وخلال الفترة من 1629–1587م نقل الشاه عباس ملك الدولة الصفوية إلى أصفهان، حيث صارت مركزاً حضارياً متميزاً في مختلف ميادين العلم والفن والعمارة والأدب، وازدهرت في عهده علاقات إيران بأوروبا وكثر السفراء في بلاطه.

وقد غزا محمود خان، شيخ قبيلة أفغاني لفارس والاستيلاء على أصفهان دون مقاومة فعلية وبذلك ينتهي حكم الصفويين.

حكم القاجاريون

وفي عام 1795م: كان «القاجاريون» إحدى القبائل السبع التي ساعدت أول ملوك الصفويين نجح قائدهم «آغا محمد خان» في توحيد فروع القبيلة بالعنف والقتل، فقوي أمره واستطاع الاستيلاء على طهران وجعلها عاصمة لملكه.

وفي بداية القرن التاسع عشر نتج عن الاستعمار الأوروبي تغلغل الإنجليز والروس في الشؤون الإيرانية. فقد سلم القاجاريون القوقاز (جورجيا وأرمينيا وأذربيجان حالياً) إلى الروس في معاهدتين منفصلتين معاهدة جلستان عام 1813 ومعاهدة تركمان جاي عام 1828

وأُرغم القاجاريون على سن قانون الامتيازات الأجنبية، والتي بموجبه أعفي جميع الرعايا الأجانب من المثول أمام القضاء الإيراني، الأمر الذي جعل الشعب الإيراني يشعر بالمذلة والإهانة.

منذ ذلك الوقت وحتى مطلع القرن العشرين أصبحت إيران موزعة بين المصالح المتعارضة لروسيا وبريطانيا، فكانت روسيا تبني سياستها على أساس التوسع في آسيا وتطمع أن يكون لها ميناء في المياه الدافئة في الخليج، بينما سعت بريطانيا إلى السيطرة على الخليج وجميع الأراضي المجاورة للهند.

وقد حكم محمد شاه حفيد فتح علي شاه، ومحاولة روسيا في عهده خطب ود إيران حتى تتمكن من دعم نفوذها في ولايات القوقاز وتركستان وظهور حركة البابية الدينية في عهده.

ثم حكم ناصر الدين شاه ابن محمد شاه، أقوى ملوك القاجار.

أسس ناصر الدين شاه أول مستشفى حديث في إيران، وحدثت في عهده المجاعة الفارسية الكبرى (1872–1870)، التي تسببت في موت مليوني شخص من الجوع والأمراض.

وامتاز عهده الطويل بالعلاقات الودية مع روسيا، مما أثار بريطانيا وأعلنت الحرب على إيران وعجزت روسيا عن مساعدة إيران فاضطر ناصر الدين شاه إلى التسليم وأبرمت معاهدة باريس عام 1858، والتي بمقتضاها اعترفت إيران باستقلال أفغانستان، ومنحت المعاهدة امتيازات وحقوقاً تجارية لبريطانيا في إيران.

وفي عام 1872م حصل البارون رويتر البريطاني على امتياز من ناصر شاه يعطي بريطانيا الحق في إنشاء السكك الحديدية وطرق المواصلات، واستغلال الثروة المعدنية والبترول سبعين سنة، كما أعطتها الحق في الإشراف على الأعمال الجمركية لمدة أربع وعشرين سنة.

وفي عام 1882م: فتحت السفارة الأميركية في طهران، وظفرت خمس عشرة دولة أجنبية بحقوق وامتيازات لرعاياها المقيمين في طهران خلال الفترة من1900–1855

وفي 1906م: قيام الثورة الدستورية بقيادة بعض علماء الدين والشباب الذين تأثروا بالأفكار التحررية القادمة من الغرب مؤيدين بالتجار والأشراف، وتكون أول برلمان تعهد بمعالجة كثير من المشاكل.

وبرغم أن إيران لم تستعمر أبداً، إلا إنها قسمت عام 1907 إلى منطقتي نفوذ. حيث خضع القسم الشمالي للنفوذ الروسي والقسم الجنوبي الشرقي للنفوذ البريطاني، ومدت بريطانيا نفوذها إلى المنطقة الواقعة بين المنطقتين لتأمين الطريق إلى الهند. ومع نهاية الحرب العالمية الأولى انغمست إيران في حالة من الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وقد عانت السلطة من عدم استقرار حكومة القاجار، مما أدى إلى صعود رضا خان، الذي أصبح فيما بعد رضا شاه بهلوي رئيس الأسرة البهلوية عام.1925

عربستان وسرقة وطن

في عام 1925م، وقعت واحدة من أخطر الجرائم السياسية في تاريخ العرب: اختفاء دولة "عربستان" (الأحواز العربية)

مساحة375 :، 000كم^2 أكبر من سوريا، وتساوي تونس + عمان + قطر + لبنان!

شعب: ٨ ملايين عربي، أغلبهم من أهل السنة والجماعة

ثروات: نفط، أنهار، سواحل، موقع استراتيجي يتحكم بالخليج العربي!

قائدها: الشيخ خزعل الكعبي.. رجل عزّ العرب وقت عزّ الرجال.

فحين يُصبح النفط لعنة، وتصبح الدول مطمعا!

ازدهار عربستان أخاف الغرب، وخصوصًا بريطانيا، التي كانت تحكم الخليج من خلف الستار.

رأوا أن هذا الكنز يجب أن يُسلّم، لكن لا لأهله، بل لمن يطيعهم ويخضع! فاتفقوا مع إيران لتسليم الدولة دون حرب.

وتمّت الخيانة بقدوم وفد بريطاني خدع الشيخ خزعل.. لقد كانت دعوة للضيافة تحوّلت إلى اعتقال مذل، واختفى الرجل واختفت معه دولة بأكملها!

مسحت عربستان من على وجه الخريطة في ليلة واحدة؟!

وكان مسح الهوية بداية الاحتلال، فلم تكتفِ إيران بالسيطرة، بل بدأت سياسة طمس ممنهجة:

تغيير الاسم من "عربستان" إلى "خوزستان"

منع اللغة العربية

إغلاق المدارس العربية

تهجير ممنهج للسكان العرب

قمع وهدم كل ما له علاقة بالهوية الإسلامية العربية

عام 1936، قتل الشيخ خزعل في زنزانته، وماتت معه كرامة جيل كامل، كانت الحرية تدق أبوابه فخانوه!

هذا مع صمت عربي يُطبَق كالكفن على الأرض والتاريخ والهوية!

لو بقيت عربستان، لتغيّر التاريخ! تخيل سيكون:

الخليج العربي بالكامل تحت السيادة العربية.

مضيق هرمز في يد العرب.

إيران بلا منفذ بحري.

تغيّر موازين القوى في الشرق الأوسط.

وتاريخ جديد تكتبه شعوب حرة لا مستعمَرة!

لكن.. خانوا الأمانة، وسُرقت الدولة، وسكت العرب.

هذه القصة ممنوعة من الظهور!

افتح كتب التاريخ، فلن تجدها!

افتح خريطة العالم، وستجد "خوزستان" بدلًا من "عربستان".

افتح نشرات الأخبار لن تسمع اسمها إلا همسًا.

فمن سرق الأرض، حاول سرقة الذاكرة أيضًا.

ولكن التاريخ لا يُنسى

نحن لا نُحيي قصة عربستان لنبكي الماضي، بل لنفهم، أن ما ضاع بالأمس، قد يُعاد فقده غيره غدًا إن لم ننتبه!

فهل تتخيل أن تُمحى دولة عربية كاملة من الخريطة، دون أن تُطلق رصاصة؟!

لا حرب، لا معركة، لا مقاومة، بل خيانة تُوقّع في الكواليس، حيث تم اختطافها في الظلام بينما كنا نائمين!

إنها ليست قصة من قصص الخيال السياسي، بل حقيقة موجعة حدثت ذات ليلٍ أسود، حين اختفى وطنٌ اسمه عربستان، واستيقظ الملايين ليكتشفوا أن: اسمهم لم يعد موجودًا، وعلمهم أُسقِط، ودولتهم سُرقت بأبسط ما يكون: ورقة وقلم!

لكن حين يمتد الظلم لعقود، وتُغلق المدارس، وتُحرَق الأعلام، ويُمنع الأذان بالعربية، فإن الصمت يصبح خيانة، والسكوت جريمة.

إن هذه القصة تحذير مبكر لما يمكن أن يحدث مرة أخرى، لأن من لا يحفظ تاريخه، سيسقط في الحفرة نفسها، مرارًا وتكرارًا.

هل تعرف كم دولة عربية اليوم مهددة بالتقسيم؟

هل نسينا كيف تقسمت السودان؟

هل نظن أن ما جرى لعربستان لا يمكن أن يتكرر؟

بل هو يتكرر، فقط بأسماء جديدة.

الإسلام لا يَضعف إذا خالط القلوب!

كان أهل عربستان متمسكين بالإسلام والهوية والقرآن، وهذا ما جعلهم شوكة في حلق الطغاة!

رغم قمع إيران لعقود لم يُطفئوا نار العروبة ولا انطفأ نور الإسلام في قلوبهم لا يزال الأذان يُهمَس، ولا تزال العربية تُتداول سرًّا بين جدران البيوت!

آخر السطر..

الوعي لا يأتي من فراغ، بل من سؤال، بحث، قراءة، وغيرة على ما تبقّى من كرامة.

هذه القصة، ليس للحكاوي بل لإحياء ذاكرة أمة تُنتزع من أطرافها كل يوم!

فاللهم أعز الإسلام والمسلمين، واحفظ أوطاننا من كل خيانة ومكر وظلم.

حكم آل بهلوي

حكم رضا شاه ١٦ عاما تقريبا حتى ١٦ سبتمبر/أيلول1941 ، لكنه أجبر على التنازل عن العرش لابنه محمد رضا بهلوي بسبب الغزو الأنجلو–سوفياتي لإيران.

أقام رضا حكومة تعتمد على القومية والعسكرة والعلمانية ومعاداة الشيوعية، إلى جانب الرقابة الصارمة والدعاية الحكومية.

ونفذ رضا شاه العديد من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، وأعاد تنظيم الجيش والإدارة الحكومية والمالية.

وعزز الشاه في عهده القانون والنظام والانضباط والسلطة المركزية ووسائل الراحة الحديثة من مدارس وقطارات وحافلات، وأجهزة راديو ودور سينما وهواتف.

إلا أن محاولاته للتحديث تعرضت لانتقادات، وقال معارضوه إنها كانت "سريعة جدا وسطحية"، حتى وصف مؤرخون عهده بأنه كان "حقبة من القهر والفساد والضرائب والافتقار إلى المصداقية."

استاء المحافظون من الشاه فحرّضوا على الثورة عليه عام 1935 حينما ثار البازاريون والقرويون في تمرد عند ضريح علي الرضا في مشهد، وعلى إثر ذلك قتل العشرات وأصيب المئات حتى أخمدت القوات الاضطرابات في نهاية المطاف.

بقيت إيران محايدة رسميا في الحرب العالمية الثانية، وخلال الاحتلال اللاحق خُلع رضا شاه من منصبه وخلفه ابنه الصغير (محمد رضا بهلوي). وأصدر الحلفاء في مؤتمر

طهران سنة" 1943 "إعلان طهران" الذي يضمن استقلال البلاد وحدودها بعد الحرب العالمية الثانية.

ومع ذلك، عندما انتهت الحرب فعليا، لم ترفض القوات السوفياتية المتمركزة في شمال غرب إيران الانسحاب فحسب، بل دعمت الثورات التي أنشأت دولا وطنية انفصالية قصيرة العمر موالية لها في المناطق الشمالية الإيرانية، وهما جمهورية أذربيجان الشعبية وجمهورية كردستان أواخر 1945.

سنة 1957 أنهيت الأحكام العرفية بعد ١٦ عاما وأصبحت إيران أقرب إلى الغرب، وانضمت إلى حلف بغداد وتلقت مساعدات عسكرية واقتصادية من الولايات المتحدة.

وبعد ٤ سنوات، بدأت سلسلة من "الإصلاحات" الاقتصادية والاجتماعية والزراعية والإدارية "لتحديث" الدولة، وأصبحت هذه الإجراءات تعرف باسم "ثورة الشاه البيضاء."

استمر "التحديث" والنمو الاقتصادي بمعدلات غير مسبوقة، مدعوما باحتياطات إيران النفطية الهائلة حتى صارت ثالث أكبر احتياطات في العالم، وتم التركيز على الإصلاح الزراعي.

ومع ذلك فإن إصلاحات الثورة البيضاء لم تحسّن كثيرا الظروف الاقتصادية، وركزت السياسات الليبرالية الموالية للغرب على عزل بعض الجماعات الدينية والسياسية الإسلامية.

ففي أوائل يونيو/حزيران1963 ، اندلعت أعمال شغب حاشدة لدعم روح الله الخميني بعد اعتقاله بسبب خطاب هاجم فيه الشاه.

وفي سبعينيات القرن الماضي، ظهرت مجموعات من اليساريين مثل "مجاهدي خلق" هاجمت النظام والأهداف الأجنبية، وقد قُتل ما يقرب من 100 سجين سياسي إيراني على يد السافاك خلال العقد السابق للثورة، واعتُقل كثيرون وعذبوا

إعلان الجمهورية الإسلامية الإيرانية

بدأت الثورة الإيرانية في يناير/كانون الثاني 1978 مع المظاهرات، وانتهت بالموافقة على الدستور الجديد، الذي بموجبه أصبح الخميني المرشد الأعلى للبلاد في ديسمبر/كانون الأول.1979

وخلالها غادر الشاه محمد رضا البلاد إلى المنفى بعد الإضرابات والمظاهرات، وفي الأول من فبراير/شباط 1979 عاد الخميني إلى طهران، وباتت إيران رسميا جمهورية إسلامية في الأول من أبريل/نيسان 1979 عندما وافق الإيرانيون بأغلبية ساحقة على استفتاء وطني.

** تاريخياً كان أهل السنة (الشافعية والحنفية) الأكثرية في إيران. وكان الشيعة أقلية، محصورة في بعض المدن الإيرانية، مثل قم، وقاشان، ونيسابور، ولما وصل الشاه إسماعيل الصفوي إلى الحكم سنة ٩٠٧ هـ أجبر أهل السنة على التشيع حين خيرهم بينه وبين الموت.

وانتشر المذهب الشيعي بالتدريج في وسط إيران بينما بقي أهل السنة في الأطراف.

ولا توجد إحصائيات رسمية توزع المذاهب في إيران، ولذلك فإن التقديرات تختلف كثيراً.

** لليهود صلات تاريخية قوية بإيران. لكن عددهم تناقص كثيراً بسبب الهجرة. ومع ذلك يعتبر يهود إيران أكبر تجمع يهودي في الشرق الأوسط خارج إسرائيل.

وعددهم مختلف عليه لكن الكثير من المصادر تشير إلى ٢٥ ألف يهودي. وهو دين معترف به رسمياً.

**الزردشتية: يقدر عدد المجوس بـ ٢٢ ألف. وهو دين معترف به رسمياً. ويلقى تشجيعاً رسمياً كبيراً حيث تم اعتباره رمزاً للقومية الإيرانية. وقام الخميني بدعوة مجوس الهند للعودة إلى موطنهم الأصلي إيران.

**تملك إيران أكبر احتياط عالمي للنفط الخام بعد المملكة العربية السعودية، وأكبر احتياطي للغاز الطبيعي بعد روسيا، وبسبب إنتاجها المنخفض من النفط والغاز فإنها مؤهلة لزيادة صادراتها منهما زيادات كبيرة جداً بيد أنه لكي تستطيع إيران القيام بذلك فإنها تحتاج إلى استثمارات كبيرة والى تكنولوجيا متقدمة من الخارج.

ولعب البترول دوره في استمرار الثورة الإسلامية، وفي استقرار النظام الجديد وفي دعم النظام السياسي خلال الحرب العراقية – الإيرانية 1980–1988م على الرغم من أن هذه الحرب استنزفت قدرات وطاقات ظاهرة وكامنة لبلدين من أهم البلدان المنتجة للبترول في المنطقة، وأن منشآت البترول ومعامل التكرير وشبكات الأنابيب تعرضت للقصف خلال فترة الحرب، وكانت تتم إعادة بناء هذه المنشآت وهذه المعامل وهذه الشبكات التي لحقت بها الأضرار نتيجة العمليات القصف.

كما كان البترول وسيلة لخروج إيران من عزلتها السياسية التي فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية عليها، وكسر الحصار الاقتصادي الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك على الرغم من أن قطاع البترول الإيراني شهد انخفاضا حادًا في مجالات الاستثمار الأجنبية في بداية الثورة وخلال الحرب العراقية الإيرانية، بسبب زيادة معدل مخاطر الاستثمارات، وتغيير الدستور الإيراني، وما تبعه من تغيير قانون قطاع البترول. كما كان للبترول دور بارز في مرحلة إعادة البناء والتعمير.

مدن عريقة

قُم.. المدينة التاريخية

"قُم" مدينة إيرانية تعتبر ثانية مدن إيران الكبرى ومركز الحوزة الدينية الشيعية ومعقل علمائها في البلاد، يسميها الإيرانيون "قم المقدسة" ويرونها المركز الديني الشيعي الرئيسي في العالم من حيث أهميتها وكثافة علماء الدين والمجتهدين فيها، وبعضهم يقدمها على حوزة النجف بالعراق.

وعُرفت –قبل الثورة الإيرانية وبعدها– بتأثيرها في شتى شؤون البلاد سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

وهي من المدن الشهيرة بسبب معالمها التاريخية والدينية. وتقع هذه المدينة، التي تُعدُّ العاصمة الدينية لإيران، جنوب طهران في قلب المنطقة الصحراوية.

تتمركز مدينة "قم" على ضفاف نهر يحمل الاسم نفسه، وتقع جنوب غرب العاصمة السياسية للبلاد طهران التي تبعد عنها 125 كلم. ويتسم مناخها الصحراوي بقلة الأمطار.

ومدينة قم من أقدم المدن الإيرانية التي أنشأها قدماء ملوك الفرس قبل الإسلام، ويقال إنها سميت على حصن "كُمْ" الذي يقع جنوب غربها ويبعد عنها نحو عشرين كلم، ثم عُرّب اسمها إلى "قم".

ويؤكد بعض قدماء المؤرخين المسلمين أنها تأسست بعد دخول الإسلام إلى منطقتها سنة ٢٣هـ.

وقد فتحت في سنة ٢١ هـ في عهد عمر بن الخطاب، وأقام فيها أبو موسى الأشعري، وقد مصرت البلدة أيام الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٨٣ هـ، ولما انهزم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (أمير سجستان من جهة الحجاج والذي خرج عليه) فرَّ إلى كابل، وكان من جملة الفارين معه أخوة هم أبناء سعد بن مالك الأشعري، نزل هؤلاء في سبع قرى في منطقة قم كان اسم إحداها (كمندان) ولما استوطنوها اجتمع إليهم بنو عمهم وصارت القرى السبع سبع محلات سميت إحداها كمندان ثم أسقطوا بعض

حروفها فسميت بتعريبهم قماً وهي مأخوذة من كلمة (كومة) التي كان الفرس يطلقونها على بيوت الرعيان الذين يردون قم للرعي (و هم أول من سكنوا المنطقة).

يرى الشيعة أن قم هي أول مدينة أعلنت تشيّعها في إيران وذلك في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وهي تأتي –لدى شيعة إيران– في الرتبة الثانية من حيث "القداسة" بعد مدينة مشهد.

ويقولون إنها كانت بذلك أول مركز علمي شيعي، كما مثلت بؤرة دائمة لمعارضة "الخلافة السنية" عبر عصورها، ومنها انطلق نشر المذهب الشيعي في البلاد.

ويعللون تلك "القداسة" بكون المدينة تضم قبر "المعصومة" فاطمة بنت موسى بن جعفر (الإمام السابع من أئمة الشيعة الجعفرية الاثني عشر)، التي يقولون إنها قدمت إليها سنة 201هـ في طريقها لزيارة أخيها الإمام الرضا (الإمام الثامن من أئمة الشيعة الجعفرية)، وتوفيت فيها بعد أيام قليلة من مقدمها، ثم كثر البناء حول ضريحها الذي بنيت عليه قبة وأصبح يُدعى "الحرم."

تحولت منطقة الضريح بمرور الزمن إلى مدينة آهلة بالعمران، وفي أوائل العهد السلجوقي (القرن ٥ هجري) هدمت قبته وبُنيت مكانها أخرى أضخم منها وأفخم، وظلت مكانها حتى جاءت الدولة الصفوية (القرن ١٠ هجري) فبنى سلطانها إسماعيل الصفوي قبة أكبر منها مساحة وأكثر زينة وزخرفة، وصار "الحرم" مدفنا لكبار العلماء والملوك والوزراء.

ومنذ العصر الصفوي تزايدت المكانة العلمية والدينية لـ"حوزة قم"، فأصبحت مركزا للمرجعيات العلمية الشيعية التي توجه أتباع المذهب الجعفري وتقودهم عبر العالم، من خلال مجموعة كبيرة من المؤسسات والمدارس العلمية التي يزيد عددها على ستين مؤسسة ومدرسة يدرس فيها عشرات الآلاف من الطلاب، ونحو ١٥ مؤسسة دراسات، وأربعين دار نشر باللغتين الفارسية والعربية.

وفي العصر الحديث توسع أكثر دور الحوزة والمؤسسة الدينية في قم فأصبح يشمل كافة النواحي العلمية والسياسية والاجتماعية، بل والاقتصادية، لاسيما بعد إسهامها الكبير والحاسم في قيام الثورة الإيرانية على نظام شاه إيران آنذاك محمد رضا بهلوي،

وتأسيس "الجمهورية الإسلامية" عام 1979 بقيادة آية الله الخميني الذي تعلم ودرّس في مدينة قم.

ويرى سدنة "حوزة قم" أن رسالتها الأساسية تتلخص في تنشئة وتخريج المراجع الدينية والقضاة وأولياء الأمر "حتى ظهور المهدي المنتظر"، ولذلك كانت الحوزة هي التي أنشأت ودعمت نظام الجمهورية الإسلامية الذي قام بعد الثورة بقيادة مؤسسة "الولي الفقيه."

وبات للحوزة –من خلال العلماء الذين تخرجهم– موقع مؤثر في الإدارة ومؤسسات الدولة والجيش والأجهزة الأمنية والإعلامية المختلفة، مع استقلالها المالي والإداري، هذا إضافة إلى دورها المحوري في كل عملية انتخابية، مما يجعلها قبلة للمرشحين طلبا لتزكية مراجعها الدينية والتماسا لدعمهم الشعبي.

تضم مدينة قم كثيرا من المعالم الأثرية والتاريخية والدينية الشيعية، ويأتي في مقدمتها "الحرم الفاطمي المطهر" الذي يقصده الزوار الشيعة طوال أيام السنة قادمين من جميع أنحاء العالم، ويتبعه "متحف الروضة المقدسة" الذي يعتبر من أقدم المتاحف الإيرانية (عددها 125 متحفا)، ويحوي العديد من المخطوطات النادرة والمسكوكات الإسلامية الثمينة.

وفيها أيضا طائفة من المراقد والمزارات التي تنسب إلى "آل البيت" ويبلغ عددها ١٦ مرقدا، كما أن فيها أكثر من مئة مسجد تاريخي من أهمها: "مسجد الإمام الحسن العسكري"، و"مسجد عشق علي."

ومن أشهر معالمها الدينية "المدرسة الفيضية" التي تعتبر "المدرسة الأم" في حوزة قم بعد أن تأسست في عهد الصفويين، وذاعت شهرتها عام 1963 عندما شهدت صدامات عنيفة بين رجال الدين وقوات الشاه الإيراني آنذاك عُرفت بـ"ثورة ١٥ خرداد."

التقسيم الإداري لإيران
اردبيل
آذربايجان شرقی
البرز
گیلان
گلستان
خراسان شمالی
زنجان
مازندران
قزوین
آذربایجان غربی
کردستان
تهران
سمنان
خراسان رضوی
همدان
قم
کرمانشاه
مرکزی
تاریخ بوست
لرستان
ایلام
اصفهان
خراسان جنوبی
یزد
خوزستان
کرمان
چهارمحال و بختیاری
فارس
کهگیلویه و بویراحمد
سیستان و بلوچستان
هرمزگان
بوشهر

مدينة مشهد

مشهد هي مدينة إيرانية تقع شمال شرقي إيران ومركز محافظة خراسان الرضوية، وتعتبر من أعظم مدن خراسان التاريخية الكبرى ومقاطعة خراسان الحديثة، وثاني أكبر مدينة في إيران بعد طهران، فيها الكثير من الآثار والمزارات والمقامات وأهمها إطلاقًا مرقد الإمام علي بن موسى الرضا، ومشهده الذي به سميت تلك المدينة مشهدًا.

عُرفت مدينة مشهد قديماً باسم «طوس» من المدن الكبرى في دولة إيران، بالإضافة إلى أنّها من أعظم المدن في خراسان، فُتحت هذه المدينة في عصر الخليفة عثمان بن عفان، تتميّز بوجود العديد من الآثار والمزارات والمقامات المتنوّعة، وأهمها المرقد الخاص بالإمام علي بن موسى الرضا، وسميت هذه المدينة نسبة إلى مشهد هذا الإمام كما ذكرنا،ويبلغ عدد سكانها حوالي أربعة ملايين نسمة.

تتميز مدينة مشهد بموقعها في أقصى إقليم خراسان، وفي مكان قريب من مدينة طوس القديمة، وكانت البدايات الأولى لمدينة مشهد عبارة عن قرية صغيرة تتبع بشكل رئيسيّ لمدينة طوس القديمة، وتعرّضت هذه المدينة للهجوم من قبل تيمورلنك المغولي، مما أدى إلى طمس جميع معالمها، حيث هاجر من تبقّى من أهلها، وتم تحصينهم في مرقد الإمام الرضا، وعمّروا العديد من الأبنية لكي يستقروا فيها، وتم تعيين الأمير شاهرخ بن الأمير تيمور الكوركاني الخواجة سيد ميراز مسؤولاً عن هجرة الأشخاص المتحصنين حول المرقد الشريف إلى مقامهم الأول في طوس، وبنى حصناً حصيناً حول المباني الخاصة بهم، ومع مرور الوقت تطوّرت هذه القرية الصغيرة لتصبح مدينة.

تتميّز مدينة مشهد بإحاطتها بالعديد من الجبال الممتدة على طول وادي كشف رود، والذي يعد بمثابة فاصل ما بين مدينة طوس القديمة عن سهل نيسابور.

ومن شخصياتها: الغزالي، الأخفش، البرمكي، النوبختي، يعقوب بن داود، أبو مسلم الخراساني (ت 137 هـ)، طاهر بن الحسين، عبد الله بن طاهر (ت 230 هـ)، أبو منصور البلخي، البيروني، أبو القاسم الحسن بن محمد الطوسي، أبو إسحاق العنبري الطوسي.

من أهم المعالم فيها العتبة الرضوية"، حيث يعتقد الإيرانيون أنه لا تكتمل زيارة هذه المدينة دون التوقّف عند هذا المزار الديني، الذي شيد على أرض تبلغ مساحتها مليون متر مربع، ويصنف كونه أحد أكبر المراكز الروحية في العالم الإسلامي.

وفضلا عن القبة الذهبية المشيدة فوق ضريح الإمام الرضا الإمام علي بن موسى" المكنى بالرضا وهو الإمام الثامن لدى الشيعة، فإن المجمع الرضوي الضخم يحتوي على جامع كوهرشاد المزينة جدرانه بآيات قرآنية بخط الثلث على خلفية من الرخام الفارسي الأزرق، ومتحف يحتوي على قطع أثرية نادرة منها مصحف نادرشاه المخطوط بالخط الفارسي في القرن الـ ١٨، وجامعة ومكتبة ودار ضيافة وروضة أطفال للعناية بهم حتى يتفرغ ذووهم للزيارة والعبادة ومواقيت الصلاة.

أيضا من أبرز المعالم بلدة طوس التاريخية التي تقع على بعد نحو ٢٠ كيلومترا شمال غربي مشهد حيث يلتقي فيها الفن بالأدب، فيتوق إليها عشاق الأدب الملحمي والفن الغنائي من داخل إيران وخارجها، بسبب احتضانها شاعر إيران العظيم صاحب الملحمة الأسطورية "الشاهنامة" الخالدة "أبو القاسم بن حسن الطوسي"، والملقب بالفردوسي.

ويكاد لا يسمع الزائر هنا صوتا سوى همسات الزوار بأساطير الشاهنامة التي أنشدها الفردوسي خلال ٣٠ عاما لحفظ تاريخ بلاد فارس ولغتها قبل الإسلام

الشاهنامه تعني: «كتاب الملوك» وهي ملحمة فارسية ضخمة تقع في نحو ستين ألف بيت، من تصنيف أبي قاسم الفردوسي، و«تُعتبر أعظم أثر أدبي فارسي في جميع العصور».

نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي مصوراً فيها تاريخ الفرس منذ العهود الأسطورية حتى زمن الفتح الإسلامي وسقوط الدولة الساسانية منتصف القرن السابع للميلاد.

كان نوح بن منصور الساماني، وهو من أمراء بنو سامان التي كانت تحكم ما وراء النهر، أول من اقترح نظم الشاهنامه، وبدأ الشاعر أبو منصور الدقيقي بنظمها لكنه قتل فأتمها الفردوسي، بعد إشارة من السلطان محمود الغزنوي. وقيل أنه سلخ في نظمها خمساً وثلاثين سنة.

النظم في أقسامها الأولى محشوة بالخرافات، حافلة بالخوارق.

أما في أقسامها الأخيرة التي يستعرض فيها الفردوسي تاريخ ملوك الفرس منذ عهد أردشير مؤسس الدولة الساسانية؛ فإن الأحداث والأخبار التاريخية تقترب من الحقيقة، وتعتمد التوثيق، وتتقيد بالتسلسل الزمني.

يقول المستشرق بروكلمن «والواقع أننا نقع في الشاهنامة على روح الأسلوب الملحمي الفارسي في قمة اكتماله، وأنها تتكشف برغم نمطيتها ورتابتها عن عبقرية شعرية رائعة».

معظم الكتب الفارسية تنتهي بلاحقة (نامه) والتي تعني (كتاب)، وهنا (شاهنامه) يعني (كتاب الشاه)، والشاه هو الملك الفارسي.

مدينة تبريز

إحدى أهم وأبرز المدن الآذرية في إيران، وعاصمة مُحافظة أذربيجان الشرقيَّة، وبذلك فهي ثالث أكبر مُدن إيران بعد كُلٍّ من طهران ومشهد، وأكبر مدينة في شمال غرب البلاد. وتبعد عن العاصمة طهران نحو 535 كيلومترا.

تُشكِّلُ المدينة إحدى أقطاب الاقتصاد الإيراني، ومركزا تجاريا حيويا على طريق الحرير، فهي تشتهر بأعمالها الإداريَّة والتجاريَّة والصناعيَّة، وبقطاع الاتصالات، ومن أبرز صناعاتها صناعة الإسمنت والبتروكيماويَّات وتجميع السيَّارات والآلات، وتصدر السجاد والجلود إلى مختلف بقاع العالم.

تشتهر تبريز بتاريخها العريق الإسلامي وقبل الإسلامي، بما في ذلك العهود الأشكانيَّة والساسانيَّة..

ومن ثمَّ العبَّاسيَّة والخوارزميَّة والمغوليَّة والإلخانيَّة والتيموريَّة، والجلائريَّة والقره قويونليَّة والآق قويونليَّة والصفويَّة والقاجاريَّة وغيرها، وقد اتُّخذت عاصمةً لإيران خلال عدَّة مراحل من التاريخ الإسلامي أبرزها المرحلتين الصفويَّة والقاجاريَّة.

واكتسبت المدينة مع توالي القرون أهمية متزايدة، خاصة إبان العصر الساساني ٢٢٤-٦٥١ م إذ كانت مركزا تجاريا وعسكريا مهما على أطراف الإمبراطورية، بفضل موقعها الجغرافي الإستراتيجي شمال غربي الهضبة الإيرانية

واختارها هولاكو خان (حفيد جنكيز خان) عاصمة للدولة الإلخانية (الفرع المغولي الحاكم بإيران إبان القرن الـ ١٣) عام 1265 حينها دخلت تبريز مرحلة ازدهار عمراني واسع النطاق.

وفي القرن الـ ١٤، تحولت تبريز تحت حكم القائد المغولي "تيمورلنك" إلى مركز ثقافي وتجاري بارز استقطب العلماء والحرفيين والفنانين من مختلف أنحاء العالم، مما منحها طابعا حضاريا متميزا.

ومع قيام الدولة الصفوية عام1501 ، أصبحت تبريز عاصمة إيران في عهد الشاه إسماعيل الصفوي، ثم انتقلت لاحقا إلى قزوين ثم أصفهان لأسباب دفاعية وإدارية.

وقد تعرّضت تبريز في تلك الفترة لحملات وغزوات عدة من الدولة العثمانية، وتراجع دورها السياسي، إلا أنها ظلّت رغم ذلك حاضرة مهمة في الشؤون التجارية والعسكرية.

وفي عهد الدولة القاجارية (1925–1796) استعادت تبريز جانبا من مكانتها التاريخية، وأصبحت مقرا لولي العهد ومركزا سياسيا وعسكريا بارزا شمال غرب إيران.

وشهدت المدينة نهضة ثقافية وفكرية، وتوسعت فيها الحركة العمرانية، كما اضطلعت بدور محوري في الثورة الدستورية الإيرانية، فكانت إحدى أبرز المدن التي قادت حراك المطالبة بتأسيس برلمان (مجلس شورى) ونظام حكم دستوري، لتتحوّل إلى أحد رموز النضال من أجل الحريات السياسية والإصلاح.

وبعد سقوط القاجاريين وقيام الدولة البهلوية، بدأت تبريز في التوسّع خارج أسوارها التاريخية، وتطوّر مخططها الحضري، شمل ذلك البنية التحتية الحديثة من شوارع واسعة وأبنية عصرية ومنشآت صناعية وخدمية.

وعقب الثورة الإيرانية عام1979 ، واصلت تبريز تطوّرها باعتبارها مركزا اقتصاديا وثقافيا مؤثرا، وأصبحت إحدى أبرز المدن الصناعية في إيران، فقد احتضنت عددا كبيرا من المصانع والمعامل والجامعات، إلى جانب مؤسسات ثقافية متنوعة، كما أصبحت مركزا رئيسيا للحرف التقليدية، لاسيما صناعة السجاد والنسيج.

أغلب سكَّان تبريز يقطنون المنطقة الحضريَّة للمدينة المشتملة على الضواحي والبلدات المُلحقة، ولطالما كانت ذات كثافة سكانية عالية، وهي من أكبر مدن الشرق الأوسط.

فخلال العهد الصفوي في القرن السادس عشر أصبحت المدينة من أكبر المدن في العالم، وخلال العهد القاجاري أصبحت أكبر مدن إيران وأكثرها كثافةً بالسكَّان.

وهي سادس أكبر تجمّع سكاني في إيران، إذ يقطنها نحو 1.7 مليون نسمة، غالبيتهم من الأذريّين.

فتبريز تتميّز بتركيبتها العرقية المتنوعة، إذ يشكّل الأذريون الغالبية الساحقة من السكان، ويتحدثون الأذرية، وهي لهجة تركية محكية على نطاق واسع شمال غرب إيران.

كما توجد بالمدينة أقليات من الفرس والأكراد والأرمن، وتُعد الأذرية اللغة السائدة في الحياة اليومية، بينما تُستخدم الفارسية بالمؤسسات الرسمية وفي قطاع التعليم.

ومن الناحية الدينية، يدين معظم سكان تبريز بالمذهب الشيعي الإثني عشري، إلى جانب وجود أقليات دينية صغيرة من المسيحيين الأرمن، فضلا عن عدد محدود من اليهود.

وتملك تبريز إرثا معماريا فريدا، يتمثل أساسا في "سوق تبريز الكبير": أكبر سوق مغطى في العالم، ومن أشهر وأقدم الأسواق في العالم الإسلامي، وأُدرج عام 2010 ضمن قائمة التراث العالمي لليونسكو.

ويعود تاريخه إلى القرن الـ ١٣ الميلادي، ويمتدّ على مساحة شاسعة تشمل آلاف المحال المتصلة بممرات مقبّبة.

ويتميز السوق بتنوّع منتجاته، إذ يعرض منتوجات تقليدية من السجاد اليدوي، والمصنوعات الجلدية، والتوابل وغيرها

أيضا من معالمها: "مسجد كبود": مسجد كبود الأزرق، بني بأمر من "جان بيك خاتون" زوجة الملك جهان شاه عام1465 ، وهو من أشهر المعالم المعمارية الإسلامية في تبريز، وسمي بـ"المسجد الأزرق" بسبب زخارفه الفيروزية اللافتة التي تغطّي جدرانه الخارجية والداخلية.

وقد تعرّض المسجد لأضرار كبيرة جرّاء زلزال مدمر ضرب المدينة عام 1779 وظلّ مغلقا مدة طويلة، إلى أن تم ترميمه عام 1973 بقيادة المهندس المعماري "رضا ممران بنام" تحت إشراف منظمة التراث الثقافي الإيرانية

ولقد اختلف المؤرخون حول أصل تسمية "تبريز" إذ يرى فريق أن الاسم يتكوّن من كلمتين فارسيتين: "تَبْ" وتعني الحرارة، و"ريز" بمعنى السريع أو المتدفّق، ليُفهم منها أنها "المكان ذو الحرارة المرتفعة" أو "المكان الذي تتدفّق فيه الحرارة بسرعة" في إشارة محتملة إلى ينابيع المياه الحارّة في المنطقة.

في حين يعتقد آخرون أن الاسم مشتق من الكلمة الآرامية "تاوريش" التي تعني "المدينة المحصنة".

وموقع تبريز بين الجبال يجعلها عرضة للنشاط الزلزالي، إذ شهدت المدينة عبر تاريخها زلازل مدمّرة عدة خلفت آثارا كبيرة على بنيتها العمرانية والسكانية.

ويذكر أن تبريز مدينة ليس لها حدود على البحر، ولهذا تتميز بالمناخ البارد شتاءً والحر الشديد صيفا.

وقد اشتهرت تبريز بلقب "مدينة الرياح الباردة" نظرا لهبوب رياح شديدة البرودة أثناء الشتاء.

ومن أبرز شخصياتها التاريخية: شمس الدين التبريزي؛ محمد بن علي بن ملك دادا، أحد المتصوفين المعروفين، وهو شاعر عباسي برز في مجال الشعر والأدب.

عاش شمس الدين التبريزي ما بين ١١٨٥–١٢٤٨م، ويُنسب شمس الدين إلى تبريز؛ ولهذا يُقال عنه التبريزي، أحد الولايات التي تُنسب إلى خراسان في إيران.

لم تكن أصول والد شمس الدين التبريزي من تبريز، غير أنّه قد مكث فيها مدّة لا بأس بها بقصد التجارة، وهناك في تلك المدينة ولد شمس الدين، ولم يتزوج شمس الدين التبريزي في قُبالة حياته؛ بسبب منهجه المتصوف الذي يُعزف فيه عن الماديات وبهرجة الحياة، ويصبو إلى التصوف والعزلة والروحانيات.

لكن قَبل موت شمس الدين بعام واحد؛ أيّ في عام1247 م، تزوج من امرأة شابة نشأت في بيت جلال الدين الرومي واسمها كيميا، ولكنّ القدر لم يجمعهما طويلًا؛ إذ إنّها قد تُوفيت سريعًا بعد زواجها، ولحق بها شمس الدين التبريزي ليُلاقي ربّه بعد زواج لم يدُم أكثر من عام واحد، وكان التبريزي يبلغ من العمر حينها ثلاثة وستين عامً.

تعرّضت المدينة للعديد من الغزوات عبر عصور تاريخها المختلفة، إضافةً للكوارث الطبيعية تحديداً الزلازل المدمّرة منها، ويعود هذا لموقعها الجغرافي الاستراتيجي؛ حيث تتمركز على هضبة تعدّ امتداداً للهضبة الأناضولية المعروفة، كما ساعد موقعها على جعلها مكاناً مستهدفاً بشكلٍ تجاري، بين الجهتين الشرقية والغربية من العالم، وما زالت هذه الأهمية موجودة إلى يومنا هذا، ولا يمكن الإنكار بأنّ تبريزَ لم تساهم في تطوّر الاقتصاد الإيراني على مرّ العصور.

أصفهان

أصفهان أو أصبهان هي إحدى مدن إيران العريقة، ومركز محافظة أصفهان حاليا وتقع على بعد 340 كم جنوب طهران.

تقع على نهر زاينده والذي يسمى في إيران «زاينده رود» ورود كلمة فارسية تعني «نهر».

وتعدّ أصفهان ثالث أكبر مدينة في البلاد وأكثرها اكتظاظا بالسكان، وتمثل مركزا صناعيا بارزا وسوقا تجارية نشطة، وهي مركز جذب سياحي، وأحد أهم مواقع التراث العالمي لما تزخر به من معالم تاريخية وتراث غني، حتى اشتُهرت في الثقافة الشعبية الإيرانية بأنها "نصف الدنيا".

يقال لها من قبل مواطني إيران بالفارسية: أصفهان نصف جهان، وتعني «اصفهان نصف العالم»، نظراً لاحتوائها على الكم الهائل من التراث والأسواق التراثية الكبرى المنظمة التي لم يصل إليها العابثون والمستعمرون.

واختُلف في أصل تسمية المدينة بـ "أَصْبَهان"، ويذكر المؤرخون أنها سميت نسبة لأصفهان بن فلوج بن لنطي بن يونان بن يافث. وأما أهل اللغة فيرون أن الاسم مركب من "أسب" بمعنى حصان و"هان" بمعنى بلد، فكأنهم أرادوا بها "بلد الفرسان"، أو أنها مشتقة من كلمة "سپاه"، التي تعني الجيش للدلالة على أنها كانت معقلا للجيوش.

ويقال كانت تسمى أصفهان «ايرانشهر»، وبعد أن عمرت سميت «جَي» ومعنى «جي» الطاهر، وقيل إن «جي» نسبة إلى ملوك الجيان وهي جي أفرام بن آزاد، وكانوا يعتقدونه رسولاً، ثم تغير الاسم بمرور الزمان فأطلق الفرس عليها اسم «اسپهان» و «اسپاهان»، وبعد فتح المسلمون لها قاموا بتعريب الاسم وقالوا «أصبهان» أو «أصفهان»، قيل إن سبب هذه التسمية لأنها تسمى بالعجمية «سپاهان»، وهي جمع كلمة عسكر (سپاه: تعني العسكر، و «هان» تستخدم للجمع).

ويعود تاريخ أصفهان إلى نحو 500 عام قبل الميلاد عندما غزا الأخمينيون المنطقة، وأسسوا الإمبراطورية الفارسية الأولى، وفي تلك الفترة نشأت الديانة الزردشتية، وكانت المدينة تُعرف باسم "جيّ"، وقد أقام جمع من اليهود بالقرب من جيّ، حيث بنوا محلّة سُميت بـ"اليهودية"، وتذكر بعض كتب التاريخ أن هؤلاء اليهود هم الذين سباهم بُختنَصَّر بعد تخريب بيت المقدس، ثم أسكنهم "جيّ"، وأصبحت "جيّ" و"اليهودية" مدينتين توأمين في المنطقة. فمدينة أصبهان اليوم هي ما كان يُسمى "اليهودية".

واستطاع الإسكندر الأكبر أن يهزم الملك داريوس الثاني آخر ملوك الأخمينيين عام 334 قبل الميلاد عند جبل "كوة إي صوفيه" جنوبي أصفهان، وخضعت المدينة لحكم المقدونيين حتى سقطت بيد الساسانيين.

واعتبر الإسكندر نفسه خليفة للملوك الأخمينيين فحاول محاكاة البلاط الفارسي وعاداته، مثلما حاول تكوين ثقافة جديدة خلطت ومزجت بين الحضارتين الهيلينية والفارسية.

ولكن منذ انتصار الفاتحين العرب على كسرى يزدجرد الثالث، آخر ملوك الساسانيين، حوالي عام ٢٠ هجرية، أي بعد فتح القدس بثلاث سنوات، تقدمت أصفهان لتحتل مكانها بين المدن الإيرانية المختلفة، حيث يفتخر سكان أصفهان بأن الصحابي الجليل سلمان الفارسي كان من مدينتهم.

ففي عام 643 ميلادي، فُتحت المدينة بعد تقويض الحكم الساساني، وكان ذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، حيث وجه عمر بن الخطاب عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي إلى أصبهان سنة ثلاث وعشرين ويقال، بل كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري يأمره بتوجيه جيش إلى أصبهان فوجهه ففتح عبد الله بن بديل جى صلحًا بعد قتال على أن يؤدي أهلها الخراج والجزية.

وفي الحديث الشريف: «يتبع الدجال من يهودِ أصفهان سبعون ألفا عليهم الطَّيالسةُ». أخرجه مسلم.

وبدأت المدينة تأخذ الطابع الإسلامي في العمران والفنون ومظاهر الثقافة، وفُتحت المدارس وانتشرت العلوم الإسلامية والإنسانية، وأصبحت أصفهان في عهد الخلفاء الراشدين بمثابة القاعدة الإدارية لبلاد فارس.

وفي العصرين الأموي والعباسي شهدت أصفهان العديد من الثورات والفتن، وساعدت على ذلك التركيبة السكانية التي كانت خليطا من العرب والأتراك والأكراد، وإن كان العنصر الفارسي هو الغالب، وكذلك امتازت المدينة بتعدد الملل والطوائف، والأديان، والفرق، والمذاهب.

ومع نهاية القرن العاشر الميلادي ضعفت الخلافة العباسية، وظهرت سلالات محلية بدأت تحكم المنطقة مثل الكاكويين والبويهيين.

وفي عام 1030 سيطر السلطان محمود الغزنوي على المدينة. وبحلول منتصف القرن الحادي عشر سقطت المدينة بيد الدولة السلجوقية بقيادة السلطان "طغرلبك"، وفي عهد السلطان "ملكشاه" السلجوقي أصبحت المدينة عاصمة البلاد، وارتفع شأنها وتوسعت، وانتعش الاقتصاد، وازدهرت العلوم والفنون والعمارة، وأصبحت أصفهان مركزا علميا مشهورا تشد له الرحال.

ولكن المدينة تعرضت للغزو المغولي، الأمر الذي نجم عنه تراجع أهميتها، ولما دخلها تيمورلنك عام 1387م فرض عليها ضرائب فاحشة، فثار الناس وقتلوا بعض الجباة، فعمل تيمورلنك على إبادة جمع كبير من سكان المدينة.

وفي مطلع القرن السادس عشر دخلت تحت الحكم الصفوي، وانتشر فيها المذهب الشيعي. وكان هذا العصر، لاسيما إبان حكم الشاه عباس الأول، "العصر الذهبي" للمدينة، إذ بلغت أوج ازدهارها بعد أن أعاد الشاه بناءها، وأصبحت عاصمة البلاد من جديد في العام 1590، وباتت مركزا حضاريا للعلم والفن والعمارة والأدب، وأصبحت واحدة من أكبر وأجمل المدن في القرن السابع عشر. كما شجع الشاه التجارة، وأعاد توجيه طريق الحرير ليمر منها.

وقد كانت أصفهان على مر التاريخ مركزا من مراكز الحركة العلمية والأدبية في العالم الإسلامي، ولاسيما حينما كانت تحت حكم آل بويه الذين نشطوا الحركة الفكرية في البلاد التي حكموها، وشجعوا العلماء والأدباء والفلاسفة، حتى لقد نبغ في عهدهم من يعد بحق فخر الدولة الإسلامية في العصور المختلفة.

ومن الناحية المعمارية، ويعد فخر الدولة البويهي أهم الشخصيات الحاكمة، حيث أنشأ وزيره الصاحب بن عباد البوابة المؤدية إلى المسجد والتي حل محلها بعد ذلك مسجدي حاكم.

كما قام الحاكم الكاكوي علاء الدولة بتوسعة الحصون في أصفهان وأنشأ اثني عشرة بوابة مغطاة بالمعدن، لحمايتها من قبائل التركمان الغازية. وقبيل وفاته، أعلن علاء الدولة محمد ولاءه للسلاجقة الذين كانوا في ذلك الوقت قد قاموا باحتلال أغلب الأراضي الواقعة في وسط إيران.

وتتميز المدينة بأهميتها التاريخية، إذ تبوأت الصدارة على عهد الدولتين السلجوقية والصفوية، وكانت عاصمة البلاد ردحا من الزمن، واعتنى بها الحكام فازدهرت وتألقت حتى أصبحت جنة غنّاء وتحفة معمارية نادرة بقصورها الشاهقة وقلاعها الحصينة ومساجدها العامرة وأسواقها المزدهرة.

ويذكر بعض المؤرخين أن المدينة اشتملت في القرن السابع عشر على ما يزيد على 162 مسجدا و٤٨ مدرسة و 1802من المباني التجارية و 283حماما.

ويعد العهد الصفوي هو البداية التي أخذت بالمدينة إلى عصرها الذهبي في أواخر القرن السابع عشر الميلادي.

وقد أخذت المدينة زخرفها وازينت تحت حكم الحكام الجدد خاصة في عهد الشاه عباس الكبير، وذاع صيتها في أرجاء العالم المتحضر.

وقد حكم الملوك الصفويون زهاء قرن ونصف من الزمان وكانت أصفهان طيلة هذا الزمان عاصمة لهم.

وفى سنة1593 م اتخذ عباس الصفوي الأول أصفهان عاصمة له بدلاً من قزوين، وما زال معناها التاريخي المتجدد ودلالاتها السياسية باعتبارها عاصمة الصفويين حاضراً في الذاكرة الوطنية الإيرانية بالرغم من زوال الدولة الصفوية قبل حوالي ثلاثمئة عام.

وربما لم تترك سلالة حاكمة طابعها وتأثيرها على إيران مثلما فعلت الدولة الصفوية، فمنذ الفتح الإسلامي حتى قيام تلك الدولة لم تنهض إيران حاضرة كبيرة في محيطها الجغرافي مثلما نهضت في عصر الصفويين.

ومنذ زوال دولة الصفويين لم تعد لأصفهان مكانتها وتميزها، حيث فقدت دورها كعاصمة لمصلحة نيسابور أولاً ثم طهران لاحقاً.

يعود السبب في اختيار الصفويين لأصفهان عاصمة لملكهم بدلا من مدينة قزوين التي بدئوا بها كعاصمة، إلى أن أصفهان تبعد عن الإمبراطورية العثمانية مقارنة بقزوين، وهو اعتبار له أهميته الإستراتيجية الفائقة، لأن ذلك سيجعل عاصمة الصفويين بمنأى عن الغزوات العثمانية، كما أن أصفهان تقع في حضن الجبل وبحيث يصعب فتحها، مقارنة بمدينة قزوين عاصمتهم الأولى، وأخيراً لأن المدينة تقع على طريق القوافل التجارية إلى الهند.

تقول المراجع التاريخية إن منجِّمي ذلك الزمان اعتقدوا بكارثة ستحل على مدينة قزوين؛ فأخبروا الشاه عباس الذي قرر نقل العاصمة بعيداً عن قزوين، ولكن الاعتبارات الإستراتيجية والتجارية تبدو عند تقليب النظر في الأمور الأساس لانتقال العاصمة إلى أصفهان.

ولم يكتف الصفويون بتغيير العاصمة فقط، بل ذهب خيالهم إلى أبعد من ذلك بكثير حتى وصل إلى رمزية العلم الإيراني وتصميمه المميز.

وتعد المدارس هي النواة الأولى للحركة الفكرية التي شهدتها البلاد خلال الحكم البويهي، ويأتي في مقدمة هذه المدارس مدرسة «جهار باغ» الدينية فوقها قبة زرقاء بديعة تمتد حولها الألونة في طابقين لإيواء (160) من طلاب العلم، وفيها يتخرج المولاة، وواجهة أحد المداخل آية فنية في نقوشها وزخرفها الفارسي البديع، وقد أقامها الشاه حسين عام 1173 هـ 1760 / م.

وهناك مدرسة «شهر ياق» وهي في نفس الوقت مسجد، وهي مدرسة سلطانية أنشأها الشاه حسين الصفوي عام 1134 هـ 1722/ م، وبها قبة ومئذنة تعتبران من أروع ما خلفه المسلمون من أعمال تلبيس المنشأت بالقاشاني والخزف المزين بالزخارف والكتابات.

ونبغ في أصفهان خلق لا يحصون من العلماء في كل علم وفن، ولاسيما الحفاظ ورجال الحديث. ولقد كانت أصفهان درة في تاريخ فارس، ومركزا حضاريا حين انطوت تحت راية الإسلام.

الفقيه داود بن علي الظاهري، والأديب المؤرخ أبو الفرج الأصفهاني، والفقيه المحدث أبو نُعَيْم الأصفهاني، والعالم الأديب الراغب الأصفهاني، وجامع العلوم النحوي الأصفهاني الباقولي، والأديب المؤرخ العماد الأصفهاني، وآخرون. ويفتخر أهل أصفهان بأنها مسقط رأس الصحابي الجليل سلمان الفارسي.

وفي سنة 1722 ميلادية غزا محمود الأفغاني المدينة، وفي غضون ذلك اجتاحتها المجاعة والطاعون، فاستسلمت بعد حصار طويل، وساء حالها وقلّ عدد سكانها. ولما تولى طهماسب قولي خان (نادر شاه) الحكم تمكن من استردادها في عام1729 ، لكن تم اغتياله على يد أحد حراسه، واستطاع حينها كريم خان زند أن يبسط هيمنته على المدينة عام.1747

وفي 1795 استولت السلالة القاجارية على الحكم في المنطقة، ثم أصبح رضا خان ملكا على إيران، وكان أول ملك للدولة البهلوية عام1925 ، وفي عهده بدأت المدينة تنمو من جديد، وتم إنشاء الحي الصناعي وترميم العديد من المباني التاريخية.

وبعد قيام الثورة الإسلامية في إيران عام 1979 أصبحت أصفهان إحدى كبرى مدن الجمهورية الإسلامية الإيرانية وأهمها.

وحاليا أصفهان "نصف الدنيا" ومدينة التصنيع العسكري في إيران، وتُعد مركزا بارزا في مجال التصنيع العسكري، وتضم مواقع نووية وعسكرية حساسة جعلتها عرضة للاستهداف مثل منشأة نطنز النووية لتخصيب اليورانيوم، وصناعة أجهزة الطرد

المركزي، وقاعدة "هشتم شكاري" الجوية التابعة للجيش الإيراني، وقاعدة "نصر" الجوية لصناعة المسيرات التابعة للحرس الثوري الإيراني.

وهي مدينة صناعية مركزية، تضم شركات صناعية مهمة مثل: شركة "مباركة" أكبر مصنع للصلب في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وشركة صناعة الطائرات الإيرانية "هسا".

وشهدت المدينة جملة من الأحداث والتفجيرات التي استهدفت منشآت ومواقع عسكرية، أهمها:

- هجوم سيبراني على منشأة "نطنز" النووية عام2009 ، أدى إلى تعطيل عدد من أجهزة الطرد المركزي.
- تفجير في منشأة "نطنز" عام2020 ، استهدف موقعا لتركيب أجهزة الطرد المركزي.
- هجوم استهدف قسم شبكة توزيع الكهرباء في منشأة "نطنز" عام.2021
- هجوم بالمسيرات على مصنع عسكري تم إحباطه عام.2023
- هجوم استهدف مدينة أصفهان بمسيرات تم إسقاطها دون وقوع أضرار في أبريل/نيسان.2024

وذهب الرحالة الإيراني الأشهر ناصر خسرو إلى القول: "لم أجد في أرض فارس مدينة أكثر جمالاً وعمراناً من أصفهان".

ويعتبر السجاد الفارسي من أشهر السجادات في العالم، ويعتبر أحد التحف الفنية التي يمكن شراؤها كتذكار من أصفهان، وتشتهر أصفهان بصناعة السجاد الفارسي الفاخر الذي يتميز بالجودة العالية والتصميمات الفريدة.

وتشتهر أصفهان بصناعة الخزف الإيراني الفاخر الذي يتميز بالجودة العالية والتصميمات الفريدة.

وقد جمعت مدينة أصفهان بين عبق الحضارتين الفارسية والإسلامية، وتعد أحد المدن الإيرانية الهامة عبر الحقب التاريخية المختلف، وهي مدينة عريقة ذات تاريخ غني بالفن والثقافة، حيث تشتهر بجمالها المعماري وروعة فنونها.

وتعتبر المدينة مركزًا ثقافيًا واقتصاديًا هامًا في إيران، وتحتوي على العديد من المعالم الأثرية والتاريخية التي تجذب الزوار من جميع أنحاء العالم.

وتضم المدينة مزيجا من المجموعات العرقية المختلفة التي دخلت واستقرت فيها عبر التاريخ، مثل الفرس واللور والأتراك والأرمن والجورجيون والغجر والعرب. وتعد اللغة الفارسية اللغة الرسمية في المدينة، وتحتفظ الأقليات مثل الأرمن واليهود والأتراك الجورجيين بلغاتها الخاصة، وتعتبر الديانة الإسلامية هي السائدة، وتعيش فيها أقليات دينية أخرى كالمسيحيين والزرادشتيين.

مدينة شِيرَاز

اسم علم مؤنث فارسي، معناه: اللبن المصفَّى، رائب اللبن، وهو كذلك اسم مدينة في جنوبي إيران عاصمة إقليم أو محافظة فارس ومقاطعة شيراز.

وتعد شيراز خامس أكبر مدينة في إيران بعد كل من طهران ومشهد، وأصفهان وتبريز وكرج. وتحتلّ المرتبة الثانية على مستوى إيران من حيث المساحة.

وتقع شيراز في منتصف أرض محافظة فارس، بالقرب من جبال زاجروس، وتتمتع بجو لطيف يميزها عن المناطق القريبة منها كيزد وخوزستان.

يختلف اسم شيراز في الكتب والأوراق التاريخية، حيث تسمت شيراز بعدة أسماء منها «تيرازيس»، «شيرازيس» و«شيراز». وأيضاً لقبت شيراز بـ «دار العلم» في أيام الدولة الصفوية لكثرة رجال الدين فيها آنذاك. ومن الأسماء القديمة لها أيضاً «شهر راز» والمكان الأصلي لمدينة شيراز كان في قلعة أبو نصر.

حسب التقديرات فإنّ المدينة موجودة قبل أكثر من أربعة آلاف سنة، وقد شوهد اسمّها في مجموعة من النقوش التي تعود للعصور المسماريّة القديمة، أي قبل أكثر من ألفين عام ما قبل الميلاد، تحديداً في الجزء الجنوبي الغربي من المدينة، وحسب بعض الأساطير الإيرانيّة فإنّ الملك الفارسي طهمورث هو المؤسس الأساسي للمدينة، ولكنّها تحوّلت بعد رحيله إلى دمار وبقايا آثار، وقد حكمها الأخمنيين إلى أن فتحها المسلمون وتمتّ عمارتها من جديد على يدّ محمد بن أبي عقيل الثقفي، وأصبحت من ذلك الوقت مركزاً عسكرياً.

أما برسبوليس: كانت عاصمة الأخمنيين في الفترة ما بين عامي 550 و 330ما قبل الميلاد، وتبعد عن شيراز حوالي سبعين كيلومتراً في الجهة الشماليّة الشرقيّة منها.

وكانت شيراز عاصمة لعدة دول تاريخية كالدولة الصفارية والدولة البويهية والدولة الزندية.

وعندما استولى الصفويون على بلاد فارس أجمع عاد نجم المدينة إلى الصعود في عهد الأمير قوبي خان وكان الحاكم العام لإقليم فارس من قبل الشاه عباس.

حيث عمل كثيراً على تجميل المدينة مقلداً في ذلك ما فعله سيده في أصفهان، وقد بنى الأسوار وغرس أشجار السرو على الجانبين لمسافة بعيدة على الطريق المؤدية إلى أصفهان مضفيا على المدينة من جهة الشرق ما يليق بها من منظر، كذلك نصب السرادقات بين مسافة وأخرى على غرار تشاهرباغ الشهير الذي بناه الشاه عباس في أصفهان. كما بنى في الميدان الكبير قصراً فخماً.

وفي عام 1615 م. بنى الكلية المعروفة بمدرسة خان، ولم يبق منها إلا بهو مثمن الشكل يمتاز بالفسيفساء والقيشاني البديع.

وفي عام 1668 م هطلت الأمطار بغزارة ووافق ذلك وقت ذوبان الثلوج على الجبال، مما سبب فيضانا عارما تضررت منه المدينة ضرراً شديداً؛ فقد تبع هذا الفيضان وباء جعل المدينة في حالة يرثى لها. وكانت شيراز قد ابتلت من هذه الكارثة إلى حد بعيد.

وفي عام 1725 م جند الأفغان قوة للاستيلاء على شيراز، وكانوا قد استولوا قبلاً على أصفهان وحكموا معظم بلاد فارس. غير أن هذه القوات صدت وقتل قائدها. ثم حاصرت المدينة قوة أفغانية تفوق الأولى عددا واستولت عليها بعد أن مات كثيرا من السكان جوعا.

وقد جعلها كريم خان زند عاصمته وأحاطها بالأسوار والخنادق ورصف شوارعها وأقام العمائر الجميلة فيها، وبخاصة السوق الكبير.

وفي عام 1729 م وردت الأخبار تقول: إن نادر قولي بك الذي أصبح فيما بعد نادر شاه، طرد الأفغان من أصفهان، فثار أهل شيراز ولكن الحامية الأفغانية أخضعتهم وقتلت منهم الكثير وأنزلت بالمدينة وببساتينها خسائر فادحة.

غير أن نادر قولي بك هزم الأفغانيين في ديسمبر عام 1729 م، وذلك في معركة جرت قرب شيراز التي سقطت بعد ذلك في يديه.

فأعاد النظام والأمن، وأصلح الأضرار التي نزلت المدينة وغرس البساتين. ولكن تقي خان شيرازي، حاكم شيراز قاده طموحه لسوء الحظ إلى التمرد على نادر شاه ونصب نفسه حاكما مستقلا على شيراز.

فأرسل نادر الجيوش في الحال لإخماد نار الثورة، وسقطت المدينة في يديه بعد حصار دام أربعة أشهر ونصف، ثم أعمل الجنود في شيراز السلب فنهبوا كل بيت وقتلوا كثيرا من الأهالي. وبعد اغتيال نادر شاه عام 1747 م عانت شيراز الأهوال مرة أخرى.

وفي عهد كريم خان زند أصبحت شيراز عاصمة بلاد فارس. وعند موته عام 1779 م كانت المدينة قد استعادت كثيراً من مجدها السابق وبعد خمس عشرة سنة تولى الحكم آقا محمد شاه مؤسس العائلة القاجارية وعدو بني زند اللدود، واتخذ طهران عاصمة له بدلا من شيراز فعادت مرة أخرى إلى التأخير

وتشتهر شيراز بالشعراء، وقد أنجبت أشهر الشعراء الذين كتبوا باللغة الفارسية (كحافظ الشيرازي، وسعدي الشيرازي..)، وتشتهر أيضاً بالحدائق والزهور.

كما اشتهرت شيراز أيضاً في التاريخ بصناعة النبيذ ويوجد إلى اليوم نبيذ يسمى باسم نبيذ شيراز.

علم إيران

علم إيران أُعتمد علم إيران في ٢٩ تموز – يوليو من سنة 1980 عقب قيام نظام الجمهورية الإسلامية، ويتكون العلم الإيراني من ثلاثة شرائط أفقية هي الأخضر والأبيض والأحمر ويتوسط الشريط الأفقي الأبيض لفظ الجلالة «الله» باللون الأحمر، بينما يحيط المستطيل الأبيض إطارًا كُتب عليه «الله أكبر» بالخط الكوفي.

نقطة ضوء

من قيام الدولة البهلوية إلى الثورة الإسلامية

في عام 1921م ترقى «رضا خان» من ضابط بالجيش إلى وزير للحربية ثم رئيس للوزراء بعد قيامه بانقلاب. وفي عام 1925م أصبح رضا خان ملكاً على إيران كأول ملك للدولة البهلوية.

وبرغم أنه كان يهدف إلى أن يصبح رئيس جمهورية، إلا إن رجال الدين أقنعوه ليصبح شاهاً (ملك)، خوفاً من تضاؤل نفوذهم في الجمهورية.

وخلال فترة حكمه من1925–1941 م: كانت أولى الخطوات التي اتخذها رضا شاه بهلوي تعزيز سلطة الحكومة المركزية بإعادة بناء الجيش وتقييد حصانة زعماء القبائل، والغاء نظام الامتيازات الأجنبية وكثير من الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الهامة.

وطالب رسمياً جميع الدول الأجنبية مخاطبة الدولة باسم إيران بدلاً من فارس وعندما قامت الحرب العالمية الثانية رفض رضا شاه الانحياز إلى الحلفاء، فاضطر للتنازل عن العرش، وخرج من إيران تحت حراسة بريطانية إلى جزيرة موريشوس ثم إلى جنوب أفريقيا حيث توفي هناك عام 1944م

وخلفه ابنه «محمد رضا شاه بهلوي». وبضغط من أمريكا، اضطر الروس إلى الانسحاب من الجزء الشمالي الغربي. وكانت هذه هي أول وآخر مرة يعيد فيها ستالين أرضاً محتلة في الحرب العالمية الثانية.

** في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩–١٩٤٥ كان موقع إيران الجغرافي الاستراتيجي وتعاظم أهمية البترول في الحرب سببا دفع الحلفاء إلى توريط إيران في نشاطاتهم العسكرية أثناء الحرب، رغم إعلان إيران أنها تقف موقفا محايدا، وبعد احتلال اليابان لإندونيسيا، أصبح البترول الإيراني الاحتياطي الوحيد للحفاء في الشرق، ولجأت بريطانيا والاتحاد السوفيتي إلى احتلال إيران في الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٤١م، ودخلت بريطانيا من الجنوب، ودخل الاتحاد السوفيتي السابق من الشمال للدفاع عن خطوط الإمداد، وبحجة وضع حد لنشاطات عملاء الألمان.

وكانت إيران معبرا تموينيا للبلدين أثناء الحرب، وأجبر الحلفاء رضا شاه ١٩٢٥–١٩٤١م على التنازل عن العرش لولي عهده محمد رضا، وغادر رضا شاه البلاد منفيا إلى جنوب أفريقيا، حيث قضى هناك بقية حياته، وتوفي في يونيو عام ١٩٤٤م، ورفضت القوات البريطانية والروسية التي كانت تحتل البلاد –آنذاك– دفنه في إيران، فنقل جثمانه إلى القاهرة حيث دفن في مسجد الإمام الرفاعي، قبل نقله إلى طهران في مايو عام ١٩٥٠ م، وتشييد ضريح له في مدينة الري (جنوب طهران).

ومن المفارقات أن يدفن ابنه الشاه محمد رضا بهلوي أيضا في مسجد الإمام الرفاعي بالقاهرة في عام ١٩٨٠م.

** وفي الفترة من1953–1951 م كانت إيران تواجه مشاكل اقتصادية كبيرة جدا ومعدلات فقر عالية، وغضب شعبي عارم ضد الشاه "محمد رضا بهلوي".

في تلك السنة انتخب البرلمان الإيراني رجل اسمه "محمد مصدّق" رئيسًا للوزراء، الذي بدأ عهده بسلسلة إصلاحات اقتصادية واجتماعية نالت قبول واسع من الشعب الإيراني.

وكان أهم قرار اتخذه مصدق هو حرمان بريطانيا من سرقة النفط الإيراني عبر تأميم صناعة النفط التي كانت تسيطر عليها شركة النفط البريطانية **Anglo-Iranian Oil Company**، فأصبحت ملكية النفط الإيراني بيد الدولة، عندها جن جنون الانجليز الذين اعتادوا نهب ثروات الأمم طوال تاريخهم الاستعمار.

مما دفع بريطانيا، خوفاً على امتيازاتها البترولية، إلى تجميد جميع الأصول الإيرانية في البنوك البريطانية ورفعت القضية إلى محكمة العدل الدولية. وحكمت المحكمة لصالح إيران.

ولم ترتدع بريطانيا، فقامت بفرض حظر تجاري على إيران ونفذته بقوتها البحرية، مما أدى إلى انهيار الاقتصاد الإيراني فطلب محمد مصدق معونة مالية من الولايات المتحدة لسد العجز في ميزانية الدولة، لكن الولايات المتحدة رفضت بإيعاز من بريطانيا، كما رفضت مساعدة إيران في تسويق المخزون من بترولها.

وانشق الكثيرون ممن أغرتهم الأموال والمناصب على الدكتور مصدق، ودبت الخلافات الأيديولوجية في الجبهة الوطنية، وتخلى عنه رجال الدين وعلى رأسهم آية الله كاشاني، وتدخلت الولايات المتحدة وبريطانيا بالتمويل والتحريض للمحافظة على مصالحها في الخليج، وخوفا من تداعيات تأميم البترول الإيراني وتأثيره على بلدان الشرق الأوسط المنتجة للبترول.

في البداية، لم تكن واشنطن مقتنعة بضرورة الإطاحة بمصدق، لكن بسبب منافسات الحرب الباردة، وموافقة الانجليز على تقاسم الغنيمة (النفط الإيراني) مع الشركات الأمريكية، وافقت أمريكا على الإطاحة بحكومة مصدق.

⭕ وكان الحل عن طريق: الخطة "أجاكس"، التي كانت عملية سرّية أشرفت عليها وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) بالتنسيق مع جهاز المخابرات البريطانية MI6.

⭕ شملت هذه الخطة عدة عناصر من بينها تمويل وتوجيه مجموعات احتجاجية، لعمل مظاهرات وأعمال شغب بشوارع إيران، وجرى دعمها عن طريق الصحافة والإعلام المضلل، بجانب التواصل مع عناصر في الجيش الإيراني ومسئولين محليين لتنفيذ انقلاب عسكري. كما استخدمت الوكالة الأموال في رشوة سياسيين وضباط ليتحولوا إلى داعمين لها.

كان مصدق قد قام بعمليات تطهير للجيش وخفض الميزانية لصالح المشروعات الصحية والزراعية والصناعية، وقلص صلاحيات بعض قادة هذا الجيش وفصل عددًا من ضباطه الفاسدين.

⭕ في مارس/آذار1953 ، بدأ وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس بإصدار توجيهاته إلى وكالة الاستخبارات المركزية(CIA) ، التي كان يرأسها شقيقه الأصغر ألن دالاس، للشروع في التخطيط للإطاحة برئيس الوزراء الإيراني محمد مصدّق. وفي ٤ أبريل/نيسان1953 ، صادق ألن دالاس على اعتماد مالي قدره ١ مليون دولار خُصص «لإسقاط مصدّق بأي وسيلة ممكنة».

⭕ على إثر ذلك، أطلق مكتب وكالة الاستخبارات المركزية في طهران حملة دعائية منظمة ضد مصدّق، شملت تشويه صورته سياسيًا والتحريض عليه داخليًا. وفي أوائل يونيو/حزيران، كشفت صحيفة نيويورك تايمز عن اجتماع لمسئولي الاستخبارات الأمريكية والبريطانية في بيروت، حيث وُضعت اللمسات الأخيرة لخطة الانقلاب الإيراني.

⭕ انطلقت الخطة، بمحاولة إقناع الشاه محمد رضا بهلوي بإصدار مرسوم لعزل مصدّق. إلا إن الشاه كان متردد وخائف من الإقدام على خطوة كهذه في ظل التأييد الشعبي العارم لمصدق.

لكن لم يتطلّب تغيير موقفه أكثر من بعض الاجتماعات الأمريكية معه، وتجنيد المخابرات الأمريكية لشقيقته "الأميرة أشرف" ودفع لها بعض الأموال والهدايا الثمينة، من بينها معطف من فرو المنك، للتأثير عليه.

ومع بداية أغسطس/آب1953 ، تصاعد الصراع بين مصدّق والشاه إلى مستوى غير مسبوق، وتدهور الوضع السياسي بشكل حاد. وفي النهاية، وافق الشاه على المضي في خطة الإطاحة بمصدق، وأصدر قرارين: الأول بـ عزل مصدق، والثاني بتعيين الجنرال فضل الله زاهدي محله، وهرب الشاه خارج البلاد.

وإمتلاءت شوارع إيران بمظاهرات معادية لمصدق جرى تمويلها وتنظيمها مسبقًا، وجرى تضخيمها عبر وسائل الإعلام الإيرانية والدولية، مع إطلاق شعارات مهينة استهدفت النيل من هيبة رئيس الوزراء. وتطورت الأحداث إلى اشتباكات عنيفة في الشوارع، رافقها نهب وإضرام النار في المساجد والصحف، وسقوط العشرات.

⭕ في اللحظة الحاسمة، ظهرت القيادات الموالية للنظام الملكي، التي كانت مختبئة، بدعم مباشر من CIA وقاد التحرك العسكري ضباط موالون للشاه، وانضم إليهم فضل الله زاهدي، إلى جانب شخصيات محلية وعناصر من العصابات المنظمة، مثل شعبان جعفري والإخوة راشدين.

⭕ وبانضمام الجيش الإيراني رسميًا إلى الأحداث، انتشرت الدبابات في شوارع طهران، وتم قصف مقر الإقامة الرسمي لرئيس الوزراء في وسط طهران.

⭕ وفي ١٩ أغسطس/آب1953 ، المعروف في إيران بـ ٢٨ مرداد، نجحت المحاولة الأمريكية في إسقاط حكومة مصدّق نهائيًا. وسلم مصدق نفسه بعد أن أمطروا منزله بوابل من قذائف الدبابات والرشاشات، وحوكم مصدق أمام محكمة عسكرية ووجهت إليه تهمة الخيانة، وأصدرت المحكمة عليه حكما بالسجن لمدة ثلاث سنوات، ثم فُرضت عليه الإقامة الجبرية طيلة حياته. وتمت ملاحقة واعتقال مؤيديه وأنصاره، وتم إعدام الكثيرين منهم، وعلى رأسهم الدكتور حسين فاطمي وزير خارجية مصدق. لتنتهي بذلك التجربة الديمقراطية الأنجح في تاريخ إيران الحديث.

📌 كانت تكلفة كل هذا الإجرام حوالي ١ مليون دولار أمريكي ! وقاد هذه الخطة الشيطانية وزير الخارجية الأمريكي "جون فوستر دالاس" وراح ضحية هذه الأحداث والاشتباكات بين الجانبين ما بين 200 و 300 قيل.

📌 بعد نجاح الانقلاب عاد الشاه محمد رضا بهلوي الذي كان قد اضطر إلى مغادرة البلاد عندما تصاعد الخلاف بينه وبين الدكتور مصدق من روما إلى إيران، وذلك بعد أن اطمأن إلى نجاح الانقلاب المضاد، وبدأ عهد طويل من الحكم الملكي الفاسد والعلماني، والخضوع التام للغرب والدعم المطلق للكيان. خاصة وأن الكيان قد ساعده بالخبراء الأمنيين لقمع شعبه عبر جهاز "السافاك."

📌 وكانت أولى قرارات الشاه هي سحق المعارضة وإعادة منح الامتيازات النفط للشركات الغربية (البريطانية منها والأمريكية). هكذا نشرت أمريكا وبريطانيا الديمقراطية في إيران!!

الاستقطاب

أسدل الستار على مصدق وجبهته وانسحب اليسار والشيوعيون إلى سراديبهم. وانجزر المد الديني. وعاد المثالي والطامع والعميل والطامح كل إلى مستقرة وخلت الشوارع من إيران وشعوبها، واسترخى كل ما في ومن في طهران، فلقد آن للجماهير أن تستريح وتريح، بعد عواصف عاتية من التخبط والانفعال، فاستأثر الشاه بالسلطات الثلاث، التشريعية والتنفيذية والقضائية، وأصبح من حيث الواقع الامبراطور والمشرع

والقاضي، واطمان إلى رسوخ سلطانه وأحس بحريته في التحرك والحركة كيفما شاء واينما شاء.

ولما كانت السياسة الخارجية لكل دولة، أمرا مرهونا بعوامل أربعة هي:

الأول: السياسة الداخلية بكل ميادينها.

الثاني: الجغرافيا السياسية.

الثالث: المطامح أو المخاوف القومية.

الرابع: النوعية الأيدلوجية للنظام القائم.

لذلك وجد أن الولايات المتحدة الأمريكية هي أفضل حليف له بحكم الطبيعة والظروف معا. فاتجه نحوها واتخذ منها قطبا الرحاه فهي:

أولا: معين لا ينضب للتصنيع والتسليح.

وهي ثانيا: السد المنيع الأوحد أمام الاتحاد السوفيتي، ولاسيما أن لإيران حدودا مشتركة مع السوفيت تتجاوز الألف والخمسمائة كيلو مترا طولا.

وهي ثالثا: الملاذ الأمين من مطامع السوفيت في أذربيجان وغيرها من الأقاليم الإيرانية بالإضافة الى كونها قوة وسندا للشاه في مطامحه إلى التوسع والهيمنة وتأكيد وجوده الدولى.

وهى رابعا: بحكم طبيعة نظامها، معادية للشيوعية فلسفة ونظاما ومنهجا.

وهكذا وجدت الشاه في المرحلة الأولى من سياسته الخارجية، الى مرحلة احتضانه لأمريكا، واحتضان أمريكا له، يذكرنا بسياسة رجل الدولة النمساوي، مترنيخ وبمواقفه في مؤتمر فيينا بعد هزيمة نابليون في معركة واترلو. أن أصبح الشاه الكاهن الأكبر لليمين الدولي العلماني المتطرف في الشرق الاوسط، ولاسيما في ميدان الأحلاف العسكرية حيث أصبحت إيران العضو الأساسي في حلف بغداد، والعضو المؤسس في حلف السنتو، وأصبح الشاه البريمودونا بالنسبة للسياسة الأمريكية في المنطقة وذلك لأن الولايات المتحدة الأمريكية وجدت في الشاه العاهل القادر على الابقاء للمتطلبات الأساسية لسياستها في المنطقة وأعنى بهذا المتطلبات التالية:

١/ الحليف على الاتحاد السوفيتي وعلى مناهضة الشيوعية الدولية معا.

٢/ العامل الهام في تصفية تركة الامبراطورية البريطانية في المنطقة لحساب الولايات المتحدة الأمريكية.

٣/ الشرطي الكفؤ والمنضبط لحراسة الخليج العربي وحقول بتروله.

٤/ الجدار الهام في جدران المحجر الوقائي المنوي حجر العالم العربي الشرق أوسطي داخله ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن زخومية التعاون، أو بالاحرى الاستزلام الشاهنشاهي للولايات المتحدة الأمريكية بلغت أشدها في عهد الرئيس نيكسون وكيسنجر الذي عرف كيف يعزف بمهارة على قيثارة مطامح الشاه أو مطامعه.

البترول مرة أخرى

قام احتكار غربي جديد للبترول الإيراني وزعت فيه الأنصبة الأجنبية بطريقة جديدة بحيث لا يكون للبريطانيين السيطرة القديمة نفسها على منابع البترول الإيراني، واستؤنفت العلاقات الدبلوماسية بين إيران وبريطانيا في ديسمبر ١٩٥٣م، وفي أغسطس ١٩٥٤م أبرم اتفاق بين الحكومة الإيرانية والشركات الأجنبية ينص على تشكيل كنسرسيوم اتحاد شركات بترولية عالمية، وهي ثماني شركات أمريكية وفرنسية وهولندية إلى جانب شركة البترول البريطانية الإيرانية. وذلك من أجل استغلال البترول الإيراني وتسويقه. وكانت أسهم هذه الشركات مقسمة على النحو التالي:

شركة البترول البريطانية الإيرانية ٤٠٪ – الشركات الأمريكية ٤٠ %الشركات الهولندية ١٤٪ – الشركات الفرنسية ٦٪.

وبذلك أصبحت الولايات المتحدة شريكا له وزنه في صناعة البترول الإيراني. وتم الاتفاق على سريان مفعول الاتفاق لمدة خمسة وعشرين عاما تجدد. بإخطار سابق ثلاث دورات أخرى، مدة كل دورة خمس سنوات.

ووافقت الحكومة الإيرانية الجديدة على دفع تعويضات لبريطانيا عن سنوات التأميم، وهي فترة حكومة الدكتور مصدق.

وهكذا تم تجاهل قانون تأميم صناعة البترول الإيراني الذي كان من الأحداث المهمة والعلامات البارزة في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد ذكر الشاه محمد رضا بهلوي أنه كان من الصعب أن يعقد اتفاق –آنذاك– أفضل من ذلك.

وقال رئيس الوزراء عباس هويدا أثناء تقديمه للائحة اتفاقية الكونسرسيوم إلى البرلمان: إن الاتفاق المذكور لم يكن الشيء الذي نصبوا إليه.

** أحكمت الولايات المتحدة قبضتها على إيران بعد أن حلت محل بريطانيا، وسيطرت على الجيش والمخابرات والمؤسسات الاقتصادية، وصارت إيران أهم وأضمن قاعدة سياسية وعسكرية للولايات المتحدة في العالم أجمع طوال خمس وعشرين سنة. وانهمرت أرباح البترول التي كانت قد توقفت خلال فترة مصدق وحكومته الوطنية على اتحاد الشركات البترولية التابعة للدول الغربية. وزاد عدد الخبراء العسكريين الذي تقتضي صفقات السلاح وجودهم على أرضي إيران.

** في عام ١٩٥٧م عقدت إيران معاهدة مع شركة "أجيب" الإيطالية، وتم إنشاء شركة إيرانية إيطالية مشتركة، وكانت إيران تمتلك ٥٠٪ من أسهم هذه الشركة وقد أغضبت هذه المعاهدة شركات الكونسرسيوم التي كانت تريد احتكار بترول إيران.

وبعد فترة قصيرة عقدت إيران اتفاقية لاستخراج البترول في إيران مع شركة بان أمريكان، وامتلكت شركة البترول الوطنية الإيرانية ٥٠٪ من أسهم هذه الشركة أيضا.

ولقد اعتبر إلغاء معاهدة ١٩٥٤م نجاحًا كبيرا حققته إيران، وانتصارًا كبيرًا صب في مصلحة الشعب الإيراني. وفي حرب أكتوبر ١٩٧٣م فرضت الدول العربية حظرا بتروليا على الدول الداعمة لإسرائيل، واستخدمت البترول كسلاح سياسي، لكن إيران رأت أن الأمر لا يخصها، واستفادت كثيرًا من نظرية ملء الفراغ.

وعلى الرغم من أن الشاه محمد رضا بهلوي استجاب لطلب الرئيس السادات أثناء حرب أكتوبر، وأمده بكميات من البترول لتموين الطائرات وتشغيل الفرق الآلية، وذلك بعد أن أصدر أوامره لإحدى ناقلات البترول الإيرانية بأن تغير اتجاهها وأن تفرغ حمولتها في مصر. وقفز الدخل القومي الإيراني قفزة هائلة بعد ارتفاع أسعار البترول أثناء حرب أكتوبر، وفي ديسمبر عام ١٩٧٣م طلب الشاه من دول منظمة الأوبك زيادة أسعار البترول الخام، وتقرر بالفعل زيادة سعر برميل البترول من٥,٠٣٢ إلى ١١,٦٥١دولار.

وشنت وسائل الإعلام الغربية هجومًا على الشاه اتهمته بتخريب الاقتصاد الغربي، بل واقتصاد العالم كله، وصرح الشاه في مؤتمر صحفي بأن السعر الجديدة ليس كافيا وأنه

معتدل ومعقول، لأن البترول مادة مهمة ويشتق منها –آنذاك– حوالي سبعين ألف منتج مختلف، وأن سياسة البترول الرخيص سياسة قصيرة النظر، ستؤدي إلى إتلاف مصادر البترول الموجودة، وستجعل العالم يواجه كارثة اقتصادية.

ولم تقف الشركات البترولية الكبرى مكتوفة الأيدي، وسقطت طائرة رئيس شركة أجيب" البترولية الإيطالية التي عقدت مع إيران معاهدة بترولية ثورية وأثبتت التحقيقات وجود قنبلة في الطائرة على الرغم من أن التقرير الرسمي ذكر أن سبب سقوط الطائرة هو: فقدان الرؤية الكافية.

وبدأت وسائل الإعلام الدولية هجوما واسع النطاق ضد إيران والشاه، وشجعت المنظمات الطلابية في الخارج في نشاطها المضاد لإيران والشاه.

وكانت المرحلة الرابعة بداية التحول العميق الذي طرأ على العلاقات الإيرانية الأمريكية في عهد الشاه محمد رضا بهلوي، وبدأت الولايات المتحدة تضيق ذرعا بسياسة منظمة الأوبك، ووصفت الشاه بأنه أحد صقورها البارزين الدين يمارسون ضغوطهم على المنظمة لزيادة أسعار البترول، وشجعت مؤسسة حقوق الإنسان العالمية على التنديد بأسلوب تعامل الشاه مع معارضيه السياسيين في الداخل والتصفية الجدية للرموز الوطنية المعارضة في الخارج

وتواصل الانتقال من الشاه خاصة وأنه بدأ صفحة جديدة مع العرب بعد أكتوبر ١٩٧٣م، وأخذ يدين مواقف إسرائيل وسياستها، ويدافع عن وجهة نظر العرب ومواقفهم. ولهذا السبب كانت إسرائيل أول من عمل على الإطاحة بالشاه، وكان اليهود الإيرانيون أول من استعدوا لذلك بتهريب أموالهم خارج إيران

وأعلنت شركة الكونسرسيوم تخفيض مشترياتها من البترول الإيراني في عام ١٩٧٧م بحجة ارتفاع أسعاره، فانخفضت مبيعات إيران البترولية، وأدى انخفاض الدخل المرتقب من البترول في هذا العام إلى توقد موجة رهيبة من الغلاء والتضخم الاقتصادي وقامت الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية بتحريك المعارضة الإيرانية والطلبة الإيرانيين المقيمين في هذه الدول ضد نظام حكم الشاه. كما اتهمته الولايات المتحدة الأمريكية بتجاهل حقوق الإنسان في إيران

أما بريطانيا فقد شنت حملة ضد الشاه بإعادة نشر كتاب عن النخبة في إيران للكاتب "مارفن زونيس" الذي ألقي فيه الضوء على حجم المؤسسة الدينية الإيرانية، وعلى الإمام الخميني على وجه الخصوص.

كما أتاحت هيئة الإذاعة البريطانية فرصة نادرة لنشر أفكار الخميني، بإذاعة بياناته باللغة الفارسية على الشعب الإيراني من محطتها الموجهة من لندن إلى إيران أثناء وجوده في المنفي في باريس، مما أوحى لرجال الدين الإيراني بأن بريطانيا تؤيد نضالهم ضد الشاه. بالإضافة إلى نشاط أعضاء الجهاز السري البريطاني في الدولة الإيرانية بغرض الإطاحة بنظام الشاه محمد رضا، انتقاما منه لإلغائه اتفاقية مع الكونسرسيوم.

أما فرنسا التي كانت قد رحبت بالخميني ضيفا في أراضيها ومنحته حق الإقامة فيها، ليمارس نشاطه ضد الشاه محمد رضا بهلوي، فقد كان الخميني يرسل منها أشرطة (الكاسيت) التي كان يملأها بصوته وبدعوته إلى التمرد والعصيان.

كما أن صحيفة لوموند الفرنسية نشرت في 1978/5/6م حديثا أجراه مندوبها مع «الخميني» عن الديكتاتورية وحرية الصحافة المخنوقة والأحزاب الممنوعة والانتخابات المزورة والدستور المنتهك وموقفه من إسرائيل والعرب ومن القوى الكبرى في العالم، وعن تبديد الثروة البترولية في تخزين السلاح بغير طائل.

وفيما يتعلق بالاتحاد السوفيتي الذي يشارك إيران في حدود تمتد لمسافة ١٥٠٠ ميل في شمال البلاد والذي كان يطمع دائما في الحصول على امتياز بترولي أسوة بالدول الغربية الأخرى، فقد قام بتشجيع الحركات الانفصالية والسياسية المناهضة للحكومة المركزية في طهران، كما عمل على إسقاط بعض الحكومات الإيرانية التي كانت تقف ضد أطماعه. وكان حزب «توده الشيوعي» عميلاً للسوفييت، وعندما أقدم الدكتور مصدق على تأميم البترول عارض الحزب مشروع التأميم، وقاطع شراء سندات القرض الوطني، كما قاطع الاتحاد السوفيتي شراء بترول إيران وقت الحصار الاقتصادي الذي فرض على إيران آنذاك، على الرغم من أن الدكتور مصدق عرض بيع البترول الإيراني على الاتحاد السوفيتي بتخفيض مقداره (٥٠٪)، وطلب السوفييت الحصول

على امتياز للتنقيب عن البترول في شمال إيران وهكذا وبعد أن كان حلم القياصرة القديم هو الوصول إلى مياه الخليج الدافئة، أصبح حلم الماركسية السيطرة على منابع البترول.

ويشير الشاه محمد رضا بهلوي في مذكراته التي كتبها في المنفي إلى البترول الإيراني وإلى موقف الغرب منه، فيقول: بعد إلغاء اتفاق الكونسرسيوم في ١٩٧٣/٧/٣١ لم تقبل شركات البترول الكبرى أن تبيع لها الشركة الوطنية الإيرانية البترول بتخفيض يصل إلى ٥٠٪ بعد أن تقوم هذه الشركات بالتنقيب عن البترول والعثور عليه، ولم تقبل هذه الشركات أن تكبر الشركة الوطنية الإيرانية، وأن تقوم بإنشاء معامل تكرير في آسيا وأفريقيا، وأن تشارك شركة البترول البريطانية في الاستفادة من بترول وغاز بحر الشمال، وأن تنافس الشركات الكبرى مثل: شركة شل وشركة اكسون موبيل.

ويضيف الشاه قائلاً في موضع آخر من مذكراته: لقد كنت أريد أن أبني إيران قبل أن ينتهي الاحتياطي البترولي فيها، لكن كان لي معارضون كثيرون حاولوا إفشالي في هذا المجال، وفي مقدمة هؤلاء يمكن ذكر أسماء مجموعة شركات البترول الكبرى التي لم تكن ترغب في أن تخرج سياسة بيع البترول بالسعر العادل من دائرة هيمنتهم كما أن هذه الشركات لم تكن ترغب في التسليم بضرورة الإقدام على التضحيات اللازمة من أجل توزيع الثروات من جديد بين الدول الصناعية والمجتمعات النامية.

لهذا كله اختاروا التضحية بإيران كنموذج يعتبر به، وهبوا لتخريبها، ولم يختاروا بلدا مثل ليبيا.

كما يذكر الشاه في موضع آخر أن شخصيتين أمريكيتين مهمتين تعملان في مجال البترول الأمريكي قالتا في عام 1976 م: إن أمر الشاه سوف ينتهي تماما بعد عامين.

وعن نفاد الاحتياطي البترولي الإيراني قال الشاه في مذكراته: لقد قلت غير مرة إن مستقبل إيران يجب ألا يكون مرهونا بالبترول... فبعد حوالي ثلاثين عاما أخرى كان يتحدث عن عائدات البترول عام 1977م حيث سيبلغ عدد سكان إيران (٦٥) مليون نسمة. سوف تنضب مصادرنا البترولية، لذلك يجب أن نفكر من الآن في هذا الأمر، فالسياسة ليست إلا فن التوقع، لذلك فكرنا في إنشاء محطة كبرى لإنتاج الكهرباء

الذرية بالتعاون مع ألمانيا وفرنسا، إن جريمتي أنني أردت أن أخرج إيران من عصر البترول وأدخلها في عصر الذرة في الوقت المناسب، وقبل أن يفوت الأوان.

وذكر الشاه في كتابه بسوى تمدن بزرك (نحو حضارة عظيمة): أن مصادر بترولنا ومصادر البترول في العالم كله ستنضب في المستقبل القريب، وسواء أردنا أم أبينا، سنصل إلى مرحلة الاستفادة من مصادر الطاقة الأخرى، ولهذا السبب بدأنا في تنفيذ برنامج طموح من أجل الاستفادة من الطاقة النووية بالإضافة إلى الطاقة الشمسية والطاقة الهيدروجينية.

وإذا كان البترول قد لعب دورا في الإطاحة بالشاه بعد أن تضافرت جهود القوى الأجنبية ضده لأسباب لعل البترول يكون أهمها وأولها، فإن له دوراً في قيام الثورة في 1979/2/11م بعد أن أدرك الشعب أن الشاه يبدد الثروة البترولية من أجل شراء السلاح وبخاصة بعد الزيادة الكبيرة في أسعار البترول بعد حرب أكتوبر عام 1973 م، وهي الزيادة التي مكنت الشاه من شراء أسلحة متنوعة ومتطورة، وكانت قد حدثت اعتصامات واضطرابات في قطاع البترول وغيره من القطاعات والمؤسسات.

وقال أحد عمال تكرير البترول المراسل أمريكي: إننا لن نصدر البترول إلا بعد أن نصدر الشاه شخصيا وكانت اضطرابات عمال البترول على رأس هذه الاضطرابات وأكثرها تأثيرا، لأن هؤلاء العمال امتنعوا عن تصدير البترول خارج إيران، وحرموا النظام من المصدر الوحيد للدخل.

وشكل شاهبور بختيار آخر حكومة قبل نجاح الثورة، وقدم بعض الوعود للمواطنين ومنها: وقف تصدير البترول إلى إسرائيل، إلا أن نطاق معارضة الشاه اتسع.

**** وبصفة عامة يمكن التأكيد أنه مثل والده الشاه البهلوي رغب محمد رضا في تحديث وتغريب البلاد، فاحتفظ بعلاقات وثيقة مع الولايات المتحدة ومعظم الدول الغربية، وكثيرا ما أشاد الزعماء الأميركيون به وبسياسته وصموده المعارض للشيوعية المعارضة لحكومته، فضلا عن اليساريين والقوميين والجماعات الدينية التي انتقدته لانتهاك الدستور الإيراني، والفساد السياسي، ووحشية القمع السياسي بالبوليس السري «سافاك».**

وكانت لرجال الدين أهمية كبيرة بالنسبة للمعارضة، وهم الذين أثبتوا أهميتهم فيما سبق إبان مظاهرات التبغ التي تحركت ضد عقد احتكاري منحه الشاه ناصر الدين سنة 1891 لشركة بريطانية، والآن أيضاً بدا للفقهاء ورجال الدين أثر كبير على الإيرانيين، خاصة الفئات الفقيرة منهم، الذين عادة ما يكونون الأشد تديناً، وتقليدية، وإقصاء عن أي عملية تغريب.

وتعد إيران رابع دولة في العالم من حيث المخزون النفطي، والثانية بعد روسيا في مخزون الغاز الطبيعي. واستراتيجيا، تقع إيران في القلب من العالم الإسلامي وتتوسط منطقتين هما الأغنى في العالم، من حيث مخزون الطاقة، بحر قزوين والخليج العربي، كما أن مصالحها الاستراتيجية المتشابكة مع الجوار، وامتداداتها العرقية والثقافية والمذهبية فيه، ووجود ثلاث قوي نووية على تخومها هي روسيا وباكستان والهند، بجانب الصين غير البعيدة، وإسرائيل المتحفزة، كانت كله أمور دافعة لها حديثا في اتجاه امتلاك قدرات نووية متقدمة، تستطيع بها التعامل مع التحديات النابعة من هذه الاعتبارات.

هل ثمة أمة إيرانية؟

لا خلاف أن الوحدة الروحية هي التي تصنع الأمة، وأن الحس الجماعي قبل أي شيء آخر هو المظهر الأساسي لممارسة الأمة لوجودها، لذلك فإن القوة المادية العارية تكون وتبقى عاجزة عن تجسيد كيان الأمة إذ أن وسيلتها تكون الإخضاع لا الإقناع. الأمر الذي يعنى أن ثمة خروجا عنيفا على مسار التاريخ وقوانينه الحضارية.

فلنتأمل في مركب الأمة الإيرانية ولنتساءل عما يكونه ذاك العامل الذي جعل من شعوب مختلفة اللغات والتقاليد كأذبيجانيين والأتراك والأكراد والبلوش والعرب وحتى الأرمن أمة واحدة.. لا شك أن ذلك العامل هو الجيش أي القوة المادية العارية، فالجيش كان ويبقى الإطار الجغرافي لما نعرفه باسم إيران، علما بأن والد الشاه الراحل، حاول اصطناع قومية جامعة بين الشعوب الإيرانية هي القومية الآرية، وقد كرس المحاولة حينما بدل في عام ١٩٣٥ اسم بلاده من فارس إلى إيران، أي موطن الآريين

ولكننا جميعا نعلم بأن عامل العنصر وحده ولاسيما إذا كان ضبابيا كالعنصرية الآرية لا يكفي لإعطاء مجموعة من الشعوب أو القبائل هوية قومية، أي هوية الأمة

وذلك لأن الأمة هي نتاج تفاعل مختلف العناصر الحضارية طوال حقب مديدة من التاريخ.

ولكن رضا بهلوي كان يوم ذاك شديد التأثر بالعنصرية التي طغت على أوروبا خلال الثلاثينات من هذا القرن.. حيث أصبحت الآرية على يدي هتلر الوثن المعبود، كما اتخذ أيضا من كمال أتاتورك القدوة والمثل ولا شك أن كمال أتاتورك، هو الذي بلغ بالقومية الطورانية هدفها النهائي الماثل في إلغاء العثمانية الإسلامية اللون كعامل توحيدي بين أمم وشعوب الإمبراطورية العثمانية، بديلا عن الإسلام، وبالحرف اللاتيني بديلا عن الحرف العربي

ولكن العنصر التركي يشكل الأكثرية الساحقة من سكان تركيا.. كما أن اللغة التركية هي لغة هذه الأكثرية زد على ذلك أن لهذه الأكثرية تاريخا واحدا منذ أن أصبحت القسطنطينية اسطنبول في عام ١٤٥٧ م عاصمة للأتراك الذين حينما توسعوا في فتوحاتهم لم يجدوا أفضل من الدين الإسلامي كعامل توحيد بين الشعوب التي أخضعوها في المشرق لذلك كان لابد للإمبراطورية العثمانية من التفكك ومن ثم الانكماش في دولة تركية حينما تخلت عن الإسلام واستعاضت عنه بالقومية والعلمانية

أما في إيران فان العنصر الفارسي لا يشكل أكثر من أربعين بالمائة من سكانها.. ولما كانت العلمانية رفيقا ملازما للقومية وكانت الآرية قومية ميتة بالنسبة لسكان إيران، ولم يكن ثمة تاريخ مشترك بين شعوبها ماعدا الاحتراب والحروب، لذلك فإن الاتجاه القومي العلماني كان يفرض «التوحيد الإرغامي» لا الوجداني الأمر الذي مارسه والد الشاه وهكذا وجدت رضا بهلوي يشن أعنف هجوم على الدين وعلى صروحه وشاهدت سنابك خيله تقتحم المساجد وتدوس المصلين ورأيته يدفع بزوجته شمس الملوك للخروج سافرة إلى الناس ويفرض السفور على نساء إيران وينتهي إلى إعلان الحرب العلمية.

ولذلك نستطيع القول وباطمئنان إن جميع ما شهدته إيران منذ تربع رضا بهلوي على عرش الطاووس، حتى خلع ابنه محمد، من ثورات واضطرابات داخلية، إنما كان المظهر الأساسي من مظاهر الصراع بين المسجد والنظام الإمبراطوري بين الحسينية

والثكنة العسكرية فالقومية والعلمانية المصطنعة كانت الطيف الديناميكي للأحداث فهي التي حركت الرواسب القومية في نفوس الشعوب الإيرانية فأيقظت القومية الكردية وكذلك التركية والبلوشية وأبقت على النوازع العربية في عربستان المعروفة اليوم بخوزستان وقد اتضح للساسة العمليين الإيرانيين أن الدين لا القومية الآرية البائدة، هي عامل الوحدة الوحيد بين الشعوب في إيران وقد حاول هؤلاء الساسة أن يعقدوا نوعا من حلف بين والد الشاه المخلوع وبين رجال الدين لكن رضا بهلوي ركب رأسه وتابع مساره القومي العلماني في ظروف دولية ساعدت على تعطيل الكثير من الألغام التي اعترضت طريقه داخل إيران فالظروف الدولية في أواخر العشرينات وفي الثلاثينات من هذا القرن كانت تثير الرعب في الغرب من ابتلاع الشيوعية السوفيتية لإيران ولاسيما أن لبعض الشعوب الإيرانية امتدادات عرقية داخل الاتحاد السوفيتي كالأذربيجانيين والأكراد مثلا، وهذا مما جعل الغرب ولاسيما بريطانيا ترى في رضا بهلوي الشخصية الواجب دعمها لصد زحف الشيوعية إلى الهند والبحار الدافئة ولتحويل إيران إلى دولة عازلة BUFFERإذا لم يكن بالإمكان تحويلها إلى دولة حليفة.

كما رأت بريطانيا أيضا أن دعوته إلى القومية الآرية العلمانية، والابتعاد عن الإسلام أمران يساعدان على تخدير العواطف الإسلامية في الهند، ويكبحان من جماح تطلعات المسلمين الهنود.

أضف إلى ذلك أن نظام رضا بهلوي كان تقريبا يتطابق شكلا ومحتوى ونظام مصطفي أتاتورك، وكانا يلتقيان بحكم طبيعتهما على العداء للسوفيت من حيث دعوتهما إلى القومية ومحاربتهما للشيوعية، ولذلك كان يلقى الغزل المكشوف بين رضا وهتلر، من لدن الغرب، تسامحا وتشجيعا لا بل مكافأة أيضا، حيث أهدته بريطانيا مشيخة عربستان الغنية بآبار النفط.

وقد بقي رضا بهلوي والد الشاه المخلوع متربعا على عرش الطاووس ومستمتعا برضاء الغرب، لا بل وبمساندته أيضا حتى عام ١٩٤١، حينما غزت القوات البريطانية والسوفيتية إيران فخلعته عن عرشه ونصبت ابنه محمدا شاها جديدا.

الابن على خطى أبيه:

تحت شعار تحديث إيران تحول رضا خان من نادل وخادم في مطعم، إلى جندي ومن ثم إلى ضابط قفز من الثكنة إلى القصر الملكي فخلع أحمد شاه وتربع مكانه على عرش كسرى

وانسجاما مع رضا خان والتقاليد الفارسية التي تنص على ضرورة وجود عائلة مقدسة تتولى شؤون الدنيا والدين اختار النادل «الخادم في المطعم» لشخصه ولذريته اسم بهلوي وهكذا أصبح معروفا باسم الشاهنشاه أريا مهر رضا بهلوي.

لم يخلف رضا بهلوي لابنه عرشا فقط، بل أورثه منهاجا أساسه التناقض وهيكله المفارقة، وبدلا من أن يعيد الشاه النظر في إرثه اعتمد ذلك الإرث واعتبره تراثا جديرا بكل استلهام واسترشاد،

فحاول تشذيب الجسد الإيراني تشذيبا يتناسب والنظام القائم بدلا من تعديل النظام الموروث تعديلا ينسجم وطبائع الشعوب الإيرانية ويتناغم وعقيدتهم الإسلامية وبذلك ضرب عرض الحائط بأبسط قوانين الاجتماع وانجر إلى حرب خاسره سلفا ضد طبيعة الأشياء فصح فيه القول: «الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون»

ومن حسنات الحرب العالمية الثانية بالنسبة للشاه الجديد كونها قد أجلت انفجار التناقض في النظام الشاهنشاهي ولكن تأجيل القضية لا يعني أبدا حلها، بل يعني فقط تناميا في مخاطرها وتوالدا في أخطارها وتزايدا في أهوالها، وأخيرا انفجارها ذلك الانفجار المدمر للدار والمهلك للديار.

انتهت الحرب العالمية الثانية، وبعد مساندة جدية من الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عامة، انتصر الشاه في معاركه ضد الاتحاد السوفيتي ابتداء من معارك الامتيازات البترولية فجلاء السوفيت عن إيران، وانتهاء بالقضاء على الحركة الانفصالية في أذربيجان الإيرانية، وبعد فترة من التقاط نفس، خرجت مشاكل إيران تسعى من جحورها وأصبحت قضايا محاطة بالأطر المذهبية وملونة بالألوان الأيدلوجية فالحرب العالمية الثانية لم تخلف وراءها فقط الموت والدمار، بل اصطنعت أيضا للسياسة أجواء ومفاهيم جديدة واستحدثت مذاهب وشعارات لم يسمع بها الشرق من قبل وأغرقت شعوبه بطوفان من كتب وأفكار ذات قدرة هائلة على الاستهواء ولاسيما استهواء

البسطاء من الناس. وبذلت كل جهد ممكن لاستئصال الإسلام من الشرق وإعلان إفلاسه نظاما وتراثا.

وهكذا وجد الشاه الشاب نفسه.. ونتيجة لمنهاج والده بين فكي كماشة، بين الإسلام الذي استعاض رضا بهلوي عنه بالعلمانية وبقومية ميتة، وبين مذاهب وافدة متعددة الأسماء براقة الشعارات سديمية المحتوى وطيعة بيد الحاكم باسمها والمستظل بشعاراتها وبارعة في التكيف وأهواء الدهماء وفي اللعب على طموحاتها الغامضة وذلك لأن لأصحابها هدفا أوحد هو السلطة ومنهاجا وحيدا هو الاستيلاء عليها، وسياسة واحدة هي الاستمساك بها في كل ظرف وحال حتى ولو اضطرهم ذلك لتدمير المدن على رؤوس النساء والأطفال والشيوخ والرجال

وقد اعتنق تلك المذاهب الوافدة أشباه المثقفين من المتعلمين وغير الأميين وتسموا بالثوريين وتوزعوا بين شيوعيين واشتراكيين وفوضويين وحتى ديمقراطيين، ولكنهم التقوا على هدف واحد هو نسف النظام القائم وتقويض أركان عرش فارس وقد وجدوا لدن الشيوعية الدولية وأحيانا لدن الغرب كل تشجيع وإسناد

ومن الطريف أن هؤلاء رفعوا بدورهم العلمانية شعارا، الأمر الذي كان يجب أن يعنى أنهم يلتقون والشاه منهجا لكن علمانية هؤلاء كانت في واقعها تنبع من حيث يدرون أو لا يدرون، من الماركسية أي أن مولد ديناميكيتها الأساسية كان مبدأ الصراع الطبقي وكان هدفها الأولى الاستيلاء على السلطة وكان أسلوبها في السياسة الشغب والعنف.

إلى ذلك المأزق الخطر آل الشاه الجديد، فقومية أبيه المصطنعة فصلته عن الشعوب الإيرانية المسلمة، وعلمانيته المستأثرة.

كانت أضيق من أن تتسع لثورية المستجدين في السياسة وفوضوييها ونرجسيته العمياء جعلته مكابرا في الحق لا باحثا عن الحقائق وغريزة الحفاظ على البقاء أرغمته على الاعتماد على منطق القوة، إي الإخضاع لا الإقناع فانتهى إلى ما انتهى إليه والده، أي إلى الاعتماد المطلق على الجيش فأصبح للجيش أمة بدلا من أن يكون للأمة جيش

وأصبحت القوة هي التي تفسر الحق وتحدد مفاهيمه، وبذلك غدا العقل خاضعا للإرادة بدلا من أن يكون سيدها ومرشدها

الثورة الإيرانية

المؤسسة الدينية الإيرانية

لم تكن اصطلاحات المؤسسة الدينية والهيئة الدينية والحوزات العلمية وليدة الثورة الإسلامية التي قامت في إيران في١/ ١٩٧٩/٢م، بل أن هذه الاصطلاحات ظهرت قبل الثورة، وفرضت نفسها على الساحة الإيرانية، بعد أن تبلور مفهوم التقليد، وأصبحت مرجعية التقليد قوة سياسية واجتماعية واقتصادية ذات حضور ملموس، وبعد أن توحد علماء الدين في صورة ظاهرة التقليد بعد وقوع غيبة الإمام المهدي المنتظر حتى أصبح كل فرد من عوام الشيعة مقلدا لأحد الفقهاء الكبار (المراجع)، وساد اعتقاد بين العوام أن تدين الفرد لا قيمة له ما لم يكن مقلدا لمرجع ما، وبذلك تمكن الفقهاء من إيجاد رباط قوي بين القيادة الدينية وجمهور الشيعة، واتضحت هذه الرابطة من خلال قيام جمهور الشيعة –عن طواعية– بدفع الزكاة والخمس للفقهاء باعتبارهم وكلاء الإمام خلال غيبته.

وكان للمؤسسة الدينية في إيران قبل الثورة الإسلامية وجود متميز ومستقل وكانت لها سمات حافظت عليها منذ نشأتها، مما جعلها قادرة على إفراز قيادات سياسية تستقطب الجماهير خارجها من ناحية، وتربي قيادات جديدة تدفع إلى الساحة عندما يجد الجد من ناحية أخرى.

واستغلال المؤسسة الدينية حولها إلى قوة لها وزنها، فالمرجع الذي صار تقليده وجوبيًا عند الشيعة الاثنى عشرية أصبح دولة داخل الدولة، فعنده تصب أموال الزكاة والخمس التي يخرجها المقلد عن ماله كل عام، مما جعله يشكل كيانا ماديا ومعنويا مستقلا، بل يسميه البعض مركزية أو سلطة روحية ومالية. وهذا الاستقلال هو الذي ساعد على قيام الثورة الإسلامية في إيران، وقد حافظت الحوزات على استقلالها سنوات طويلة، وكانت أشبه بقلاع حصينة قاومت العديد من الضغوط التي مارستها الحكومات المتعاقبة عليها. ودافعت عن هذا الاستقلال.

تهيئة مناخ الثورة:

تعاون الترف والترهل مع الغباء والاستهتار على تهيئة المناخ الملائم للثورة. وقد جاء القمع فكان أفضل وسيلة لتسريع انفجار الثورة المرهوبة.

في إيران التي كانت حتى عام ١٩٧٠ تستمتع بشيء من رخاء، ولكن سرعان ما داهمها تضخم حاد هبط بالمستوى المعيشي للطبقتين الوسطى والفقيرة، ولاسيما في المدن، هبوطاً خطيرا. وكانت إيران حتى منتصف الستينات بمنجاة من التضخم وشروره.

ولكن ما كاد عقد السبعينات يبدأ حتى أخذت الأسعار ترتفع ارتفاعا رهيبا. فزادت أسعار الحاجيات ولاسيما الضروريات منها، من ١٠٠ بالمائة في عام ١٩٧٠ إلى ١٩٠ بالمائة في عام ١٩٧٦. أما أجور المساكن، ولاسيما مساكن الطبقة الوسطى فأنها قفزت من ١٠٠ بالمائة إلى ثلاثمائة بالمائة في عام ١٩٧٥.

وقد رافق ذلك انخفاض مريع في الإنتاج الزراعي الأمر الناجم عن هجرة أعداد ضخمة من الريف إلى المدينة، ولاسيما العاصمة طهران. وعندما قام خبراء الاقتصاد الإيرانيون والأجانب بتحذير الشاه من عواقب سياسته الاقتصادية القائمة على التوسع في الإنفاق الحكومي، وآثارها الوخيمة في التضخم. أجابهم الشاه بأنه يتوجب على رجل الدولة ألا يستجيب أبدا لنصائح رجل الاقتصاد.

ولكن ما كاد صيف عام ١٩٧٦ يطل على إيران حتى بلغ الغلاء حدا كاد معه تذمر الشعوب الإيرانية يتحول إلى تمرد، الأمر الذي اضطر الشاه لإعلان حرب ضروس على من سماهم بالاستغلاليين.

وقد وجهت الحكومة ضرباتها بادئ ذي بدء إلى كبار التجار ورجال الأعمال ولاسيما إلى أولئك الذين دعتهم «بأمراء الإقطاع الصناعي»، مما دفع بكبار رجال المال والأعمال إلى تهريب الأموال إلى خارج إيران، الأمر الذي عطل من فعاليات الاقتصاد الوطني، وضيق من ميادينه، ودفع بالمتمولين والصناعيين إلى المعسكر غير المتعاطف مع النظام.

وعندما اكتشف الشاه أن حملته تلك على البرجوازية الكبيرة لم تحقق الغاية المنشودة من ورائها، وسع في جبهته لتشمل أصحاب المتاجر والدكاكين وصغار رجال الأعمال، وفرض رقابة شديدة على أسعار عدد كبير من السلع كالحبوب بمختلف أنواعها والسكر، واللحم والأرز وسواها.

واستوردت الحكومة لحسابها كميات ضخمة من المواد الغذائية ونزلت بها إلى الأسواق لمنافسة التجار والباعة.. ومن ثم نهض حزب الشاه، المعروف باسم حزب البعث، فشكل كتائب من الطلاب، عرفت باسم «كتائب الرقابة والتفتيش»، وانطلق هؤلاء يصولون ويجولون في الأسواق ضد المستغلين من الباعة وصغار التجار.

وأدلت أيضا السافاك (المباحث) بدلوها. فشكلت المحاكم الخاصة التي عرفت باسم محاكم النقابات، وقد أصدرت تلك المحاكم حتى عام ١٩٧٦ مائتين وخمسين ألف حكم بالغرامة المالية، وأغلقت ثلاثة وعشرين ألف دكان ومتجر. وقضت بالسجن من شهرين إلى ثلاثة أعوام على ثمانية آلاف بائع وتاجر.

وبذلك وحدت بين البرجوازية بطبقاتها الثلاث، وساقت بأبنائها إلى المعسكر المعادي للشاه.

ولكن جميع المجهودات الحكومية لم تنجح في القضاء على التضخم والغلاء، الأمر الذي استجر إلى صفوف المتذمرين موظفي القطاعين الخاص والعام.

وقد استغل اليسار ورجالات الأحزاب والجماعات السياسية المعارضة الشكاوى من ارتفاع تكاليف المعيشة فحولوها إلى معارضة سياسية استهدفت العرش حينا والشاه أحيانا.

وقد اضطر الشاه أخيرا، بغية التخفيف من تنامي المعارضة، إلى إقالة صديقه ورئيس وزرائه طوال اثنتي عشر سنة، وأعنى به عباس أمير هويدا، وتعيين وزير البترول السابق اموزيغار رئيسا جديدا للوزراء وقد أدرك الرئيس الجديد أن القضاء على الغلاء، بالقضاء على التضخم هو المخرج الوحيد من عنق الزجاجة.. ووجد أن السبيل الوحيد لكبح جماح التضخم هو الحد من الإنفاق الحكومي.

فتقدم إلى الشاه طالبا منه تخفيض الاعتمادات المخصصة للقوات المسلحة والتسلح، لكن الشاه رفض الاستجابة إلى طلب رئيس وزرائه، الأمر الذي اضطر اموزيغار إلى تخفيض الاعتمادات الخاصة بالمشاريع المدنية والخدمات تخفيضا حادا، وإسقاط مبلغ ثلاثة مليارات ونصف المليار من الدولارات من نفقات مشروع السنوات الخمس، وفرض قيود شديدة على القروض وإيقاف العمل في إنشاء ثمانية عشر مفاعل

ذريا من أصل عشرين مفاعل، وتأجيل بناء عدد كبير من المصانع الجديدة، وإلغاء عدد آخر من العقود الحكومية مع الشركات الأجنبية، والوطنية في مختلف الميادين والقطاعات.

وقد بدا أن سياسة أموزيغار الاقتصادية قد حالفها التوفيق، وهكذا سمعت اموزيغار يعلن في مطلع شهر يونيو من عام ١٩٧٨ عن انتهاء الأزمة. ولكن الإجراءات العنيفة التي اتخذها اموزيغار في ميدان الاقتصاد والتي أسفرت عن كبح جماح التضخم والغلاء بعض الشيء، أسفرت أيضا عن بدء الأجور الفعلية بالتدني وعن تزايد نسبة العاطلين عن العمل حيث بلغ عددهم أربعمائة ألف عامل في طهران وضواحيها. الأمر الذي دفع أيضا بالعمل إلى صفوف المناهضين للشاه ومن ثم لنظامه، فإذا أضفنا إلى هؤلاء والى أبناء الطبقة البرجوازية الإيرانية، سكان الأكواخ والأعشاش المحيطة بطهران، عندئذ نستطيع القول بأن الشاه قد أعد الأكثرية الساحقة من أمته للثورة عليه، ووفر للثورة المناخ المناسب، ولم يبق سوى تهيئة فتيلها وإشعاله.

ومن العوامل الأخرى التي هيأت مناخ الثورة في أكتوبر سنة 1971 حلت ذكرى مرور 2500 عام على إنشاء الإمبراطورية الفارسية، وقد دعيت شخصيات أجنبية وعربيه للحفل الذي استغرق ثلاثة أيام مليئة بالتبذير المفرط، وفي أواخر سنة 1974 بات القوميون الإيرانيون غاضبين من عشرات آلاف العمال الأجانب المهرة الذين جاؤوا إلى إيران لتشغيل المعدات العسكرية الأمريكية باهظة التكاليف، والتي لم تحظ بدعم أو قبول شعبي، والتي أنفق الشاة مئات الملايين من الدولارات.

وفي العام التالي أسس الشاة حزباً جديداً سماه راستاخيز " أي حزب البعث أو النهضة، لم يكن "راستاخيز" الحزب الوحيد الذي يمكن للإيرانيين الانتساب إليه فحسب، بل كان لزاماً على كل إيراني بالغ أن ينتسب إليه، ويدفع رسومه.

المحاولات التي بذلها هذا الحزب لاتخاذ موقف شعبي لصالح حملات مكافحة الاستغلال لم تكن ذات ضرر اقتصادي فحسب، لكنها أنت بنتائج سياسية عكسية أيضاً، فظهرت السوق السوداء أعراض التضخم وتراجع النشاط التجاري وغضب التجار وفرت رؤوس الأموال.

وفي سنة 1976أثارت حكومة الشاه غضب تقاة المسلمين الإيرانيين بتغيير بداية السنة الإيرانية، من سنة الهجرة النبوية إلى سنة اعتلاء سايروس العرش الفارسي، وقفزت إيران بين ليلة وضحاها من سنة 1395 للهجرة إلى سنة 2535 الملكية.

وفي السنة نفسها أعلن الشاة التقشف الاقتصادي بهدف كبح التضخم والهدر، والبطالة الناجمة عن ذلك أثرت سلباً على آلاف المهاجرين إلى المدن، وهم ضعاف وغير مؤهلين لأي حرفة أو صنعة، كثيرون من المحافظين دينياً وثقافياً من هؤلاء المهاجرين وبفعل سوء تصرف نظام الشاه العلماني ومشروع التغريب الذي تبناه راحوا شيئاً فشيئاً يتحولون إلى نواة ومحور للثورة القادمة.

وفي سنة1977 ، دخل رئيس أمريكي جديد إلى البيت الأبيض، كانت الآمال تحدو جيمي كارتر لتغيير صورة الولايات المتحدة المرتبط بحرب فيتنام وتغيير السياسة الخارجية، فأنشأ مكتباً خاصاً لحقوق الإنسان، ووجه مذكرة مؤدية إلى الشاة بينت فيها أهمية الحقوق السياسية والحريات.

واستجاب الشاه بالعفو عن 357 سجيناً سياسياً في فبراير، وسمح للصليب الأحمر بزيارة السجون، في مسعى للبدء بطور من التحرر ما بين أواخر الربيع مروراً بالصيف وإلى بدايات خريف ذلك العام أسست المعارضة الليبرالية منظمات أصدرت من خلالها رسائل مفتوحة تدين فيها النظام.

وفي وقت لاحق من ذلك العام التقت مجموعة معارضة (رابطة الكتاب) دون أن تقوم الشرطة بتفريقها كما جرت العادة. وفي تلك السنة توفي المفكر علي شريعتي تشير بعض المزاعم أنه تعرض للتصفية على يد الشرطة السرية (السافاك) مما أزال أي منافس محتمل لثورة الخميني

أخيراً، في 23أكتوبر/تشرين الأول1977 قتل "مصطفى" الابن البكر للخميني في النجف وفي حين يعتقد أن الوفاة نجمت عن أزمة قلبية، إلا أن المجموعات المعارضة للشاه ألفت بالمسؤولية على السافاك، واتهمتهم بتسميم مصطفي واعتبر شهيداً، وخرج الآلاف من أنصار والده في المدن الإيرانية للمشاركة في تأبينه فرفعوا شعار "الموت

للشاه". وقد وصف الخميني هذه المظاهرات بأنها "صحوة إيران". وبدأت صيرورة تحول عبرها الخميني إلى قائد المعارضة المناوئة للشاه.

فتيل الثورة:

في سعيه إلى الاستئثار بالسلطة شكلا وموضوعا نسف الشاه جميع جسوره مع القوى السياسية ذات الجذور العميقة في تربة إيران. وقد حاول أن يستعيض عن الشخصيات السياسية التقليدية والشعبية بمخلوقاته من أشباه الرجال.

وبلغ به الشطط، لا بل الغطرسة مبلغا جعله يشكل حزبا خاصا به. ويحاول فرضه حزبا وحيدا على البلاد، وأعني بذلك الحزب «حزب البعث الإيراني».

فلقد أدرك آنذاك غريزيا، أن الاعتماد على القوات المسلحة وحدها وعلى السافاك، ليس بكاف لتدعيم سلطانه والحفاظ على نظامه. ولكنه لم يدرك أن الزعامة تكتسب اكتسابا وليست بوظيفة يعين فيها المرء بقانون أو مرسوم.

لقد جهل الشاه بأن القادة ليسوا ببضائع أو سلع جاهزة يشتريها من الأسواق حينما تستوجبه الحاجة إليهم. لذلك كان الحزب الذي أنشأه الشاه عبئا عليه وعلى نظامه. وكان يتألف من المنافقين والانتهازيين وصيادي الفرص، ولا خلاف أن أمثال هؤلاء يصلحون لاستعداء الناس واستنهاض الهمم والنوازع الخيرة للتصدي لكل قضية أو شخص أو نظام يرفعون رايته أو ينادون بشعاراته، أضف إلى ذلك أن مطل هؤلاء على الرجال والأحداث هو مطل الضفدع من مستنقعه، لا مطل النسر أو الصقر من عليائه.

ولذلك وجد الشاه نفسه ملزما عمليا بالعودة إلى مؤسستيه الرئيسيتين، وأعني بهما القوات المسلحة والسافاك، وبهذا أصبح القمع لا الحوار هو وسيلة الشاه للتعامل والأزمة وأسلوبه للتفاهم والأمة، فشن حملة تشهير على رجال الدين. وقد بلغت تلك الحملة درجة من العنف، اضطرت ذلك الرجل الهادي والعالم الجليل شريعة مداري للرد عليها.

وبادرت السافاك فأنشأت كتائب خاصة بها دعتها كتائب الانتقام. وكانت مهام تلك الكتائب الاعتداء بالضرب والتشهير بالمعارضة، وبنقابات المحامين، والأطباء والمهندسين والمعلمين.

وكذلك حذا حزب الشاه حذو السافاك. فجند بدوره كتائب حزبه وقد عمدت هذه أيضا إلى أساليب العنف الجسدي في التصدي للمعارضة.

لكن جميع هذه الإجراءات لم تنجح في إخماد المعارضة كلمة وصوتا. ففي مطلع شهر مايو من عام ١٩٧٧ وجه عدد كبير من المحامين كتابا مفتوحا إلى الشاه يتهمونه فيه بالضغط على القضاء والتدخل في شؤون القضاء.. وبادر في شهر يونيو من العام ذاته ثلاثة من كبار زعماء الجبهة الوطنية، وهم كريم سنجابي وفوروهار وبختيار، أقول بادر هؤلاء إلى توجيه كتاب مفتوح إلى الشاه كان بالغ الجرأة وخارجا على التقاليد والبروتوكول في مخاطبة الشاه.

وقد اتهم هؤلاء الشاه بتخريب الاقتصاد وإهمال الزراعة ومخالفة القانون الدولي، وانتهاك حقوق الإنسان والخروج على الدستور ولاسيما المبادئ الدستورية لعام ١٩٠٥ وقد ختم كريم سنجابي ورفيقاه ذلك الكتاب قائلين: إن السبيل الوحيد لإعادة الوحدة الوطنية وحقوق الفرد الأساسية، يتمثل في التخلي عن الطغيان وأساليبه، وفي احترام القوانين الدستورية وشرعة حقوق الإنسان وإلغاء نظام الحزب الواحد، وإطلاق حرية الصحافة والمعتقلين السياسيين. والسماح للمنفيين بالعودة إلى البلاد، وإقامة حكومة تتمتع بثقة الأمة وتحترم الحقوق الأساسية للإنسان

وقام موظفو البنك المركزي الإيراني فاتهموا ما يزيد على المائة والسبعين شخصية من كبار شخصيات النظام، بتهريب ما يزيد على ألفي مليون دولار إلى خارج البلاد. وكان أبرز المتهمين رئيس الوزراء السابق شريف إمامي والجنرال عويسي الملقب بجزار إيران ورئيس الوزراء السابق آموزيغار ومدير عام شركة البترول الإيرانية ورئيس بلدية طهران، إلى غير ذلك من الشخصيات المرموقة، اجتماعيا وسياسيا.

وقد أثار اتهام هؤلاء موجات طاغية من الغضب على الشاه ورجاله، وكان عاملا من العوامل الأساسية في تهيئة مناخ الثورة وتزويدها بالفتيل

اشتعال الفتيل:

في اليوم التاسع عشر من شهر نوفمبر من عام ١٩٧٧ كان أعضاء جمعية الثقافة الايرانية الألمانية، يعقدون لليوم العاشر على التوالي اجتماعا في جامعة أريا مهر في طهران.

وفي الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم داهم البوليس الجامعة وحاول أن يفض الاجتماع الذي حضره من الطلاب عدد يزيد على عشرة آلاف طالب.

وقد خرج الطلاب من الحرم الجامعي بمظاهرة صاخبة. وكانوا يهتفون بسقوط الشاه ونظامه، فتصدت لهم قوات الأمن وحاولت تفريقهم بالقوة، فسقط من الطلاب قتيل واحد، وجرح ما يقارب السبعين منهم، واعتقلت الشرطة قرابة المائة طالب.

وقد أثار هذا الحدث جميع طلاب الجامعات في إيران، حيث شهدت الأيام العشرة التي أعقبته مظاهرات طلابية صاخبة.

ووفقا للعادات الشيعية يجرى حفل تأبين في ذكرى مرور أربعين يوماً من وفاة شخص ما، وأطلقت المساجد في كل البلاد الدعوى للمشاركة في تكريم الطلاب القتلى، واستجابت عدة مدن للنداء وسارت المظاهرات تكريماً للقتلى واحتجاجاً على حكم الشاه، هذه المرة وقعت أعمال عنف في تبريز، وقتل المئات من المتظاهرين، وتكررت الحلقة مرة أخرى في ٢٩ آذار / مارس، حيث وقعت جولة جديدة من الاحتجاج في سائر البلاد، وهوجمت الفنادق الفارهة ودور السينما والبنوك والمكاتب الحكومية ومدارس البنات وغيرها من رموز نظام الشاة، وتدخلت قوات الأمن مرة أخرى، وقتل الكثيرون، وتكرر الأمر نفسه في العاشر من مايو/ أيار.

في مايو/ أيار، اقتحمت فرق الشركة منزل رجل دين سياسي وقيادي معتدل يدعى كاظم شريعتمداري، وأردت أحد أتباعه قتيلاً بالرصاص أمام ناظريه على إثر ذلك تخلى شريعتمداري عن صمته وانضم إلى المعارضة.

حاول الشاة إرضاء المتظاهرين عبر تخفيف نسب التضخم، وتوجه بالمبادرات إلى بعض رجال الدين المعتدلين وعزل رئيس السافاك، ووعد بإجراء انتخابات حرة في شهر يونيو اللاحق، ولكن العمل على خفض التضخم عن طريق تقليل النفقات تسبب في

الارتفاع نسبة البطالة، خصوصاً في صفوف الشباب غير المؤهلين للعمل كما يجب والذين يعيشون في أحياء فقيرة في المدن.

في صيف سنة1978 ، خرج هؤلاء العمال الذين ينحدرون في الغالب من أصول ريفية تقليدية إلى الشوارع في أعداد حاشدة، في حين أعلن عمال آخرون الإضراب. هكذا ومع حلول نوفمبر / تشرين الثاني كان الاقتصاد قد أصيب بالشلل جراء الإضرابات.

وفي اليوم السابع من شهر يناير عام ١٩٧٨ نشرت جريدة «إطلاعات» مقالا عنيفا هاجمت فيه رجال الدين ووصفتهم بالرجعيين السود، واتهمتهم بالتعاون سرا والشيوعية الدولية، واستطردت تقول إن الخميني ليس بإيراني وأنه عمل في شبابه جاسوسا في الاستخبارات البريطانية، وعاش حياة من فسق وفجور.

الخميني والأحداث

ظهرت شخصية الخميني زعيم الثورة الإيرانية أول مرة أوائل عام 1963 لقيادة المعارضة التي تحركت ضد برنامج الإصلاحات الذي أعلنه الشاه والمعروف باسم «الثورة البيضاء»، التي شملت إعطاء حق التصويت والاقتراع للنساء، وتغيير قوانين الانتخابات التي أتاحت انتخاب ممثلين للأقليات الدينية للبرلمان وإجراء تعديلات على قانون الأحوال الشخصية، الذي يمنح المرأة المساواة القانونية في الزواج، وتوزيع ممتلكات بعض رجال الدين الشيعة.

في العام التالي نشبت أعمال شغب بعد أن اعتقل الخميني ثلاثة أيام على أثر تصريحه بأن الشاه رجل بائس سيئ، وقد واجهت الشرطة أعمال الشغب تلك مستخدمة القوة المميتة، وأعلنت تقارير حكومة الشاه سقوط ٨٦ قتيلا، فيما ادعت المعارضة أن الرقم يصل إلى الآلاف.

التقارير التي أعدت بعد قيام الثورة أشارت إلى أن أكثر من ٣٨٠ لقوا مصرعهم على يد الشرطة.

ووضع الخميني تحت الإقامة الجبرية لمدة ٨ شهور ثم أفرج عنه، وتابع التحرك ضد الشاه بخصوص علاقته مع إسرائيل، وخصوصا تنازلات الشاه التمديد الحصانة

الدبلوماسية لسكريين أميركيين أعيد اعتقال الخميني في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٤ وأرسل إلى المنفي وبقي فيه لمدة ١٤ عاما حتى قيام الثورة.

تبع ذلك فترة من الهدوء الساخط، قام فيها البوليس السري سافاك بقمع المعارضة، ولكن بوادر الصحوة الخمينية بدأت بتقويض فكرة التغريب التي ينتهجها نظام الشاه فظهر «جلال آل أحمد» الذي وصف نهج التغريب بـ (غرب زنجي) أي (طاعون الحضارة الغربية) وعلي شريعتي وفهمه التنويري للإسلام، وكذلك تفسير مرتضى مطهري التبسيطي للتشيع، كل ذلك حاز على أتباع، ومريدين وقراء والمؤيدين.

ويبرز بين هذه القيادات الخميني الذي طور ونمى وروج لنظرية مفادها أن الإسلام يتطلب حكومة إسلامية يتزعمها ولي فقيه، أي كبار فقهاء القانون الإسلامي في سلسلة محاضرات في أوائل سنة 1970، صدرت فيما بعد في كتاب، بين الخميني أن الإسلام يتطلب الانصياع لقوانين الشريعة وحدها، وفي سبيل ذلك، لا يكفي أن يقود الفقهاء جماعة المسلمين، بل عليهم أن يقودوا الحكومة أيضاً.

لم يتحدث الخميني عن هذه المفاهيم في اللقاءات والمحادثات مع الغرباء، لكن الكتاب انتشر على نطاق واسع في الأوساط الدينية، خاصة بين طلاب الخميني والملالي، وصغار رجال الأعمال، وراح هذا الفريق يطور ما سيصبح شبكة قوية وفعالة من المعارضة داخل إيران، مستخدمة خطب المساجد، وتهريب شرائط تسجيلات صوتية للخميني وطرق أخرى، أضافت إلى قوة المعارضة الدينية، في حين ظنت بقية المعتدلين واليساريين والميليشيات المسلحة الأخرى أن الستار سيسدل بعد الثورة وسقوط الشاه على الخميني وأعوانه وأن هذا التيار اليساري سيسيطر على الساحة، ولكن الخميني لم يعطهم الفرصة وسيطر على الحكم.

جدير بالذكر أنه خلال الفترة من 1973-1979م ضاعف حظر النفط عائدات إيران بمقدار أربعة أضعاف، إذ بلغت ٢٠ مليار دولار سنوياً. وهذه الثروة الجديدة سارعت الجدول الزمني للشاه لجعل إيران تلحق بركب الغرب. وأدى هذا التصميم من الشاة لتحديث إيران بين عشية وضحاها إلى حدوث انتكاسة ثقافية، وتضخم واختناقات اقتصادية، وتزايد الاستبداد في تناول هذه المشاكل الاقتصادية والسياسية

والاجتماعية. فتجمع معارضو الشاه وجميع المؤسسات السياسية خلف الخميني في نهاية السبعينات للإطاحة بالشاه.

الانفجار الكبير:

التهبت إيران وانفجرت مدينة قم بالثورة وخرج أربعة آلاف من طلاب المعاهد الدينية بمظاهرة صاحبة انضم إليها عدد كبير من مختلف الفئات الشعبية.

وتعالت الهتافات بسقوط الشاه وبالمطالبة بتقديم كاتب المقالة في «إطلاعات» إلى المحكمة.. وتعالت الصيحات منادية بعودة (الخميني) وبدستور عام ١٩٠٥ وهاجم البوليس منزل شريعة مداري وقتلوا شخصين من المتظاهرين، كانا قد لاذا به من الشرطة.

كما انفجرت أيضا الثورة بمظاهرات دامية في طهران واستمرت في قم. وشاركت فيها مدن أصفهان ومشهد والأهواز وشيراز وتبريز. وانطلق المتظاهرون يهاجمون مراكز الشرطة ومكاتب حزب البعث الإيراني، والفنادق الفاخرة ودور السينما والمصارف.

وبلغت المظاهرات أشد درجات العنف في طهران ويازد وبابول، الأمر الذي اضطر الشاه للعودة إلى طهران من الخليج حيث كان يحضر مناورات أسطوله البحري.

وقد كانت جميع مطالب المتظاهرين حتى تلك الساعة لم تكن تتجاوز المطالبة بالعودة إلى دستور عام ١٩٠٥ وبإطلاق سراح المعتقلين السياسيين وبعودة المنفيين.

ولكن في اليوم السابع من شهر سبتمبر من عام ١٩٧٨ اتخذت لها المظاهرات منعطفا حاسما.. إذ أن المتظاهرين أخذوا ولأول مرة، يطالبون بسقوط النظام البهلوي وبقيام جمهورية إسلامية.

وقد أثار هذا الانعطاف الرعب الشديد في قلب الشاه فأرغم مجلس وزرائه على إعلان الأحكام العرفية في العاصمة طهران وفي إحدى عشر مدينة أخرى، أهمها قم وتبريز ومشهد، وأصفهان وقزوين وشيراز... الخ.

ومن ثم أصدر مرسوما يقضي بتعيين الجنرال عويسي، الشهير بلقب سفاح إيران، حاكما عسكريا لطهران، وقد اكتسب الجنرال عويسي هذا اللقب بسبب قمعه الدموي للمظاهرات التي شاهدتها إيران في عام ١٩٦٣.

كما أصدر أمرا عرفيا يمنع جميع المظاهرات، وأتبعه بأمر آخر يقضى باعتقال سنجابي وبازركان وغيرهما من الزعماء، وكان الشاه بعد أن لمس عناد الأمة الإيرانية وإصرارها على متابعة النضال ضده، قد عين الجنرال غلام رضا أزهري الذي شكل وزارة ضمت ستة من جنرالات القوات المسلحة، لكن الجماهير الإيرانية لم تعبأ بإجراءات الشاه، ولم تستسلم لحكومته العسكرية

فأدرك الشاه أن استمرار سياسة القمع ستدفع أخيرا بالقوات المسلحة إلى التمرد عليه والإطاحة بعرشه، الأمر الذي تجلت إرهاصاته في قم، حيث انضم خمسمائة جندي واثنتا عشر دبابة إلى المتظاهرين، لذلك لم يجد أمامه من سبيل سوى التراجع ومحاولة التفاهم مع المعارضين وعلى رأسهم رجال الدين والساسة كبازركان وسنجابي وفورهار، لكن هؤلاء رفضوا يد الشاه الممدودة إليهم، إذ أنهم لمسوا أن الأحداث قد تجاوزت بزخومها كل محاولة للمهادنة أو التصالح أو الحلول الوسطى فالقضية لم تعد أقل من المطالبة بالجمهورية الإسلامية.

تراجع أم هزيمة؟

بذل الشاه أقصى جهده لإعادة الجسور بينه وبين المعارضة فأطلق سراح ألف ومائة وستة وعشرين معتقلا سياسيا. وزج بصديقه ورئيس وزرائه السابق عباس أمير هويدا في السجن وأقال الجنرال نصيري رئيس السافاك، وعين مكانه الجنرال مقدم، وحل حزبه حزب البعث الإيراني.. وأمر معظم أفراد عائلته بمغادرة إيران. وقام بزيارة حتى مقام الإمام رضا في مدينة مشهد.

وأرسل بزوجته الإمبراطورة فرح ديبا إلى النجف للتبرك والزيارة.. وحاول أن ينسى جماهير إيران المسلمة حفل الغداء الذي أقامه في رمضان للرئيس الأمريكي نيكسون. ونقله التلفزيون الإيراني بوقاحة تتساوى والفجور.

ومع ذلك كله بقي الخميني يصيح من منفاه في باريس قائلا لا هدنة ولا إنهاء نضال قبل سقوط النظام الشاهنشاهي وقيام الجمهورية الإسلامية.. وأخيرا عاد الخميني إلى طهران وكان ما كان من أمر بختيار.

القسط الأخير

استمر العنف ليحصد أكثر من 400 شخص قضوا في حريق سينما ريكس وهو حريق متعمد وقع في أب / أغسطس في عبدان، ورغم أن دور العرض السينمائي كانت هدفاً مستمراً للمتظاهرين الإسلاميين فقد بلغ انعدام ثقة الجماهير بالنظام، وبلغت فعالية المعارضة في العمل والتواصل حداً جعل الجماهير ترى أن السافاك كان وراء الحادث في محاولة منه لتطويق المعارضة.

في اليوم التالي تجمع 10.000 من أقارب القتلى والمتعاطفين لتشييع جماعي حاشد ومظاهرة تنادي (ليحترق الشاه) و (الشاه هو المذنب).

مع حلول سبتمبر، كانت البلاد مزعزعة على نحو شديد، وتحولت المظاهرات الحاشدة إلى أحداث منتظمة، فرض الشاه الأحكام العرفية، وحظرت كل التظاهرات.

وفي يوم الجمعة ٨ سبتمبر 1978، خرجت مظاهرة حاشدة للغاية في طهران، إنها المظاهرة التي حولت ذلك اليوم إلى ما بات يعرف اليوم باسم «الجمعة الأسود».

نشر قادة الثورة شائعات مفادها أن الجنود الصهاينة يقتلون الآلاف، بينما كانت القوات التي أطلقت النار في الواقع تابعة لميليشيات الأكراد، وقد بينت التحقيقات بعد الثورة أن عدد القتلى كان صغير نسبياً (٨٧)، ولكن في ذلك الوقت ظهرت الحكومة بصورة الحكومة الوحشية أبعدت عنها الكثيرين من الإيرانيين والحلفاء في الخارج.

أدى إضراب عام في تشرين الأول/أكتوبر إلى شل الاقتصاد والصناعات الحيوية التي أغلقت أبوابها وحسمت مصير الشاة.

وقد بلغت الاحتجاجات ذروتها في كانون الأول / ديسمبر 1978، خلال شهر محرم أحد أهم الشهور لدى المسلمين الشيعة. وفي ١٢ كانون الأول / ديسمبر خرج إلى شوارع طهران نحو مليوني شخص ملئوا ساحة أزادي (شاهياد) مطالبين بإزالة الشاة وعودة الخميني.

في ١٦ كانون الثاني / يناير 1979 غادر الشاة والملكة إيران نزولاً عند طلب رئيس الوزراء الدكتور شاپور بختيار الذي كان لفترة طويلة زعيم المعارضة وظهرت مشاهد الابتهاج العفوي، ودمرت خلال ساعات كل رموز سلالة بهلوي وأعلن بختيار حل

البوليس السري (سافاك)، وأفرج عن السجناء السياسيين، ووعد بانتخابات حرة وأمر الجيش بالسماح للمظاهرات الشعبية.

وفي ذلك اليوم بالذات خرج مئات الآلاف من الإيرانيين إلى شوارع طهران مهللين مكبرين ومشيعين ابن بهلوي والبهلوية بالشتائم واللعنات.

وفي اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سقط ثمانية وعشرون قتيلا من المتظاهرين احتجاجا على إغلاق حكومة بختيار لمطار طهران منعا لعودة الخميني إليها.

وبعد عدة أيام من التوقف سمح بعودة الخميني إلى إيران وطلب إليه تأسيس دولة مثل الفاتيكان في قم، ودعا المعارضة للمساعدة على الحفاظ على الدستور.

وفي ١ شباط / فبراير1979 ، عاد الخميني إلى طهران محاطاً بحماس وتحية عدة ملايين من الإيرانيين، إنه بدون جدال قائد الثورة، وأصبح بالنسبة للبعض شخصاً شبه مقدس، استقبلته لدى ترجله من الطائرة الجموع الحاشدة بتحية: السلام عليكم أيها الإمام الخميني، أوضح الخميني في كلمة ألقاها في اليوم نفسه شدة رفضه لنظام رئيس الوزراء بختيار، ووعد سوف أركل أسنانهم لقلعها، وعين منافسه مهدي بادرخان مؤقتاً رئيساً للوزراء، وقال: بما أنني قد عينته، فيجب أن يطاع، واعتبر أنها حكومة الله وحذر من عصيانها، فأي عصيان لها عصيان الله، وفيما راحت حركة الخميني تكتسب مزيداً من الزخم بدأ الجنود بالانضواء في جانبه، اندلع القتال بين الجنود الموالين والمعارضين للخميني بإعلانه الجهاد على الجنود الذين لم يسلموا أنفسهم، والانهيار النهائي للحكومة غير الخمينية حصل في ١١ شباط / فبراير عندما أعلن المجلس العسكري الأعلى نفسه محايداً في النزاعات السياسية الراهنة، لمنع المزيد من الفوضى وإراقة الدماء.

وهكذا تكرس انتصار الأمة. وتأكد سقوط النظام. وضبطت بهجة النصر ببشاشتها صفوف المنتصرين ومواكب المبتهجين، فالحدث كان أضخم من أن يعكر صفوه فوضوي أو غوغائي أو مدسوس، إنه المنعطف الجديد وقد يكون أيضا الحاسم، في تاريخ إيران بلادا وشعوبا لكن التيار الذي دفع بهذه الأمواج الهازجة من البشر لاستقبال الخميني، لم يكن تيار النصر، بل كان تيار الحرية.

فالشعوب الإيرانية، قد سددت القسط الأخير من ثمنها، وكان هذا القسط باهظا للغاية إذ أنه تكون من ستة عشر شهرا من قتال الشوارع وستة أشهر من مظاهرات جماهيرية حاشدة وخمسة أشهر من إضرابات عامة شملت حتى موظفي الدولة، والآلاف المؤلفة من القتلى والجرحى والمشوهين والمعتقلين والمشردين والمنفيين، لذلك كان كل مواطن إيراني، ولاسيما بعد أن شاهد الشاه يتنازل عن عرشه يعتقد بأن الخميني قد عاد معه بالحرية من منفاها أو مغتربه، فإيران بكافة شعوبها كانت قد بدأت منذ أربع وسبعين سنة قبل عودة الخميني من منفاه بتسديد أقساط الحرية الحديثة، وكان ذلك في عهد الأسرة القاجارية، عندما هبت الأمة الإيرانية بثورتها المشهورة ثورة عام ١٩٠٥ – ١٩٠٩، التي أسفرت عن الدستور الشهير بدستور عام ١٩٠٩

ومن أبرز رجال الدين الذين ساندوا الخميني في قيادته للثورة: مرتضى مطهري ومحمد حسين بهشتي اللذان اغتيلا بعد فترة وجيزة من نجاح الثورة، وحسين منتظري الذي كان نائبا للخميني، وعلي خامنئي الذي خلفه في منصب "مرشد الثورة"، وهاشمي رفسنجاني الذي تولى أحيانا تنسيق علاقات الثورة الخارجية مع الهيئات والمنظمات الشعبية، وصادق خلخالي الذي ترأس "المحاكم الثورية" التي شُكلت إثر نجاح الثورة وأعدمت الآلاف من رجال الشاه.

الدور الأمريكي في الأحداث

خلال عام 1977 التقى شاه إيران مع كل من ألفريد أثيرتون، ووليم سوليفان وسايروس فانس، والرئيس كارتر، وزبيغنيو برزيزينسكي، ففي مواجهة هذه الثورة سعى الشاه وراء مساعدة من الولايات المتحدة.

فقد احتلت إيران موقعاً استراتيجياً في السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط، فهي موالية لأمريكا وتتقاسم حدوداً طويلة مع عدوها في الحرب الباردة الإتحاد السوفيتي، وهي أكبر دولة نفطية قوية في الخليج العربي، لكن النظام البهلوي قد حظي بدعاية سلبية لسجله السيئ في مجال حقوق الإنسان.

السفير الأمريكي في إيران، ويليام سوليفان يقول بأن مستشار الأمن القومي الأمريكي السيد زبيغنيو برزيزينسكي أكد للشاه مراراً وتكراراً أن الولايات المتحدة تدعمه بالكامل. لكن الرئيس كارتر فشل في الالتزام بتلك الوعود والتأكيدات.

في ٤ تشرين الثاني / نوفمبر 1978 اتصل برزيزينسكي بالشاه ليبلغه بأن الولايات المتحدة ستدعمه حتى النهاية، وفي الوقت نفسه، قرر بعض المسئولين رفيعي المستوى في وزارة الخارجية أن الشاة يجب أن يذهب بغض النظر عمن سيحل مكانه.

واستمر برزيزينسكي والوزير جيمس شليزنغر في التعهد للشاه بأن الولايات المتحدة ستسانده عسكرياً. حتى في آخر أيام الثورة، عندما كان الشاه يعتبر هالكاً لا محالة مهما كانت نتائج الثورة، استمر برزيزينسكي في الدفاع عن خطة التدخل العسكري الأمريكي لإعادة الاستقرار الإيراني.

الرئيس كارتر لم يحسم كيفية استعمال القوة بشكل مناسب، وعارض قيام الولايات المتحدة بانقلاب وأمر حاملة الطائرات يو أس أس كونستوليشن بالتوجه إلى المحيط الهندي لكنه سرعان ما ألغى أمره، تم التخطيط الصفقة مع جنرالات إيران لتحويل الدعم لصالح حكومة معتدلة، لكن هذه الخطة انهارت مع اجتياح الخميني وأتباعه البلاد، وتوليه السلطة في ١٢ شباط / فبراير 1979

الخميني وأمريكا

بعد شهر نوفمبر من عام ١٩٧٨ تحولت الولايات المتحدة الأمريكية عن مساندة الشاه وعلى الرغم من أن وزارة الخارجية الأمريكية بدأت منذ منتصف ربيع ذلك العام تنذر الرئيس السابق كارتر بقرب سقوط الشاه ونظامه غير أن كارتر وبرجنسكي بقيا إلى ما بعد يوم الجمعة الأسود الواقع في الثامن من سبتمبر، راسخي القناعة بأن الشاه سيتجاوز بنجاح الأزمة التي يعانيها، وهكذا وجدت الرئيس كارتر يرسل بعد مذبحة يوم الجمعة الأسود ببرقية إلى الشاه يعلن فيها دعمه غير المشروط للشاه ولنظامه ولكن ما كاد ينصرم شهر سبتمبر حتى طلب الرئيس الأميركي كارتر من السيد جورج بول وكيل وزارة الخارجية السابق والمعروف بنقده للشاه أن يقدم إليه تقريرا عما يراه في الأزمة

الإيرانية وقد نصح جورج بول كارتر قائلا: بأن الشاه لن ينجو من الأزمة ما لم يبادر فورا إلى التخلي عن معظم سلطاته الحالية إلى حكومة مدنية تستند إلى قاعدة شعبية عريضة.

ومن ثم أرسلت الحكومة الفرنسية بكتاب إلى البيت الأبيض ولم يكن كتابها ذاك يختلف في فحواه من حيث تحليله وتقويمه لأوضاع الشاه عن تقرير جورج بول لكن كتاب الحكومة الفرنسية كان يذهب إلى حد القول بأن الخميني سيكون مستعدا للتعاون والغرب إلى أقصى الحدود، نظرا لأنه عدو بالمبدأ والفطرة للشيوعية وقد نصحت الحكومة الفرنسية الخميني كذلك بإعلان موقفه من اليسار والشيوعية فاستجاب الخميني لنصيحة فرنسا وأنطلق وأعوانه يشنون حملة من هجوم عنيف على اليسار وأعلن الخميني أن حزب توده الشيوعي يتعاون والشاه وأن الماركسيين يتآمرون على طعن الإسلام والغدر بالمسلمين واتهم الاتحاد السوفيتي بأنه دولة استعمارية تركبها مطامع ما أنزل الله بها من سلطان وأنهى قوله: أنه حالما يسقط الشاه ونظامه فانه يتعهد بتزويد الغرب بكل ما يطلبه من البترول وأنه سينشئ العلاقات الودية مع الولايات المتحدة الأمريكية

ومن الطريف لا بل من المفارقات الساخرة أن الخميني بعد أن غادر الشاه إيران وعزم على العودة من باريس إلى طهران وقبل أن يستأجر طائرة لنقله إلى طهران علمت المخابرات الأميركية بما اعتزمه فاتصلت بالمرحوم صادق قطب زاده (الذي أعدمه الخميني مؤخرا) وطلبت منه أن يؤجل الخميني سفره مدة ثلاثة أيام لكي يتمكن الأمريكان خلالها من إحباط المؤامرة التي تهدف إلى إسقاط طائرة الخميني قبل أن تحط في مطار طهران.

ورغبة في التأكيد من ضمان سلامة الخميني اتصلت المخابرات الأميركية أيضا بشركة الخطوط الجوية الفرنسية التي كان الخميني يفاوضها على استئجار إحدى طائراتها وأنذرتها بما أنذرت به صادق قطب زاده، وقد استجاب الخميني لنصيحة المخابرات الأميركية التي عادت بعد ثلاثة أيام كما وعدت لتعطيه الضوء الأخضر للإقلاع إلى إيران حيث كان الجنرال هويسر الأميركي قد انتهى من تحييد أو بالأحرى منع القوات المسلحة الإيرانية من القيام بانقلاب عسكري لحسابها أو حساب الشاه الذي بذل جهودا يائسة

لإنقاذ عرشه ونظامه ولاسيما بعد أن تأكد من أن الولايات المتحدة الأميركية قد تخلت عنه صديقا وشاها ونظاما فالدول ليس لها أصدقاء دائمون بل مصالح دائمة.

الخميني ووعوده

لكن الخميني ليس بشاه، إنه أحد المنكوبين بالشاه وبالشاهانية، وقد عرف بمقاومته للطغاة وبزهده في بهارج الدنيا وبنسكه في المعاش ولذلك، حينما أطل على طهران، لم يطل إطلالة الزعيم على مواطنيه، ولا إطلالة الحاكم على محكوميه، بل عاد عودة الحرية إلى الأسير والعنفوان إلى الكسير، فلم يتبد حاكما أو زعيما ولا حتى إماما، بل تجلى بمثابة القيمة والمثل فغدا وجوده في نظر الإنسان الإيراني، حضورا مجردا غير محسوس، إذ أنه كان يقيم في ضمائر الجماهير وقلوبها، لذلك كان ذا نفوذ يكاد يكون أسطوريا، إن لم أقل ميتافيزيقيا، إذ كان بمثابة الحنين إلى كل خير، وهكذا وجدته حاضرا في غيابه وساحرا في حضوره، ففي شخصه اندمج يومذاك الخيال في الواقع، والأمنية في الحقيقة، والمجرد في المحسوس، والذات في الموضوع.

فالخميني حين عودته، كان قد أصبح من أولئك الزعماء التاريخيين النادرين الذين دخلوا عالم الأسطورة وهم لما يزالوا على قيد الحياة. فلقد غدا حينذاك محطا للأمل ومنطلقا للواقع، الأمر الذي ضخم في أحجام أشيائه، ووسع في آثار أقواله وأفعاله، ولا غرو في ذلك فالأمل عندما يصبح عينا للواقع، يغدو الصغير كبيرا والكبير عظيما. والعظيم خارقا لكل عرف ومألوف.

وهكذا أمسى الخميني كلمة فوق الشك وفعلا فوق الجدل وبدا وعده عهدا وعهده ميثاقا موثقا باليقين ودفاقا بالأمل.

والحق أن الخميني، نتيجة لكفاح إيران البطولي، ومواقفه القيادية الحازمة، لم يلهب فقط الشعوب الإيرانية، بل ألهب أيضا الكثير من الآمال الخابية في العالم الثالث، كما ضرب الشرق والغرب معا بالإعجاب ودهشة العجب.

فالعالم كاد ينسى قبل ثورة إيران. أن للأمم مثل تلك القدرات الهائلة على اقتلاع الطغاة ودك صروح الطغيان. وهكذا وجدت صور الخميني معلقة على جدران أكواخ

ومساكن ودكاكين الفقراء والمضطهدين في قارات العالم الخمس وحتى في جمهوريات الاتحاد السوفيتي المسلمة

كل ذلك، لا بل وأكثر من ذلك كان الخميني قبل أن يجرفه فجور السلطة فيتضح لنا أنه هو الكذبة الكبرى والوهم الكبير، ولكن كيف تمكن الخميني من أن يكون ما كان في أنظار إيران والعالم؟ وكيف استطاع استهواء حتى أنصار الدكتور على شريعتي، حيث أنهم هم الذين أطلقوا عليه لقب الأمام، هذا اللقب الذي لا يجوز، في المذهب الجعفري، إطلاقه على غير الاثنى عشر إماما؟

وكيف تمكن من أن يجمع حوله الماركسي المتطرف من لينني وتروتسكي وستاليني وماوي، والفوضوي والوجودي والعدمي والعامل ورب العمل والبائع والشاري والمثقف والجاهل والمؤمن والملحد وحتى المرأة لم يوفرها من سحره؟

إن الخميني كان بارعا غاية البراعة في خطته وخطاه التكتيكية فلقد اتبع في مساره السياسي خطين متوازين كفيلين بإشاعة الثقة والطمأنينة في صدور الجميع ما عدا أولئك المنتفعين مباشرة بالشاه ونظامه وهؤلاء لم يكونوا يشكلون سوى أقلية ضئيلة للغاية من شعوب الأمة الإيرانية.

فلقد كان أولا ينادى بأن اتوقراطيه الشاه لن تخلفها اتوقراطيه رجال الدين الثيوقراطية، وأن النظام البديل لنظام الشاه سيكون نظاما ديمقراطيا وإسلاميا، وقد صرح في شهر نوفمبر من عام ١٩٧٨ بأنه وجميع أعوانه من رجال الدين لا يطمحون إلى أية سلطة أو منصب سياسي وأن جمعية تأسيسية منتخبة انتخابا حرا هي التي ستتولى وضع دستور هذه الجمهورية الإسلامية وأن دستور هذه الجمهورية سينص صراحة على السماح بتعدد الأحزاب السياسية، بما في ذلك الحزب الشيوعي الملحد.

وبعد أن طمأن الخميني القوى السياسية والاجتماعية إلى أن استبداد الشاه لن يخلفه استبداد رجل الدين ولا التسلط الثيوقراطي، ذهب الخميني في بذل الوعود إلى حد أعلن عنده أنه سيساوى بين المرأة والرجل في الحقوق السياسية وقد جاء ذلك في تصريح أدلى به في اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٧٨.

وقد بلغ الخميني من الدهاء التكتيكي مبلغا جعله في جميع أنشطته السياسية يتجنب تحديد موقفه من أي موضوع أو أمر من شأنه أن يثير الانقسام في صفوف المعارضة.

ولذلك وجدته لا يتطرق إلا إلى المواضيع التي تحظى بالموافقة الإجماعية لجميع الأطراف فكان يهاجم الامتيازات التي منحها الشاه للغرب وكذلك التحالف السري القائم بين النظام الشاهنشاهي وبين إسرائيل.

ولم يوفر من هجماته إهدار الأموال الطائلة على التسلح والفساد المستشري في البلاط والدوائر العليا والطبقة الطفيلية من السماسرة والوسطاء وارتفاع أسعار ضروريات الحياة وهبوط فعاليات الاقتصاد الزراعي، وتدهور أوضاع الريف، وأزمة السكن والبؤس المطوق طهران بأكواخ الصفيح، والهوة المتزايدة اتساعا بين الفقراء والأغنياء والتوسع في أجهزة البيروقراطية وخرق الدستور والخروج على القوانين وتعطيل الصحف والأحزاب والاعتقال التعسفي والمحاكم الاستثنائية.

وكان الخميني حين مهاجمته لجميع الأمور الآنفة الذكر ينتهي إلى التأكيد على أنه سيطلق الحريات السياسية وسيضمن حقوق جميع الأقليات الطائفية، باستثناء الطائفة البهائية، وسينشر العدالة الاجتماعية بين الجميع: إذ أنه كان يقول إن التوحيد في الإسلام يعنى في واقعه انعدام الفوارق الطبقية بين الناس، وقيام المجتمع اللا طبقي.

ولا خلاف أن جميع المواضيع الآنفة الذكر مواضيع تجمع ولا تفرق ومتفق عليها بداهة بين مختلف طبقات الشعوب الإيرانية باستثناء الطبقة المنتفعة بالنظام الشاهنشاهي.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الخميني وطوال فترة منفاه خارج إيران لم يتطرق أبدا إلى موضوع الإصلاح الزراعي ولم يتقدم ولو بفكرة واحدة تلقى شيئا من ضوء على موقف الدولة من رأس المال ومن العمل ولم يحدد التحديد الواضح مهام الدولة وواجباتها الاجتماعية إزاء المواطن في حالة المرض والبطالة.

وزبدة القول أن نظام الخميني حزبا ودولة لم يعلن مناهجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية فهو لا يزال يدور في متاهات العموميات والتجاريد، لذا تراه يلجأ في

سياسته الداخلية والخارجية إلى كل وسيلة تبقى الشعوب الإيرانية داخلا وخارجا في حال من توتر وقلق دائمين.

وأصبح الخميني الشاه الجديد وعين مهدي بازرگان رئيسا لمجلس الوزراء، وأحاط نفسه بمجلس قيادة لثورته، وكان هذا المجلس يتألف من أبي الحسن بني صدر وإبراهيم يازدي وصادق قطب زاده وآية الله منتظري وبهشتي وهاشمي رافسنجاني ومحمد بوهانار، تلميذ الخميني.

** لقد ضمت التغيرات المقدمة على نشوب الثورة بعضاً من الإجراءات التي اتخذها الشاه، باعتبارها أسباباً للثورة، إضافة إلى نجاحات وإخفاقات تعرضت لها القوى السياسية ومن ذلك:

١/ سياسة التغريب القوية التي انتهجها الشاه على الرغم من تعارضها مع الثقافة الخمينية الشيعة، وعلاقاته الوطيدة مع إسرائيل واعتماده على القوى الغربية (الولايات المتحدة، إضافة إلى الإسراف والفساد والنخبوية الحقيقية والمفترضة) في سياسات الشاة وديوانه الملكي، وفشله في استقطاب المتعاطفين والأتباع من القيادات الدينية الشيعية لمقارعة الحملة الخمينية ضده.

٢/ تركيز الحكومة على مراقبة وقمع مجاهدي حركة «مجاهدي خلق» وباقي أطياف المعارضة اليسارية الإيرانية، بينما راحت المعارضة الدينية الأكثر شعبية تنتظم حتى قوضت تدريجياً نظام الشاه.

٣/ انتهاك الدستور الإيراني الذي وضع سنة 1906، بما في ذلك قمع المعارضة من خلال جهاز الأمن (السافاك)، ولم تكن المهادنة والظهور في موقف الضعف من مصلحته عندما لجأ إليها في الوقت الذي كسبت فيه الثورة زخماً متزايداً.

٤/ البرنامج الاقتصادي الطموح عام 1974 لم يواكب الطموحات التي أثارتها عائدات النفط إضافة إلى تكريسه سياسة احتكار الحزب الواحد وتزايد حدة التضخم، ثم انتشار الأسواق السوداء.

٥/ سوء تقدير سياسة التقشف التي أغضبت الباعة والناس.

٦/ منع لبس الحجاب في إيران وحققت الثورة الثقة بالنفس، وتراجع صحته أمام السرطان، فيما الثورة تزداد زخماً.

٧/ سوء تقدير قوة المعارضة.

٨/ طبيعة حكومة الشاة، التي منعت بروز أي منافس ذو كفاءة يمكن أن يقود الحكومة، مما أدى إلى ضعف فعالية الحكومة وتدني مستوى الإنتاج، الأمر الذي ساهم بدوره في زرع الخلافات والانقسامات داخل الجيش وبين النخب السياسية، ومن ثم غياب الدعم عن النظام وعدم توفر حلفاء فقد غادر هؤلاء مع أموالهم مع بداية الثورة.

وتنقسم الثورة إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: دامت تقريبا من منتصف 1977 إلى منتصف 1979 وشهدت تحالفاً ما بين الليبراليين واليساريين والجماعات الدينية لإسقاط الشاه.

المرحلة الثانية، غالباً ما تسمى الثورة الخمينية، شهدت بروز آية الله الخميني وتعزيز السلطة والقمع وتطهير زعماء الجماعات المعارضة للسلطة الدينية (بما فيها الثورة الثقافية الخمينية في الجامعات الإيرانية).

كانت المرحلة الثانية من الثورة مرحلة إسلامية الطابع، وبعد انتصارها كان هناك ابتهاج كبير في إيران جراء سقوط الشاة، لكن الصمغ الذي أبقى مختلف التيارات الثورية الدينية والليبرالية والعلمانية والماركسية والشيوعية التي عارضت الشاة فقد مفعوله.

مجموعات كثيرة تتنافس كلها على السلطة ولدى كل منها تفسيرات مختلفة الأهداف الثورة:

إنهاء الاستبداد. مزيد من الإسلام. الحد من التأثير الغربي الأمريكي. مزيد من العدالة الاجتماعية. الحد من اللامساواة.

والبقاء كان للأقوى، الخميني وأنصاره. كان الخميني آنذاك في نهاية العقد الثامن من عمره السابعة والسبعين تقريباً، ولم يتسلم أي منصب رسمي قط وكان منفياً خارج إيران لقرابة ١٤ عاماً، وسبق له أن قال لبعض من سألوه عبارات من قبيل المرشدون الدينيون لا يرغبون بالحكم. كل هذا ولد انطباعا لدى الكثيرين مفاده أنه يرغب بأن يكون المرشد

الروحي صاحب سلطة، لكنه بمهارة اختار التوقيت المناسب لإزالة كل أعدائه وحلفائه الذين باتوا عقبة أمامه وأن يطبق نظام ولاية الفقيه في جمهورية إسلامية يقودها بنفسه.

لم يتعظ الشاه بالتاريخ، ولربما لم يقرأه.. وإن كان قد قرأه فهو تأكيدا لم يستنطقه .. فالشاه تجاهل التاريخ واستعلى على معقوليته.

لقد كان يكفي الشاه لتجنب مصيره الفاجع أن يتمعن في تاريخ بلاده وأن يدرس نفسية أمته وان يتأمل في الثورة التي عصفت بإيران بين عامي ١٩٠٥ و١٩٠٩..

وكان من اليسير عليه وعلى مستشاريه أن يستلهموا تلك الثورة كيفية امتصاص الأحداث التاريخية وأسلوب التعامل مع البشر.. ولو أن الشاه فعل ذلك لما كانت ثورة الخميني قد شقت طريقها من المساجد والحسينيات إلى الشوارع والثكنات وطوحت به وبأسرته ونظامه.. أو لما كانت الثورة والخميني معا.. قد فرضا نفسيهما على التاريخ.

ومن المفارقات المحزنة أن الخميني لا يختلف والتاريخ حالا عن الشاه فالخميني كما يبدو يجهل أو يتجاهل الدور الهدام الذي قام به الشيخ فضل الله نوري، وكذلك المصير المأساوي الذي آل المذكور إليه بعد انتصار دستور ١٩٠٩ وخلع الشاه الكاجاري محمد على شاه وتنصيب ابنه الطفل أحمد شاها جديدا بدلا من أبيه.

وعلى الرغم من اختلاف ظروف الخميني وظروف فضل الله نوري من حيث الزمان والبنية الطبقية للمجتمع الإيراني فإن الموضوع الذي عبأ جماهير الأمة الإيرانية وحشدها يومذاك حول الشيخ فضل الله نوري، هو الموضوع ذاته الذي جعلها تلتف حول الخميني ودعوته. وأعني بذلك الموضوع الحرية المضمونة دستوريا والمحترمة حكوميا والممارسة شعبيا.

ولكن الخميني لم يتعلم أن التاريخ بالإضافة إلى كونه مرشد العقل في فهم الماضي على أضواء الحاضر فانه أيضا المرشد في صنع المستقبل من الحاضر على أضواء الماضي.

فالشيخ فضل الله نوري عندما انقلب على الدستوريين الإيرانيين واعتبرهم فوضويين وملاحدة، وانضم من حيث أراد أو لم يرد، إلى صف الشاه الكاجاري كما فعل آية الله الكاشاني أثناء انتفاضة مصدق فانه لم يشق الأمة الإيرانية إلى معسكرين فقط: معسكر رجال الدين ومعسكر العلمانيين أو الليبراليين بل شق أيضا كل معسكر من

ذينك المعسكرين إلى شراذم وطوائف وجماعات الأمر الذي مكن ذلك الضابط المغمور رضا بهلوي من الوثوب من الثكنة على الدستور وإلغائه والتربع على عرش الطاووس، ومن ثم فرض سيطرة الثكنة على المسجد والحسينية وفرض ديكتاتورية عسكرية طاغية على شعوب الأمة الإيرانية وأخيرا إلغاء الوجود المعنوي للأمة والاستعاضة عنها بالقوات المسلحة الإيرانية.

ذلك كله جاء نتيجة لانحراف فضل الله نوري عن الجادة وتعطيله لركب الحرية، ومناصرته من حيث يدري أو لا يدري الاستبداد على التحرر، الأمر الذي يرغمنا على القول ونحن نشهد مآسي إيران الخمينية، انه ليس ثمة إنسان يسمح له منطقه الوجداني، بالتصدي للدفاع عن الخميني الذي شق إيران أيضا إلى معسكرين معسكر رجال الدين ومعسكر العلمانيين كما أشاع أيضا الانقسام في مختلف المرجعيات الدينية، بدليل ما حدث لآية الله شريعة مداري ولغيره من الآيات، وموقف هؤلاء وذاك من نظام الخميني.

أضف إلى ذلك انفضاض الانتلجنسيا بأكملها من حول النظام، واعتماد النظام كليا، على الحرس الثوري الإسلامي الذي أمسى اليوم هدفا لكل نهاز أو صياد، ومما لا شك فيه أن النظام الإيراني الحالي يعيش فقط بسبب عدم تكامل واكتمال القوة التي تملأ الفراغ الذي سينجم عن سقوطه وليس بسبب قواه الذاتية، الأمر الذي يمهد كل سبيل لوثوب الجيش على السلطة أو لاستيلاء اليسار الإيراني المتمحور حول حزب توده والمدعوم بالاتحاد السوفيتي على مقاليد الحكم.

** في السنة الأولى للثورة كان هناك مركزان للسلطة الحكومة الرسمية والمنظمات الثورية، رئيس الوزراء مهدي باذركان الذي عينه الخميني، عمل على إنشاء حكومة إصلاحية ديمقراطية، في حين عملت بشكل مستقل كل من المجلس الثوري المكون من الخميني وأتباعه من رجال الدين، والحرس الثوري والمحكمة الثورية، والخلايا الثورية المحلية التي تحولت إلى لجان محلية. وفي حين راح رئيس الحكومة (المؤقتة) باذرخان يطمئن الطبقة الوسطى بات من الواضح أن سلطة اتخاذ القرارات النهائية هو في الهيئات الثورية وفي

المجلس الثوري على وجه الخصوص، وفيما بعد الحزب الثوري الإسلامي ازداد التوتر بين السلطتين بدون شك، رغم أن كلتيهما وضعت وأقرت من قبل الخميني.

في حزيران، أعلنت حركة الحرية مشروع الدستور، وأشارت إلى إيران باعتبارها جمهورية إسلامية، يتضمن مجلس صيانة يتمتع بحق نقض التشريعات المتعارضة مع الإسلام، لكن دون وصي فقيه حاكم، أرسل الدستور إلى مجلس الخبراء المنتخب حديثاً ليعرض أمام أعضاءه الذين حاز حلفاء الخميني على الغالبية بينهم، رغم أن الخميني كان قد أعلن بأن الدستور "صحيح إلا أنه هو والمجلس أعلنوا رفضهم له، وصرح الخميني بأن الحكومة الجديدة يجب أن تكون قائمة بنسبة ١٠٠٪ على الإسلام.

وقد وضع مجلس الخبراء دستورا جديدا أوجد من خلاله منصب القائد الأعلى للخميني، ومنحه السيطرة على الجيش والأجهزة الأمنية، والحق في نقض المرشحين للمناصب، كما أقر الدستور بانتخاب رئيس جديد يتمتع بصلاحية أضيق، لكن المرشحين يجب أن يحوزوا على الموافقة المباشرة من القائد الأعلى عبر مجلس صيانة الدستور، وقد أصبح الخميني نفسه رئيسا للدولة مدى الحياة باعتباره "قائد الثورة"، وعندما تمت الموافقة على الدستور في استفتاء أجري في كانون الأول / ديسمبر 1979 أصبح المرشد الروحي الأعلى، وتقدم رئيس الوزراء في تشرين الثاني / نوفمبر إثر شعوره بالضعف وخلافه مع ما آلت إليه باستقالته

من أوائل شهر مارس استشعر الديمقراطيون بخيبات الأمل المنتظرة عندما أعلن الخميني لا تستخدموا هذا المصطلح (الديمقراطية)، إنها مفهوم غربي".

في منتصف شهر آب / أغسطس تم إغلاق عشرات الصحف والمجلات المعارضة لفكرة الحكومة الخمينية، استنكر الخميني غاضبا الاحتجاجات ضد إغلاق الصحافة، وقال كنا نظن أننا نتعامل مع بشر، من الواضح أن الأمر ليس كذلك.

بعد نصف سنة بدأ قمع المعارضة الخمينية المعتدلة المتمثلة في حزب الشعب الجمهوري، واضطهد العديد من كبارها، ورموزها منهم شريعتي مداري الذي وضع تحت الإقامة الجبرية.

وفي آذار / مارس 1980 بدأت الثورة الثقافية، أغلقت الجامعات التي اعتبرت معاقل لليسار مدة سنتين لتنقيتها من معارضي النظام الديني في تموز / يوليو فصلت الدولة البيروقراطية 20.000 من المعلمين و 8.000 تقريبا من الضباط باعتبارهم "متغربين أكثر مما يجب.

استخدم الخميني أحيانا أسلوب التكفير للتخلص مع معارضيه، وعندما دعا قادة حزب الجبهة الوطنية إلى التظاهر في منتصف عام 1981 ضد القصاص هددهم الخميني بالإعدام بتهمة الردة إذا لم يتوبوا.

منظمة «مجاهدي خلق» هي واحدة من المنظمات المعارضة للحكم الثيوقراطي الديني في إيران، وخلافا لمعظم أطراف المعارضة في إيران اعتمدت منظمة مجاهدي خلق الكفاح المسلح في شباط / فبراير 1980 هاجم رجال مجموعة حزب الله مراكز اجتماعيه ومكتبات ومنابر مجاهدي خلق وعدد من اليساريين الذين يديرون النشاط اليساري في الخفاء.

نفذت منظمة مجاهدي خلق مجموعة من التفجيرات والاغتيالات أدت إلى مقتل نحو ٧٠ شخص في مراكز الحزب الإسلامي الجمهوري في يونيو / حزيران1981 ، واغتيل في العام ذاته كل من الرئيس محمد على رجائي ورئيس الوزراء محمد جواد با هونار.

في تشرين الأول / أكتوبر 1979 استقبلت الولايات المتحدة الشاه لعلاج السرطان، وكانت هناك ضجة كبرى في إيران من جماعة الخميني والجماعات اليسارية تطالب الشاه بالعودة إلى إيران للمحاكمة والإعدام.

احتجز عدد من الطلاب الإيرانيين ٥٢ موظفا في السفارة الأميركية لمدة 444 يوما حتى يناير/كانون الثاني 1981، ووصفوا السفارة بأنها "وكر الجواسيس".

فيما أصبح يعرف باسم «أزمة الرهائن في إيران» في أمريكا أنصار الشاه لاحظوا أن كارتر لم يقم بما يكفي لدعم الشاه مما تسبب بتحول إيران من حليف إلى عدو ومن ثم وقوع أزمة الرهائن.

وفشلت عملية "مخلب العقاب" العسكرية الأميركية لإنقاذ الرهائن.

احتجاز الرهائن عزز مكانة الخميني وعزز فكرة معاداة أميركا، وفي ذلك الوقت بدأ الخميني يشير إلى أميركا بـ "الشيطان الأكبر"، وظلت العلاقات بين البلدين متوترة بشدة وأضرّت العقوبات الدولية الأميركية بالاقتصاد الإيراني.

اعتبر البعض أن دعم الخميني لعملية احتجاز الرهائن كانت مناورة سياسية ذكية هدفها تقسيم مواقف المعارضة ضد الدستور الجديد الذين كان سيتم الاستفتاء حوله بعد شهر، الليبراليون المعارضون للحكم الديني عبروا عن رفضهم لحكم رجال الدين وكذلك لعملية احتجاز الرهائن في حين أن المنظمات اليسارية وضعت خلافها مع الدستور الجديد جانباً وانضمت إلى الحماس المناهض للإمبريالية في مسعاها لاحتلال عش الجواسيس.

فشلت محاولات تسليم الشاه للمحاكمة وتوفي في مصر بعد أن منح حق اللجوء فيها من قبل الرئيس المصري أنور السادات، قبل مرور سنة على احتجاز الرهائن، دون أن تؤدي وفاته إلى قطع فتيل الأزمة.

وفي تموز / يوليو 1980 اجتمع زبيغنيو برزينسكي مستشار الأمن القومي بالحسين بن طلال ملك الأردن في عمان لمناقشة خطط مفصلة يرعى من خلالها الرئيس العراقي صدام حسين لتقديم انقلاب في إيران ضد الخميني.

الحسين بن طلال الذي كان أقرب حلفاء صدام في العالم العربي، أدى دور الوسيط أثناء التخطيط الغزو العراقي لإيران سيكون تلبية لدعوة من الضباط الإيرانيين الموالين الذين يخططون لانقلاب أو انتفاضة في ٩ تموز / يوليو 1980 في عملية أطلق عليها اسم: نوجة، تيمناً باسم قاعدة جوية في همدان.

كما تم تنظيم الضباط الإيرانيين بواسطة بختيار شابور الذي فر إلى فرنسا بعد تسلم الخميني السلطة، لكنه كان يدير العمليات من بغداد والسليمانية في الوقت الذي تم في اللقاء بين زبيغنيو والحسين بن طلال، على أي حال فقد تسربت أنباء الخطة إلى الخميني عن طريق عملاء سوفييت في فرنسا وباكستان وأمريكا اللاتينية، وسرعان ما تمكن الرئيس الإيراني الحسن بني صدر من تطويق قرابة 600 من الضباط وأعدم كثيراً منهم، واضعاً نهاية حاسمة لخطة توجة للانقلاب.

قرر صدام إتمام المخطط بدون معونة الضباط الإيرانيين، فيبدأ بذلك حرباً ضروساً دامت ٨ سنوات عجاف حصدت أكثر من مليون قتيل ولم تبق ولم تذر.

الحرب العراقية الإيرانية

يوم ٢٢ سبتمبر/أيلول1980 ، غزا الجيش العراقي إيران في الأهواز، مما عجل بالحرب الإيرانية العراقية. وهكذا بدأت حرب السنوات الثمان بين العراق وإيران، واحدة من أكثر الحروب دموية وتدميراً في القرن العشرين.

ولقد كانت خوزستان (الأحواز) ذات أهمية رئيسية للعراق نظرا للعدد الكبير من سكانها العرب، وغناها بحقول النفط. فضلا عن القضاء على الثورة في مهدها.

على الرغم من أن قوات صدام حسين حققت العديد من التقدم المبكر، فإن القوات الإيرانية دفعت الجيش العراقي إلى التراجع بحلول 1982

ومع المقاومة الشرسة تمكن المقاتلون الإيرانيون مع حلول عام 1982 من استرجاع جميع الأراضي التي تمكن العراق من احتلالها، وساهم الغزو في توحيد الإيرانيين خلف النظام الجديد، ووضعوا خلافاتهم الكبيرة جانباً في مواجهة التهديد الخارجي، وباتت الحرب ذريعة يستخدمها النظام لقمع المجموعات المعارضة اليسارية المدعومة من السوفييت، بما في ذلك التعذيب والسجن غير القانوني.

وقد أدرك صدام خطئه، وعرض على إيران الهدنة، ورفض الخميني وأعلن أن الشرط الوحيد للسلام أن النظام في بغداد لابد أن يسقط ويجب أن تحل محله جمهورية إسلامية.

استمرت الحرب لمدة ست سنوات أخرى مع مئات الآلاف من الأرواح والدمار الكبير من الهجمات الجوية، ورغم أن رجال الثورة فشلوا في تصديرها إلى العراق في نهاية الأمر إلا أن الحرب كانت سبيلهم لتوطيد السيطرة على إيران.

وأخيرا قبل الخميني هدنة بوساطة من الأمم المتحدة.

الجيش والثورة

رغم أن الثورات الشعبية حظيت باهتمام أكاديمي شديد الإثراء إلّا أن الدراسات الأكاديمية حولها تكاد تنحصر في دراسة مقدّمات الثورات وأسبابها أو في نتائج الثورة ولواحقها.

فإشكالية الثورات، كما يوضح أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية الأميركي تيمور كوران، ليست في أسبابها وإنما في طبيعتها الفجائية وغير القابلة للتوقع.

ويقول أستاذ علم الاجتماع ريتشارد هاميلتون أن ثمّة فقرًا في الإنتاج الأدبي المهتمّ بتحليل الثورات، "ففي الغالب، وعلى رغم الحجم الهائل للمؤسسة العسكرية وقوّتها الظاهرة، إلا أنها عادة ما يتم حذفها من المناقشات التي تُعنى بالنظريات الكلية".

وفي كتابه (كيف تستجيب الجيوش للثورات ولماذا؟) يحاول أستاذ العلوم السياسية الأميركي زولتان باراني أن يقدّم "إطارًا معرفيًا يسمح لنا أن نتكهن بذكاء ودراية دور الجنرالات في الثورات، كتحسين للوسائل غير العلمية في التوقع، والتي يميل الباحثون وواضعو السياسات إلى الاعتماد عليها كقاعدة لبناء أحكامهم".

ويرفض في الوقت ذاته المقولات الرومانسية الماركسية، كمقولات ماو تسي تونغ أو تشي جيفارا، حول "القوة غير المحدودة للجماهير الذين يستطيعون هزيمة كتائب الطاغية المنظمة، حتى لو امتلكت قنبلة نووية.

في المقابل، يضع باراني عاملًا حاسمًا في انتصار الثورات من عدمها وهو ردّ فعل الجيوش تجاهها، إذ يتفق مع رأي عالم الاجتماع البولندي ستانيسلو أندرجيوسكي الذي يقول بأنه "مادامت الحكومة تحتفظ بولاء القوات المسلحة، فلا يمكن لأي ثورة أن تنجح"

ومن أبرز الثورات في العصر الحديث هي الثورة الإيرانية التي أطاحت بالشاه الإيراني واستبدلت مكانه حكمًا دينيًا منذ أواخر السبعينيات إلى يومنا هذا، وقد بلغ الاهتمام بالثورة الإيرانية إلى درجة أن ميشيل فوكو وصفها بأنها "ثورة ما بعد الحداثة الأولى في عصرنا.. وهي روح عالم بلا روح"

ووصف آصف بيات مدى إلهامها لشعوب المنطقة بأنها "جعلت الأمر يبدو وكأن نهاية القرن العشرين جعلت التاريخ يحمل في رحمه ما يمكن أن يولد ثورات إسلامية بالعمق والقوة التي أُنتجت بها الثورات الاشتراكية في بداية القرن".

وطبقاً لرؤية باراني، فإن السؤال الأهمّ المتعلّق بالثورة الإيرانية هو: كيف تعامل الجيش الإيراني مع الثورة الإيرانية؟ وما هي العوامل التي أثرت في استجابة الجيش الإيراني إلى الانتفاضة الشعبية؟ وهل يمكن تكرار الأمر في بلدان أخرى أم أن الأمر يقتصر على الحالة الإيرانية فقط؟!

فمنذ تسليم والد محمد رضا بهلوي السلطة لابنه عام1941 م إلى قيام الثورة عليه عام1979 م، كان الشاه بهلوي يعتبر نفسه أولًا وقبل كل شيء رجلًا عسكريًا، فكانت الحقيقة المهيمنة والوحيدة بشأن القوات المسلحة الملكية الإيرانية هي السيطرة المطلقة والكاملة للشاه على الجيش، ومثلما تحدّث ملك فرنسا لويس الرابع قائلًا: "أنا الدولة"، وصف الشاه نفسه بأنه هو الجيش.

والسبب الأبرز في تعاظم دور الجيش إلى هذا الحدّ يرجع إلى أنه منذ انسحاب القوّات البريطانية وإلغاء معاهداتها مع دول الخليج، فقد تبنّى الرئيس الأميركي نيكسون خيارًا بدعم إيران والمملكة العربية السعودية كشرطيين للمنطقة يحافظان على الأمن والمصالح الغربية فيها، وبالنظر إلى الإمكانات الأكبر المتوفرة لإيران –حينئذٍ– واستعداد الشاه لبذل فروض الطاعة، قفز عدد الجيش الإيراني قبل تطبيق مبدأ نيكسون من مائة ألف عسكري إلى 500 ألف عسكري، وقفزت المعاهدات التسليحية التي لم تتجاوز عشرين سنة بين ١٩٥٠–١٩٧٠م من 741 مليون دولار إلى ٢٠ مليار دولار، واستطاع الشاه تأسيس أكبر وأقوى جيش في المنطقة بأسرها، على الرغم بأنه ومنذ خمسين عامًا قبل الثورة الإيرانية، لم يشارك الجيش الإيراني في أي حرب خارجية ذات أهمية.

وبطبيعة الحال فإن الجيش كان الهيئة الأكثر قربًا من الشاه لسببين، الأول هو قلق الشاه المستمرّ حول صدق ولاء جنرالاته وضباطه وجنوده، والثاني هو أن القوّة العسكرية هي من أهمّ الأدوات التي يستخدمها أي نظام سياسي مستبدّ لفرض سيادته

وسيطرته على الشعب. في هذا السياق، كان الشاه يشارك بشكل مباشر في العمليات اليومية للقوّات المسلحة، ويقوم بالإشراف على اختبارات المتقدّمين للجيش، وكان الجنود يردّدون هتافاً صباحيًا "الله، الشاه، الوطن"

ورغم أنه لم يكن هناك أي خطر خارجي يهدّد إيران في فترة حكم الشاه، إلّا أن موازنة البلد السنوية للقوّات المسلحة لم تقلّ أبدًا عن ٢٣٪، بل كانت ترتفع أحيانًا إلى ٣٥٪

والمجندين إجباريًا داخل الجيش الإيراني حينئذٍ كانوا فئة ذات دورٍ هام في تحديد موقف الجيش، حيث كانت أقرب إلى التعاطف مع الحركة الثورية حال قيامها من طبقة الجنرالات وكبار الضباط

اتّبع الشاه سياسة (فرّق تسد) داخل الجيش الإيراني، فصمّم هيكل الجيش بحيث يمنع الجنرالات من تكوين شبكاتهم الخاصة، لتنتشر بينهم روح العداء والتربص والمنافسة، وكانت قرارات التعيين والفصل والترقية نادرًا ما تُوثق، فقد كانت مبنية على قرارات الشاه شخصيًا فحسب، ووصل تحكّم الشاه بالجيش لدرجة أنه لم تكن هناك أي معايير منطقية يمكن توقعها أو رصدها لحركات التنقلات والترقية داخل الجيش لأنها كانت مبنية على خيارات الشاه الشخصية فحسب.

بالإضافة إلى ذلك، كان التواصل الأفقي بين الجنرالات ممنوعًا إلّا عبر الشاه أو وسطائه، وإذا أراد أحد الجنرالات لقاءًا مباشرًا مع أحد الجنرالات الأُخر كان عليه استئذان الشاه أولًا.

الأمر الذي أدّى إلى تقديم كافة الجنرالات فروض الطاعة والولاء إلى الشاه لضمان مركزهم العسكري ومكانتهم لديه.

وعلى الرغم من الرفاهية المبالغ فيه والإنفاق الباذخ على الضباط الكبار في الجيش لضمان ولائهم للشاه قد حقق مراده بالفعل وأصبح كبار الضباط مخلصين تمامًا للشاه، إلّا أن الوثائق التي كُشفت بعد نجاح الثورة توضح أن خصوم الشاه داخل الجيش كان قوامهم أساسًا بعض من أفراد الطبقة المتوسطة الدنيا ممّن نالوا قسطًا كبيرًا من التعليم.

والسبب –كما يطرح باراني– راجع في الحقيقة إلى أن التباين بين الرتب المختلفة في الخلفيات الاجتماعية، ومستوى التعليم، والمزايا المادية والامتيازات الاجتماعية، ومدى السيطرة على تدفق المعلومات من أعلى إلى أسفل، كلّ ذلك "يعزز من الانقسام بين طبقات الجيش الواحد، مما يؤثر على موقف الجيش من الانتفاضة حال صدور أوامر بقمع الاحتجاجات وتفريقها"

وبغض النظر عن الجنرالات الكبار فإن المجندين إجباريًا داخل الجيش الإيراني حينئذٍ كانوا فئة ذات دورٍ هام في تحديد موقف الجيش، إذ أن الجيش القائم على التجنيد الإلزامي –بشكل عام– يمثل شريحة واسعة من المجتمع رافضة في أغلبيتها للتجنيد وتعتبره مرحلة انتقالية في حياتها، وبالتالي فهذه الشريحة أقرب إلى التعاطف مع الحركة الثورية حال قيامها من طبقة الجنرالات وكبار الضباط.

وكانت هناك تفرقة واضحة بين طبقة ضباط الكبار وطبقة المجندين إلزاميًا، وقد وصلت التفرقة بين طبقات الجيش الإيراني لدرجة أن جنرالات الجيش الإيراني كانوا يتقاضون سنويًا حوالي ٧٠ ألف دولار حينئذٍ، بينما كان المجنّد الإلزامي يتقاضى نحو 365 دولار فقط سنويًا.

في الرابع من أيلول/سبتمبر 1978 م، قام الثوّار بالخروج في مظاهرات كبرى، إلا أن الشاه أمر بعدم التدخل في بداية هذا الحراك، وقرّر بدلًا من قمع المظاهرات: موضعة الجيش في أماكن مركزّة وواضحة، لكن لماذا لم يأمر الشاه الجيش بالتدخل مباشرة؟!

يرى بعض الباحثين أن الشاه كان يتوقع تصاعد المظاهرات وينوي قمعها بالفعل، إلّا أن الانفتاح السياسي المفروض على الشاه جعله يفكر في تقديم مسوّغ للولايات المتحدة الأميركية حتى يقنعهم برؤيته بأن الشعب الإيراني لم يصل بعد إلى درجة من النضج السياسي التي تؤهله للتمتع بالحرية السياسية، إذ أن رؤية الشاه التي أراد تصديرها للولايات المتحدة قامت على أن "استبدال القمع والكبت بالانفتاح والتحرّر سيدفع المتعصبين والمتطرفين إلى إثارة الفوضى، وسيستغلّ الشيوعيون الفرصة في ضرب مصالح الغرب.

وبالتالي فإن أفضل حل هو إلغاء عملية الانفتاح السياسي لضمان بقاء إيران في أحضان الغرب".

وما يؤكد هذا التحليل هو أن الشاه في وقتٍ لاحق بالفعل –بعد ثلاثة أيام تحديدًا– أعلن الأحكام العرفية وأمر الجيش بقمع المظاهرات فيما سُمّي بأحداث الجمعة السوداء، رغم أن الأمر أتى بردّ فعل عكسي فيما بعد إذ فتح الباب للمرحلة الأكثر عنفاً في الثورة.

وفي تشرين الأول/أكتوبر1978 م، سيطر الطلّاب على جامعة طهران، ووقفت المدرعات وناقلات الجنود خارج الحرم الجامعي ولم تتدخل، ثمّ تبع ذلك سلسلة من قرارات حكومية بتخفيض ميزانية الجيش، وإقالة جنرالات، والسماح لعودة الطلاب المنفيين من منفاهم، بالإضافة إلى إصدار عفو عام عن المعارضة.

عكست هذه الإجراءات ارتباك نظام الشاه وفشله في استيعاب الموقف ممّا ساهم في انخفاض نفسية الجنود والجنرالات على حدٍّ سواء، الأمر الذي ساهم أكثر في هروب المجندين المستمرّ من الجيش، خصوصًا أن الخميني وجه رسالة إلى الجنود بعد أحداث الجمعة السوداء قائلًا: "أيها الجيش الوطنيّ الإيراني! لقد رأيتم أن الشعب يُحبّكم، وينشر الورود في وجهكم، وتعرفون جيّدا أن هؤلاء الناهبين قد جعلوكم وسيلة لقتل إخوانكم للاستمرار في ظلمهم، فالتحقوا بصفوف إخوانكم الذين تركوا الشاه، وانضموا إلى صفوف الشعب، ليهاجموا الأعداء".

بعد مغارة الشاه للبلاد، أعادت الجماعات المسلحة تنظيم صفوفها لتستوعب المتغيّرات الجديدة، ثمّ توجهت لمحاصرة أكبر معسكرات طهران وهما عشرت آباد وباغشاه.

غادر الشاه البلاد في ١٦ كانون الثاني/يناير1979م وعيّن مكانه شابور بختيار رئيسًا للحكومة، ورجع الخميني من منفاه في أول شباط/فبراير1979م، ورغم هذه الخطوات المفصلية، إلا أن كبار الضباط ظلّوا محتفظين بولائهم للشاه وعدائهم المطلق للثورة الإسلامية.

وفي ٩ (شباط/فبراير) أقدم الحرس الإمبراطوري على اقتحام مبنى التلفزيون الحكومي لبثّه فيلمًا حول عودة الخميني، كما وقعت صدامات بين طلاب الكلية الجوية وبين الحرس الجمهوري، ولكن أخطر الصدامات بين الثوّار وبين الجيش كانت أثناء محاولة الثوّار اقتحام مصنع للبنادق الآلية في ١٠ (شباط/فبراير)، وهي المحاولة التي توّجت بالنجاح لصالح الثوّار ممّا تسبّب في زيادة عدد الجماعات المسلحة والمدنيين المسلحين عشرة أضعاف على الأقل.

وفي صباح اليوم التالي عقب تسليح المدنيين بكثافة، أعادت الجماعات المسلحة تنظيم صفوفها لتستوعب المتغيّرات الجديدة، ثمّ توجهت لمحاصرة أكبر معسكرات طهران وهما عشرت آباد وباغشاه، وتلا ذلك سيطرة الثوّار على خمس معسكرات أخرى.

وبعد التقدّم الكبير المسلّح للثوّار، أعلن مجلس قيادة الجيش بيانه الشهير بالحياد بين الحكومة وبين أنصار الشاه، وحينئذٍ –فقط– أصدر الجيش أمرًا للجنود بالعودة إلى الثكنات وتخلّى عن حكومة بختيار وأعلن تسليم السلطة للخميني وهو ما اعتبر إعلاناً رسميًا لنجاح الثورة وسقوط نظام الشاه.

لكن يبدو أن الحقيقة الكاملة حول الثورة الإيرانية وموقف الجيش منها وسقوطه المدوي خلالها لا تزال غامضة إلى حدٍّ ما، كما يقول أستاذ العلوم السياسية الأميركي–الإيراني سبهر ذبيح أنه "حتى الآن لم يفهم كل ملابسات سقوط القوات المسلحة فهمًا جيّدًا"، فهناك تفاصيل لم تُعلن أبدًا لأن أطراف الصراع إما أسكتتهم الفرق الانتحارية للنظام الثوري، وإمّا لقوا حتفهم في حزيران/يونيو1981م حيث قام خصوم النظام بالقضاء على قيادات الحزب الجمهوري الإسلامي عبر تفجير لمكتب الحزب قُتل خلاله ثلاثة وسبعون قائدًا من قادة الحزب والثورة.

ومن الوثائق التي تم الكشف عنها مؤخرًا أن الخميني وعد الولايات المتحدة أنهم إذا أقنعوا الجيش الإيراني بالسماح للخميني بالسيطرة على الحكم، فإنه سيحافظ على الاستقرار في المنطقة وسيضمن لهم مصالحهم.

لقد كانت الثورة بمثابة مفاجأة صادمة للاستخبارات المركزية الأميركية، فقد فشلت في رؤية إرهاصات الثورة الإسلامية في إيران كما فشلت في التنبؤ بانهيار الشيوعية في

أوروبا الشيوعية بعد عقد من ذلك، ولم تتوقع الولايات المتحدة سقوط عرش الشاه على الإطلاق. ولذلك فإن موقفهم اتّسم بالتردّد والمقاربة الحذرة مع الأحداث.

بعد رحيل الشاه بيومين، فتحت بعض الوحدات من الجيش النار على بعض المتظاهرين إعلانًا منها بولائها للشاه رغم هروبه من البلاد وبعدها أصدرت الولايات المتحدة بيانات تؤيد فيها الحراك الشعبي ممّا ترجمه بعض قادة الجيش بأنه تخلّي الولايات المتحدة عن نظام الشاه بالكامل.

وفي ٢٠ كانون الثاني/يناير وجّه الرئيس الأميركي كارتر رسالة علنية إلى الخميني بأن يعطي الحكومة الانتقالية فرصة، ممّا يعني اعتراف الولايات المتحدة بقوّة الخميني ونفوذه رغم كونه خارج البلاد أصلًا.

ومن الوثائق التي تمّ الكشف عنها مؤخرًا هي الوثائق التي تفيد بأن الخميني أثناء وصفه المستمرّ لأميركا بأنها الشيطان الأعظم، قد تواصل معها سرًّا في كانون الثاني/يناير1979 م أي في ذروة الحِراك الثوري، وأرسل رسالة إلى واشنطن مفادها أن الشعب يستمع إليه لكن الجيش يستمع إلى الأمريكان، ووعد الخميني الولايات المتحدة أنهم إذا أقنعوا الجيش الإيراني بالسماح للخميني بالسيطرة على الحكم، فإنه سيحافظ على الأمن والاستقرار في المنطقة وسيضمن للأمريكان مصالحهم كما هي.

ويرجع هذا التواصل من طرف الخميني إلى سببين:

الأول هو إدراك الخميني أن الولايات المتحدة قوّة رئيسية في الأحداث لا يمكن تجاوزها بدون حسابات واقعية.

الثاني هو خوف الخميني من تكرار تجربة الانقلاب على مصدّق عام1953 م الذي هندسته الاستخبارات المركزية الأميركية، وهو الأمر الذي تأكّد بعد نجاح الثورة إذ كشفت الوثائق أن الجيش بالفعل بعد عودة الخميني حاول الانقلاب عليه لكنه فشل.

بادرت قيادة الثورة في البداية إلى إعدام كبار الجنرالات، وبعد شهرين أعدم أكثر من 200 من كبار مسئولي الشاه المدنيين بهدف إزالة خطر أي انقلاب وأجرى قضاة الثورة من أمثال القاضي الشرعي صادق الخلخالي محاكمات موجزة افتقرت إلى وكلاء للدفاع أو محلفين أو إلى الشفافية، ولم تمنح المتهمين الفرصة للدفاع عن أنفسهم، ومن

بين الذين أعدموا بدون محاكمة (عملياً) أمير عباس هوفيدا، رئيس الوزراء السابق لإيران، أما الذين هربوا من إيران فليسوا محصنين، فبعد مرور عقد اغتيل في باريس رئيس الوزراء الأسبق شابور بختيار، وهو واحد من ما لا يقل عن ٦٣ إيرانيا قتلوا أو جرحوا منذ الإطاحة بالشاه.

قلق وإزعاج

** وقد أزعجت الثورة الإيرانية كل زعماء العراق والكويت والسعودية ودول الخليج عموماً، فقد كان لظهور الراديكالية الشيعية وسيطرتها على حكومة دينية ودعوتها إلى إسقاط الأنظمة الملكية واستبدالها بجمهوريات إسلامية كل ذلك كان أشبه بالكابوس بالنسبة للعرب السنة في الجوار الشيعي، فهناك أقليات شيعية في كل تلك البلاد.

ولقد ضعت الجمهورية الخمينية نفسها على أنها منارة للثورة تحت شعار لا شرق ولا غرب (أي لا نتبع نموذج الاتحاد السوفييتي ولا نموذج الغرب الأمريكي الأوروبي).

زعماء الثورة في إيران قدموا وطلبوا الدعم لقضايا الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية، كمنظمة التحرير الفلسطينية، كوبا، الكفاح ضد العنصرية في جنوب أفريقيا، ودعت إلى الثورة لتغيير الظلم الاجتماعي والملكيات والتأثير الغربي والفساد في الشرق الأوسط وباقي أنحاء العالم.

كما نجح تصدير الثورة في مكان واحد، وهو لبنان، حيث أدى السخاء الإيراني في تمويل حزب الله إلى إنشاء فريق سياسي وعسكري كبير، أولا في الحرب الأهلية اللبنانية، ثم ضد الاحتلال الإسرائيلي. ومع ذلك، لا يزال اعتماد حزب الله على إيران عسكريا وماليا شغلاً شاغلاً خصوصاً بعد الحرب الإسرائيلية على لبنان، بهدف القضاء على حزب الله في تموز / يوليو 2006

وعندما نشبت الحرب أول الأمر نوقشت في الإدارة الأمريكية، وأبدى البعض تخوفهم من انتصار إيران، ودعوا إلى ضرورة خسارتها للحرب، جاءهم الرد يجب أن يخسر الطرفان، وهذا ما حصل.

وفي إيران لقيت بعض أهداف الثورة العامة (خصوصاً القضاء على العلمانية والنفوذ الأميركي في الحكومة) نجاحات معقولة. في حين أن أهداف أخرى (مثل زيادة

الحرية السياسية والمساواة الاقتصادية والاكتفاء الذاتي وتثقيف الجماهير والنزاهة والفعالية والكفاءة في إدارة الحكومة لم تلاق مصيراً مشابهاً.

كما أن التذمر من الاستبداد والفساد الذي انتشر في عهد الشاه وحاشيته يوجه الآن ضد الملالي في إيران، الخوف من البوليس السري السافاك حل محله الخوف من الحرس الثوري، على الرغم من بروز درجة من التمثيل الحكومي والانتخابات الديمقراطية في مرحلة ما بعد الثورة من حيث الهيكل السياسي، لكن البعض يتحدث عن انتهاكات لحقوق الإنسان في النظام الديني تزيد عما كان يحصل في عهد الملكية.

التعذيب والسجن للمخالفين، وقتل كبار النقاد أمر شائع، بالإضافة على سوء وضع المرأة، واضطهاد الأقليات، وخاصة أتباع المذهب البهائي، الذي أعلن أنه بدعة. تم إعدام أكثر من 200 من أعضاء الطائفة البهائية وسجن آخرون في حين حرموا الآلاف من فرص العمل، والمعاشات التقاعدية، والأعمال، وفرص التعليم.

وعلى الجانب الآخر لم يزدهر الاقتصاد الإيراني، الاعتماد على صادرات النفط لا يزال طاغيا، دخل الفرد يتقلب مع سعر برميل النفط الذي انخفض إلى ربع ما كان عليه في عهد الشاه، وارتفعت البطالة بين السكان من الشباب.

ومنذ الثورة تطور النظام السياسي الداخلي، منذ سنة1997 ، مع مستوى مرتفع نسبياً مقارنة بالمنطقة من استخدام إلى الإنترنت حيث بلغ عدد مستخدمي الإنترنت نحو 7.5 مليون وهو أمر يجعل من الصعب وقف هذا التطور الداخلي المستمر من الفكر السياسي والتنظيمي، ولكن الحكومة تعمل بدأب على حجب المواقع الإلكترونية السياسية والتحاليل الإخبارية الداخلية والخارجية.

إيران بين العلمانية والإسلام

كان الإسلام طوال الخمسينات والستينات من هذا القرن، هدفا لأشرس هجوم تعرض له في تاريخه، وذلك بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها وخرج منها الاتحاد السوفيتي منتصرا ذلك الانتصار الذي كرسه دولة عظمى حيث تجاوز مساحة وسلطانا ونفوذا كل حلم من أحلام روسيا القيصرية وكل مطمع من مطامع قياصرتها، أقول بعد كل هذا.

غدا كل ما هو سوفيتي أو روسى أو ماركسي، موضوعا للبحث وهدفا للتطلع ومحطا للفضول، ويعود السبب في ذلك إلى أن ستالين بعد أن تغلب على تروتسكي ونفاه إلى خارج الاتحاد السوفيتي، وبعد أن وطد سلطانه داخل الحزب والدولة معا، ضرب التروتسكيين والتروتسكية القائلة بالثورة الدائمة وبتصدير الثورة إلى شتى أقطار العالم، كما شل أيضا الكومنترن (اتحاد الأحزاب الشيوعية) وعطل فعالياته وفرض على الشعوب السوفيتية حياة من عزلة دولية جعلت الاتحاد السوفيتي يبدو كأنه دولة تقع في كوكب آخر غير كوكب الأرض.

لذلك عندما جاء هتلر بحربة ليخرج الاتحاد السوفيتي إلى عالم الضوء، وليمتحنه ذلك الامتحان الرهيب بدمويته أمام شعوب العالم، ولاسيما شعوب العالم الثالث، تركزت أنظار الشعوب على الاتحاد السوفيتي وأخذت ترصده في حالتي الكر والفر رصد الفضولي الطموح، إذ أن كل ما كان يصدر آنذاك، عن الاتحاد السوفيتي وعن السوفيتية وبخاصة الستالينية منها، كان جديداً كل الجدة على شعوب العالم الثالث ولاسيما على أبناء هذه الشعوب من المثقفين وقادة الرأي وذلك لان السوفيتية أي الماركسية في ميدان التطبيق، كانت في نظر هؤلاء بمثابة الأحجبة المغلفة بلغز، وكانت حقيقة السوفيتية العالمية لم تنجل بعد انجلاءها عن الإمبراطورية الروسية العضوض التي يعانيها المعسكر الشرقي اليوم.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن معظم شعوب العالم الثالث كانت حتى أواخر الأربعينات والستينات لا تزال خاضعة لاستعمار المعسكر الغربي الذي يدين بأيديولوجية تختلف كليا عن الأيديولوجية السوفيتية.

وكانت تلك الشعوب تخوض نضالا داميا ضد الغرب بغية التحرر والاستقلال وكان العالم قد انقسم يومذاك إلى معسكرين غربي وشرقي وكان هذان المعسكران يعيشان حالة رهيبة من الحرب الباردة التي كانت تهدد بتحولها إلى حرب ساخنة.

وكان المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي يغتنم كل فرصة ليظهر الشعوب العالم الثالث بمظهر نصير كل حركة تحرير وتحرر، وكان يبدو حتى في أنظار العاقلين حليفا

ضروريا في مرحلة تكنيكية معينة، وفي أنظار الأغبياء أو المضللين الحليف الاستراتيجي الوحيد.

لذلك كله وجدت الماركسية ذروة العلمانية المادية السياسية، الطريق ممهدة أمامها إلى غزو السذج من العقول والأبرياء من أصحاب القلوب الطيبة ومن ثم جاءت إسرائيل لتزيل من أمام الماركسية السوفيتية، ما تبقى في طريقها من عقبات إذ أن الاتحاد السوفيتي أصبح المورد الوحيد لأسلحة جيوش بعض الأقطار العربية التي أقدم بعض ضباطها على عسكرة أنظمتها السياسية وعلى إعلان الثورية دستورا والاشتراكية الانتزاعية برنامجا ومنهجا.

وبذلك توفر للعلمانية المادية، ولممثلها الاتحاد السوفيتي جميع الأجواء السلطوية والشعبية للهيمنة على شعوب العالم الثالث تلك الهيمنة التي مكنت الماركسية السوفيتية من صهر حتى الحركات القومية في العالم الثالث في بوتقة الاشتراكية الانتزاعية الأمر الذي يعنى فقط المحاولة الجدية الرامية إلى اقتلاع الجذور الإسلامية من تربة المنطقة، وذلك لأن الإسلام كان ومازال السد المنيع أمام كل نظام اجتماعي يقوم على الإلحاد وأمام كل تيار وافد يرمى إلى طمس الهوية العقدية لشعوب المنطقة، وكل نزوع استعماري يهدف إلى السيطرة عليها

والحق يقال أن العلمانية المادية مدعومة بوسائل الجوقة الشيوعية العالمية كادت تطغى على كل عقيدة أخرى، أو أيديولوجية غير مادية، وهكذا شاهدت مثلا البعثية والناصرية تستأثران بالساحة في بعض الأقطار العربية وتتعانقان والماركسية عناق الأزواج أو العشاق، ورأيت حزب تودة الشيوعي الإيراني وحركة فدائيي خلق الإيرانية يشكلان القوة الضاربة من قوى المعارضة الإيرانية، وذلك بعد انهيار عهد مصدق وانسحاب آيات الله الممثلين بآية الله الكاشاني، من الميدان السياسي أو بالأحرى مساندتهم السافرة والمستورة للشاه ونظامه الأمر الذي وفر للماركسية السوفيتية والماوية وحتى التروتسكية، أن تبيض وتفرخ في إيران ووفر لأتباع تلك الضلالات جميع الظروف لاتهام كل مسلم بالجمود والرجعية والعمالة للاستعمار، وكذلك أتاح أيضا للشاه جميع الفرص المتابعة سيره في طريق قوميته العلمانية.

وهكذا وجد الإسلام نفسه في إيران يحارب في جبهتين جبهة العلمانية الشاهنشاهية وجبهة العلمانية الماركسية، لكن الدكتور على شريعتي كان في واقع الحال يقاتل في جبهات ثلاث، وهي الجبهتان الآنفتا الذكر. بالإضافة إلى جبهة المتزمتين والجامدين من كهنوت الطائفة الشيعية

مبادئ الحكم في إيران المعاصرة

يمكن القول بأن المشهد العام في إيران لا تكفيه صورة واحدة لتعبر عنه، بل هو زخم تاريخي امتد لما يقرب من قرن كامل من الزمان حيث تراكمت خطايا أنظمة سابقة ورثتها أنظمة أخرى حتى جاءت الثورة والتي لم تفلح في التعامل مع المواطن الإيراني البسيط ولم تستغل الدين كما ينبغي في أصول الحكم، بل فرضت نظرية ولاية الفقيه وما يعرف بالمهدية تأثيراتها على الداخل الإيراني.

يحفل دستور جمهورية إيران بمفارقات ومتناقضات واستقطابية مستأثرة ومستغلقة ومتمحورة حول شخصية واحدة هي شخصية الفقيه وذلك لأن الفقيه. استنادا إلى الدستور الإيراني الحالي يجمع –فعلا وواقعا– في شخصه السلطات الثلاث، التشريعية والتنفيذية والقضائية، وهو في الوقت ذاته –وأيضا استنادا إلى الدستور الإيراني– قادر على أن يضرب عرض الحائط حتى بإرادة الشعب ورغبات الأمة، حتى ولو جاءت تلك الإرادة أو هذه الرغبات نتيجة لأوسع الانتخابات حرية والاستفتاءات نزاهة وحيادا.

الأمر الذي يعتبر فصلا جديدا يضاف إلى تاريخ الطغيان ومنهجا فريدا من نوعه من مناهج الطغاة في ممارسة التسلط والاستبداد في الحكم، وذلك لأن الفقيه –وفقا للدستور الإيراني– فوق إرادة الشعب ورغبة الأمة، فهو ليس ممثلا للأمة بل وصى عليها، ومطلق الصلاحية في تصريف شؤونها وتدبر أمورها، فجمهورية الفقيه لا تتألف من مواطنين، بل من رعايا.

نظرية ولاية الفقيه

يغلب على الفقه الشيعي الاثنى عشري التقليدي الطابع الفردي، ولم تكن مسألة الحكم والدولة من المسائل الخاضعة للبحث إلا بقدر ارتباطها بالفرد، مما يتطلب ملاحقة عدد من الجزئيات المتناثرة في مسائل فقهية وعقائدية في عصور سياسية متعددة كلها تشير بوضوح تام إلى أن الفقه والفقيه الشيعي بوظيفته الأصلية لم يكن واردا أن يقوما بالتنظير أو التعاطي مع السلطة الزمنية إلا بوصفها موقعا مقابلا منفصلا تماما قد يمكن التعامل معه إيجاباً أو سلباً.

والشيعة الإمامية يزعمون إن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قد عين علياً للإمامة بالاسم والنص المباشر، وإن هذه الإمامة تستمر كذلك في ابنيه الحسن والحسين

وتتسلسل بشكل وراثي عمودي في ذرية الحسين، وكل إمام يوصي لمن بعده إلى أن تبلغ الإمام الثاني عشر المهدي الغائب المنتظر.

ولم تكن فكرة الإمامة من البداية محددة المعالم، كانت مفتوحة على التاريخ فقها واعتقاداً، ومن المفترض أن تمتد من بعد وفاة الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إلى يوم القيامة يوصي بها كل إمام لمن بعده.

فجوهر النظرية الإمامية يعتمد على القول بعدم جواز خلو الأرض من قائم لله بالحجة (الإمام)، ويجب أن يكون معصوما وتفوق أحيانا تلك التي يثبتها أهل السنة والجماعة للنبي، وهو مشرع ومبلغ عن الله يتصف بالعلم اللدني الإلهي ويوحى إليه من الله بالإلهام، حتى ذهب بعض المناوئين للشيعة إلى اعتبار أن الإمامة هي النبوة وتخالف ما تسمى بعقيدة ختم النبوة.

ولكن بعد وفاة الإمام الحادي عشر الإمام الحسن العسكري في سامراء سنة 260هـ دون إعلانه عن وجود خلف له، أحدث شكاً وحيرة بشأن مصير الإمامة. فافترق الشيعة إلى أربع عشرة فرقة كما يقول النوبختي في فرق الشيعة، واحدة منها فقط قالت بوجود خلف للإمام العسكري، وأن اسمه محمد، وقد أخفاه والده خوفاً من السلطة فستر أمره.

وساعد وجود عدد من الأحاديث السنية التي تحدد عدد الخلفاء والأئمة بأنهم اثنا عشر وعن المهدي وصفته أو عن ولادته وغيبته لدى فرق أخرى كالواقفية الذين قالوا بمهدوية الكاظم ومن شابههم.. فقد ساعد هذا كله على استقرار فكرة المهدوية عند الاثني عشرية، ولكن بالمقابل فإن فكرة غياب الإمام تتناقض مع فلسفة الإمامة التي تقول بعدم جواز خلو الأرض من قائم الله بالحجة ووجوب كونه معصوماً ووجوب التعيين له في كل مكان وزمان.

وقد استمرت الغيبة الصغرى للإمام المهدي من سنة 260هـ إلى سنة329 هـ وهي المدة التي كان يتصل فيها بالناس عبر نوابه ويسمون السفراء والأبواب ولم يوثق الاثنى عشرية إلا أربعة نواب مع أخذ ورد، واشترطوا لإثبات النيابة أن يأتي مدعي النيابة بدليل

أو بمعجزة وكرامة تدل على اتصاله بالمهدي وينقل منه الرسائل والتواقيع إلى المؤمنين به ويأخذ إليه الأموال.

ففكرة النيابة الخاصة أعطت فرصة للاثني عشرية في مرحلة الغيبة الصغرى كي تعيد النظر في بنائها، واستعملت هذه النيابة في حينها لإثبات وجود المهدي وحماية مذهب الإمامية من الانتكاس والضعف، وأهم ما فيها أنها أرست فكرة جواز النيابة عن المهدي حينئذ، وبهذا أعطت للمذهب الاثني عشري معناه العقائدي، إلا أنها في المقابل فرضت عليه جمودا فقهيا وجمودا سياسيا طال أمده.

ولاية الفقيه وعقيدة التقية والانتظار

بدأت الغيبة الكبرى للإمام المهدي بعد ختم النيابة الخاصة على لسان السمري، وعاد الأمر بالشيعة إلى اللحظة الثقافية السنية التي تقول بخلو الزمان من نبي بعد وفاة الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وما يسمى بعقيدة ختم النبوة.

إلا أن عقيدة ختم النيابة الخاصة عن المهدي عند الشيعة لم تذهب بهم إلى حيث ذهبت عقيدة ختم النبوة عند السنة، فقد لجأ الشيعة إلى عقيدة التقية والانتظار لظهور المهدي، وذلك لقطع الطريق أمام مدعي النيابة الخاصة وللانسجام مع الأسس التي قامت عليها الإمامة (عدم خلو الأرض من إمام معصوم معين بالنص يتصدى للاجتهاد الديني وللإمامة السياسية).

ومن هنا فقد رفض الإمامية الأوائل دعوة المعتزلة والشيعة الزيدية الذين لم يشترطوا العصمة ولا النص في الإمام إلى تبنى نظرية «ولاية الفقيه» التزاماً بنظرية الإمامة والتقية والانتظار، واستناداً إلى فقدان الفقيه للعصمة والتعيين من الله، ولتعارض نظرية ولاية الفقيه مع نظرية الإمامة الإلهية.

ودار نقاش حام بين الطرفين حول الموضوع، وقد نقله الشيخ الصدوق في مقدمة كتابه «إكمال الدين وإتمام النعمة» حيث نقل مقتطفات من كتاب «الإشهاد» لأبي زيد العلوي، وكتاب علي بن أحمد بن بشار حول الغيبة وولاية الفقيه، ورد الشيخ عبد الرحمن بن قبة عليهما.

وقد استند ابن قبة في رفضه لنظرية ولاية الفقيه إلى رفضه للاجتهاد وحتمية وجود العالم المفسر للقرآن الكريم من أهل البيت واستنتج ضرورة اشتراط العصمة في الإمام. وبهذا أرخت عقيدة التقية والانتظار بظلالها الكثيفة على الذاكرة الشيعية عموماً وعلى ذاكرة المشتغلين بتنظير الفكر والفقه الإماميين من علماء وفقهاء.

وفي تواصل مع هذه الحقيقة أسست المدونات الشيعية الأولى في إحدى مهماتها وتجلياتها وعياً انتظارياً وفقها إخبارياً روائياً يرفض الاجتهاد ويفضي إلى تعليق وظائف الدولة الدينية الرئيسية: جباية المال (خمس وزكاة) وإمضاء الحدود والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة صلاة الجمعة وغيرها.. علقت كل ذلك على وجود الإمام المعصوم، أي ظهور المهدي المنتظر، فالغيبة في الرؤية الشيعية كما يقول فؤاد إبراهيم صاحب كتاب «الفقيه والدولة:

أولا: تعبير احتجاجي على الدولة القائمة يستبطن حجب مشروعياتها.. إلا في زمن الظهور.

ثانيا: أن الغيبة تعني انقطاع إمكانية تحقق الدولة الشرعية (الإمامة) بما يشي أن المحاولة من بعده:

١/ ليست ذات جدوى، يقول الشيخ مفيد ولو كان في المعلوم للحق صلاح بإقامة إمام من بعده لكفي في الحجة وأقنع في إيضاح المحجة.

٢/ أن الإمامة في وعي الفقيه.. تقع خارج إطار القدرات البشرية.. منظوراً إلى أن الدولة السلطة ليست من مهمات غير الإمام الغائب.

وفي هذا يذكر الشريف المرتضى في كتاب «الشافي في الإمامة» ما نصه: ليس علينا إقامة الأمراء إذا كان الإمام مغلوباً، كما لا يجب علينا إقامة الإمام في الأصل.. ليس إقامة الإمام واختياره من فروضنا فيلزم إقامته، ولا نحن المخاطبون بإقامة الحدود فيلزمنا الدم بتضييعها.

٣/ لو أن ثمة إمكانية لتحقق دولة الحق لحبطت الغاية من الغيبة، لأن الاستتار تعبير عن عدم إمكان تحقق الدولة الشرعية.

ويعقد الشيخان المفيد والطوسي لهذه النقطة مقارنة بين مواقف الأئمة السابقين وموقف الإمام الثاني عشر.

يقول المفيد أن ملوك الزمان إذ ذاك كانوا يعرفون من رأي الأئمة عليهم السلام التقية وتحريم الخروج بالسيف على الولاة.

وانطلاقا من هذه الخلفية القدرية، يستقيل الفقه السلطاني الشيعي أمام الواقع للاضطلاع بمهمة بناء المعرفة الدينية بأمور الغيبة، وصناعة جيل من المنتظرين المتناسلين على امتداد التاريخ حتى تحقق الحتمية التاريخية (ظهور الإمام المهدي)..

وهكذا يسقط الفقيه بحث أسس الدولة وإدارة الناس كحاجة اجتماعية ماسة وواقعية، ويتلبس بالتنظير للغائب، فهذا محمد بن إبراهيم النعمان يؤكد في كتاب «الغيبة» أن الإمامة حتى في عصر الغيبة – جعل إلهي، وقال: فمن اختار غير ما اختار الله وخالف أمر الله سبحانه ورد مورد الظالمين والمنافقين الحاليين في ناره.

ويستشف من هذا النص أن لا سبيل إلى العمل على إقامة سلطة أو انتخاب حاكم حتى ظهور الإمام المنتظر، يؤكد ذلك دعوته للشيعة بالصبر والكف والانتظار للفرج وترك الاستعجال بأمر الله وتدبيره، وعزز ذلك برؤيات تحث على الانتظار في عصر الغيبة.

ونسج عدد من مشاهير فقهاء الشيعة على منوال النعمان مثل الغرار الرازي الضمي 381هـ في «كفاية الأثر في النصوص على الأئمة الاثني عشر»، وابن بابويه محمد بن علي المعروف بالشيخ الصدوق (ت381 هـ) في «إكمال الدين وإتمام النعمة» و «الاعتقادات»، والشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بشيخ الطائفة (ت460) في كتاب «الغيبة».

وقد انعكست تلك المعتقدات التي قال بها فقهاء الشيعة الأوائل على تصنيفاتهم الفقهية فقرروا تعطيل بعض الحدود والأحكام، وما يدخل حسب اعتقادهم في ولاية الإمام المعصوم.

لقد كان الدافع للشيعة في نفي الاجتهاد شبهة استغناء الأمة عن الحاجة إلى المعصوم. ففي هذا السياق منع الشيعة الأوائل الاجتهاد، واكتفوا بجمع الأخبار

وتدوينها، فكانت وظيفة الفقيه الرواية فقط بناء على الاعتقاد السائد بكفاية النص الديني في غياب المعصوم، مما يحيل إلى نفي مطلق النيابة الفقيه عن الإمام المعصوم، وما زال لهذا الخط أنصار ويسمون بالإخباريين. والحقيقة أنها الصورة الأصلية التي ولد عليها التشيع الاثني عشري.

ودأب علماء الشيعة الأوائل على منع الاجتهاد ورد القياس، فألف النوبختي في القرن الثالث الهجري كتابين في أبطال القياس ونقض اجتهاد الرأي، ولأئمة أهل البيت روايات في ذلك منها عن الإمام جعفر الصادق: إن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحق إلا بعداً.

ولما ألف محمد بن أحمد بن الجنيد الإسكافي في 378هـ كتابه «تهذيب الشريعة» وأخذ فيه بالقياس والاجتهاد واستنبط الفروع على طريقة فقهاء السنة، أثار حفيظة العلماء فردوا عليه، منهم المفيد في «النقض على ابن الجنيد في اجتهاد الرأي»، وقال في رسالة في أجوبة المسائل السروية فأما كتب أبي علي بن الجنيد فقد حشاها بأحكام عمل فيها على الظن واستعمل فيها مذهب المخالفين والقياس ولم يفرد أحد الصنفين عن الآخر.

ونجد أن الطوسي وهو علم من أعلام الخط الأصولي الاجتهادي، بل يعده البعض المؤسس لهذا الخط، نجده في كتابه «العدة في أصول الفقه» في باب الكلام في الاجتهاد قد بالغ في نفي القياس بما يؤدي إلى تعطيل الاجتهاد، رغم أنه لا يرمي إلى ذلك.

ولكن الأمر لم يستقر على ذلك، فاستطالة ظهور الإمام المهدي وتقدم الزمن وإلحاح الحاجة وكثرة النوازل قد دفعت ببعض فقهاء الإمامية للسير قدماً في فتح باب الاجتهاد وخرق أبواب فقهية كانت محكمة الإغلاق، حتى كتلك المتوقفة على وجود الإمام المهدي كالجهاد والجمعة وإقامة الحدود.. وغيرها، وعندها تمايزت الشيعة فقهيا إلى خطين: خط أصولي وخط إخباري.

ونجد أن بعض العلماء الذين منعوا الاجتهاد ونفوا القياس قد أخذوا بهما في كتبهم عمليا كالمفيد والمرتضى والطوسي، وأنكروا على الأخذ بالأخبار والواقفين عليها، حيث نقد المفيد الشيخ الصدوق والإخباريين في كتابه «شرح عقائد الصدوق» أو «تصحيح

الاعتقاد» وبأنهم يمرون على وجوههم فيما سمعوه من أحاديث ولا ينظرون في سندها ولا يفرقون بين حقها وباطلها ولا يفهمون ما يدخل عليهم من إثباتها ولا يحصلون معاني ما يطلقونه منهما.

وبعد اليزدي أول من أثبت باباً بعنوان «باب التقليد والاجتهاد» حيث وضع هذا الباب في كتابه «العروة الوثقى»، وهو الرسالة العملية الواجب على المقلد امتثال ما جاء فيها، وسار فقهاء الشيعة من بعده على منواله وتكرست مرجعية الفقهاء ودورهم في النيابة عن المعصوم في الاجتهاد والمرجعية الدينية.

وهكذا تبدلت وظيفة الفقيه من راو إلى مجتهد إلى منصب شرعي إلى ولاية مستمدة من الله، فتحت الباب أمام ولاية الفقيه المطلقة.

السلطة السياسية وولاية الفقيه

نشط فقهاء الشيعة المعاصرون كالنراقي والمتأخرون عنه في تداول هذه المسألة فبحثها الشيخ محمد حسن النجفي المعروف بصاحب الجواهر (ت1266 هـ) وعضد إلى حد ما رأى النراقي. ولكنه قصر عنه حيث قال: لولا عموم الولاية (أي للفقهاء) لبقيت كثير من الأمور المتعلقة بشيعتهم معطلة. فاثبت الولاية العامة للفقهاء مستدلاً بمقبولة عمر بن حنظلة وغيرها، ولكنه يعود إلى نظرية الغيبة فيقول: "نعم لم يأذنوا لهم في زمن الغيبة ببعض الأمور التي يعلمون عدم حاجتهم إليها كجهاد الدعوة المحتاج إلى سلطان وجيوش وأمراء ونحو ذلك مما يعلمون قصور اليد عن ذلك ونحوه، وإلا لظهرت دولة الحق.... وكأنه أثبت النيابة للفقهاء فيما رآه من ضرورات زمنه، وترك للمهدي وظيفة الجيوش والجهاد التي تحمل المعنى السياسي الكامل لولاية الفقيه، وأنها لو ظهرت هذه الجيوش لظهر المهدي لأنها الوظيفة التي تحتمها نظرية الغيبة.

وبحث الشيخ مرتضى الأنصاري نظرية أستاذه النراقي وانتقدها بشدة في كتابه «المكاسب» وقال عن الروايات المستدل بها على ولاية الفقيه على فرض صحتها : لكن الإنصاف بعد ملاحظة سياقها أو صدرها أو ذيلها يقتضي الجزم بأنها في مقام بيان وظيفتهم من حيث الأحكام الشرعية، لا كونهم كالنبي والأئمة صلوات الله عليهم في كونهم أولى بالناس في أموالهم، فلو طلب الفقيه الزكاة والخمس من المكلف فلا

دليل على وجوب الدفع إليه شرعاً، وانتهى إلى القول "فإقامة الدليل على وجوب إطاعة الفقيه كالإمام إلا ما خرج بالدليل دون خرط القتاد".

ولكنه رغم ذلك أجاز النيابة الجزئية للفقهاء، أي المرجعية الدينية التي يمكن الرجوع إليها في الأمور التي لم تحمل على شخص معين، وبعد الأنصاري توقف البحث الخاص في ولاية الفقيه كنظرية معتبرة بالمعنى الذي أطلقه النراقي إلى أن جاء الإمام الخميني وأعاد إحياءها.

تطور نظرية ولاية الفقيه في العصر الحديث

عندما طرح المرجع الشيعي محمد حسن الشيزارى عام 1891 فكره حول تحريم استعمال التنباك والتبغ ثارت البلاد في وجه الشاه ناصر الدين وأجبرته على إلغاء اتفاقية التنباك الموقعة مع شركة بريطانية.

وورث السيد محمد الطبطبائي هذه الروح الإصلاحية من أستاذه الشيرازي وشارك في حركة اعتراضيه ضد مظالم الشاه مظفر الدين في سنة 1905، وبعث إليه برسالة فيها: يا صاحب الجلالة، إن كل هذه المفاسد تحل عن طريق مجلس للعدالة أي جمعية مؤلفة من كافة أبناء الشعب .... وأقر الدستور سنة 1906، وأسس مجلس الشورى، وأقر المذهب الاثنى عشري مذهباً رسمياً، ونصت المادة الثانية على عدم جواز أن تتعارض قوانين مجلس الشورى مع قواعد الإسلام، وأسندت هذه المهمة للعلماء.

ولم يعمر المجلس إلا ثلاثة أشهر وسقط بموت الشاه مظفر الدين ومجيء ابنه محمد علي لسنتين (1909) – (1907)، واستعان بالعلماء لتعطيل الدستور منهم الشيخ فصل الله النوري الذي وقف في وجه دعاة المشروطة بقوة وعنف معللا ذلك بقوله: إن هؤلاء باستخدامهم كلمات مغرية من قبيل العدالة والشورى والحرية يريدون خداع المسلمين وجذبهم إلى الإلحاد.. وغيرها من الأعمال المنافية للإسلام حتى يترك الناس الشريعة والقرآن.

وبرزت حركة مضادة لحركة الدستور داخل الوسط الحوزوي بقيادة السيد محمد كاظم اليزدي وهو أحد الأنصار البارزين للولاية الجزئية للفقيه والمقتصرة على الأمور الحسبية والمعارض بشدة لولاية الفقيه المطلقة، ولانخراط العلماء في الشأن السياسي.

وانقسم العلماء إلى فريقين كما اصطلح عليهما: أنصار المشروطة (الدستور) وأنصار المستبدة، وتبادلوا الفتاوى والردود وهنا برزت رسالة العلامة الميرزا محمد حسين الغروي النائيني والذي يعتبر مفكر الحركة المشروطية الأبرز وقد نشر آراءه في كتاب «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» سنة 1327 هـ في النجف.

وقد أيده مباشرة بعض المراجع الكبار في ذلك الوقت. وقد أقام النائيني في الكتاب الدليل على شرعية الحكومة المشروطة ورد إشكاليات المعارضين لها معتمداً في ذلك تقسيماً مبتكراً يراعي فيه الشرعية السياسية بمعناها المدني ويقر بغصبية السلطة باعتبار أنها حق ديني للإمام المعصوم.

فالنائيني يرى أن الحاكم الظالم الذي لا يقيد بدستور أو مجلس شعبي (برلمان) يغتصب أمرين معاً في آن واحد، حق الإمام الغائب وحرية الناس، كما الحاكم الذي يفيد بدستور ومجلس الشعب فهو يغتصب حق الإمام وحده بينما يؤمن حريات الناس، ولهذا يجب أن يظل حكمه هو المفضل طالما أن غيبة الإمام مستمرة، فهدف النائيني أن يحقق مصالح الناس ويخفف من عصبية السلطة، لأن الحاكم المستبد مغتصب لحق الله والإنسان بخلاف الحكم الدستوري الذي هو عبارة عن ظلم واغتصاب مقام الإمام المقدس فقط، فالناتيني يتحدث عن العدل الممكن في غياب المعصوم لأنه لا يؤمن بولاية الفقيه المطلقة كما في كتابه «منية الطالب» ولأن الحاكم العادل المثالي لا يوجد ولهذا لا بد من تحديد صلاحياته بالدستور والقوانين

ولكنه رغم ذلك لم يبتعد عن ولاية الفقهاء بالمطلق، بخاصة في الأمور الحسبية، لأنها القدر المتيقن بنيابة الفقهاء فيها.

ووجد في الشورى تأكيداً لدورهم ويقول: إن مجلس الشورى على نظرية أهل السنة يعني أهل الحل والعقد وعلى نظرية الشيعة حيث يعتبر الفقهاء نوابا للإمام المهدي الغالب يخضع لإشراف الفقهاء أو إشراف المأذونين من قبلهم، وبهذا ينقل الناتيني الخطاب الشيعي من البحث حول المشروعية الدينية بإقراره بغصبية السلطة بالمنظور الديني ليتجاوزها إلى البحث في المشروعية السياسية المدنية المستمدة من الناس

الإمام الخميني وولاية الفقيه

خلال الستينات وأثناء إقامة الخميني في «النجف الأشرف» بالعراق ألقى الخميني عددا عديدا من الدروس الدينية وقد جمعت هذه الدروس في كتاب يحمل عنوان «ولاية الفقيه» أو «الحكومة الإسلامية».

ولكن هذا الكتاب ما كاد يصدر في مطلع السبعينات حتى أثار ذعرا شديدا في أوساط المعارضين لنظام الشاه ولاسيما الشباب المثقفين منهم، وذلك لأن سلطات الشاه بدت أمام السلطات التي يريدها الخميني للفقيه، سلطات محدودة بشروط وقيود، بينما أن سلطة الفقيه سلطة لا يحدها حد ولا يقيدها شرط، وبدا نظام الشاه امام نظام الفقيه نظاما مقيدا ومسئولا بينما تبدى نظام الفقيه طليقا من كل قيد ومتحررا من كل مسؤولية، الأمر الذي أرغم أعوان الخميني ومريديه على المسارعة إلى الإشاعة بين الناس أن معظم ما ورد في كتاب ولاية الفقيه مدسوس على الخميني وان السافاك «الاستخبارات الإيرانية » هي التي قامت بدسه وتلفيقه ونسبه إلى الخميني بغية إشاعة البلبلة بين المعارضين وتشتيت صفوفهم.

والحق أن الخميني في كتابه «ولاية الفقيه» كان صريحا للغاية في اعتباره الأمة كما مهملا، وذلك لأن الفقيه كما يقول الخميني لا يمارس سلطته بتكليف من الأمة، بل بتكليف من الإمام الغائب الإمام الثاني عشر لذلك فلا يحق للأمة أن تسأله أو تسائله، وأن تناقشه أو تحاسبه عن أي عمل يأتيه أو يتخذه.

ومن الطريف أن الخميني لا يزعم لفقهه المعصومية، التي تقول بها البابوية، بل يزعم له أيضا الحق الإلهي في حكم البشر فالفقيه في نظر الخميني معصوم من الخطأ، وسلطة الفقيه سلطة إلهيه يمارسها على الأمة بتكليف من الله من خلال الإمام الثاني عشر.

وهكذا نرى أن نظرية الخميني في الحكم وفلسفته في سياسة الناس، متناقضتان شكلا وجوهرا والإسلام في مفهومه للحكم، حيث أن الإسلام يقرر أن الأمة لا تجمع على الخطأ، الأمر الذي يعنى بصراحة أن الحاكم مسؤول المسؤولية المباشرة أمام الأمة عن كل عمل يأتيه.

كما وأنه يقرر بصراحة أيضا عدم معصومية الحاكم عن الخطأ كما وأن كل إنسان خاضع للرقابة والنقد والتقويم وحتى العزل أو الخلع بدليل ما ورد على لسان الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حين توليه الخلافة حيث قال:

«أيها الناس إنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنت فأطيعوني وإن أسأت فقوموني.. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»

لقد ذهب الإمام الخميني إلى أن الأدلة التي تدل على وجوب الإمامة هي نفس الأدلة التي تدل على وجوب ولاية الفقيه، وأنها من الأمور الاعتبارية العقلانية التي توجد بالجمل والتبني والوضع الإنساني أيضاً، وذلك كجعل القيم الصغار، وأن القيم على الأمة لا يختلف عن القيم على الصغار من ناحية الوظيفة وأن الفقهاء هم ورثة الأنبياء وأمناء الرسل، ولم يرثوا العلم والحديث فقط كما هو ظاهر الروايات، فالولاية قابلة للانتقال والتوريث أيضا.

والخروج من مشكلة تزاحم الفقهاء باعتبار أنهم كلهم ورثة وليس واحداً بعينه، يقول: إن الولاية بلا قيد ثابتة للفقيه، ولكن احتملنا سبق أحد من الفقهاء موجب السقوط ولاية غيره حال تصديه، استصحب ولاية الثابتة قبل تصدي الأمر.. فليس الأحد من الفقهاء الدخول فيما دخل فيه فقيه آخر لذلك وينطبق هذا على الإمام الخميني حيث حاز الولاية بالتصدي، مع استصحاب الأصل الذي يجتمع فيه مع غيره من الفقهاء أنهم ورثة الأنبياء بالفقاهة، ولكنها تستمر فيمن بعده بالانتخاب من قبل مجلس الخبراء، كما هو الحاصل مع الإمام خامنئي.

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الخميني بالذات لم يكن معصوما عن الخطأ، ففي عام ١٩٤٣م حينما أصدر كتابه المعروف بعنوان «كشف الأسرار» قال إنه لا يجوز البتة للمجتهدين إسقاط الحكام حتى ولو كانوا ظلمة فاسدين، ولكنه في عام ١٩٦٣ م تراجع عن قوله الآنف الذكر، إذ قال أن للفقيه كامل الحق أن يحكم ومطلق الصلاحية في تدبير شؤون الناس وهو مطالب بإسقاط كل نظام فاسد وحكومة ظالمة.

ينص الدستور الإيراني على أن الفقيه هو القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة الإيرانية كما يحق للفقيه أيضا، بموجب الدستور الإيراني أن يعزل رئيس الجمهورية وان يحل مجلس الشورى «النواب»، وان يقيل الحكومة دون الرجوع إلى الأمة، فلقد عزل الخميني أبا الحسن بني صدر من منصبه كأول رئيس للجمهورية على الرغم من أن الشعوب الإيرانية هي التي انتخبت بني صدر لهذا المنصب. بأكثرية تقارب خمسة وسبعين بالمائة من أصوات الناخبين.

والحق أن المتأمل في ديباجة الدستور الإيراني وفي مواده ليدرك فورا أن هذا الدستور، قد جرى اشتراعه، انطلاقا من الرغبة في تحييد –أي إبطال– مفعول كل سلطة ماعدا سلطة الفقيه فتأليف الوزارة يتم بالاتفاق بين رئيس الجمهورية وبين مجلس الشورى «النواب» على أشخاص الوزراء ورئيسهم، الأمر الذي يمكن الفقيه من المناورة والمداورة والحرية في اختيار الوزارة رئيسا وأعضاء، وحتى الذهاب إلى ابعد من ذلك كله، إلى حل مجلس الشورى أو عزل رئيس الجمهورية.

ولاشك اننا جميعا لا نزال نذكر الخلاف الشديد الذي نشب بين بني صدر وبين مجلس الشورى حول تسمية وزير الخارجية، وكيف أن هذا المنصب بقى شاغرا إلى ان تم عزل بني صدر وانتخاب رئيس جمهورية جديد، ولا خلاف أن قاعدة التحييد المستند إليها الدستور الإيراني، تجعل من هذا الدستور طرفة الطرائف، وذلك لأن المسئول دستوريا لا يحكم والحاكم الفعلي غير مسئول، إذ أن الفقيه كما سبق لنا القول، غير ملزم دستوريا بتقديم إي حساب عن إي عمل أمام أي مرجع نظرا لأنه يستمد سلطانه من الإمام الغائب لا من الأمة، أما إذا قال أحدهم بأن هيئة المجتهدين تراقب أعمال الفقيه وترصد أفعاله فإننا نقول أن هذه الهيئة لا وجود لها حاليا، كما أن اختيارها يستند إلى تجاريد ضبابية تفتح على مصارعها أمام الفقيه لاختيار أعضاء تلك الهيئة حسبما يريد ويشتهى.

وعند البحث في صلاحيات الولي الفقيه كما هي في الدستور الإيراني عبر تتبع المواد المنطقة به وبالولاية، فإننا لن نخرج بنتيجة حاسمة كتلك التي تعطينا إياها الرسالة التي بعث بها الإمام الخميني في ٣١ ديسمبر / كانون الأول 1988 م إلى الإمام حاملي

الذي كان رئيساً للجمهورية آنذاك، وفيها صورة الولاية الفقيه المطلقة وإطارها المرجعي كما يراه الإمام الخميني، وبعد وفاته انعقدت الدورة الخامسة لمجلس الشورى وأدخلت ولاية الفقيه المطلقة في الدستور وفاء للإمام الخميني في سياق التأكيد على تجسيد الدولة فكر مفجر الثورة.

وذلك أنه بعد عشرة أعوام من تجربة الحكم في الجمهورية الإسلامية في إيران تفجرت أزمة تشريعية سياسية نظرية بسبب إجازة الإمام الخميني لوزير العمل تطبيق بعض القوانين التي لم يصوت عليها مجلس المحافظة على الدستور.

وأثارت امتعاض رئيس الجمهورية خامنئي، فبعث الخميني إليه برسالة يقول فيها: كان يبدو من حديثكم في صلاة الجمعة ويظهر أنكم لا تؤمنون أن الحكومة التي تعني الولاية المخولة من قبل الله إلى النبي الأكرم (ص) مقدمة على جميع الأحكام الفرعية.. ولو كانت صلاحيات الحكومة (أي ولاية الفقيه) محصورة في إطار الأحكام الفرعية الإلهية لوجب أن تلغى أطروحة الحكومة الإلهية والولاية المطلقة المفوضة إلى نبي الإسلام (ص) وأن تصبح بلا معنى... ولا بد أن أوضح أن الحكومة شعبة من ولاية رسول الله (ص) المطلقة، وواحدة من الأحكام الأولية للإسلام، ومقدمة على جميع الأحكام الفرعية حتى الصلاة والصوم والحج. وتستطيع الحكومة ولاية الفقيه أن تلغي من طرف واحد الاتفاقات الشرعية التي تعقدها مع الشعب إذا رأتها مخالفة لمصالح البلد والإسلام.. إن الحكومة تستطيع أن تمنع مؤقتا في ظروف التناقض مع مصالح البلد الإسلامي إذا رأت ذلك، أن تمنع من الحج الذي يعتبر من الفرائض المهمة الإلهية، وما قيل حتى الآن وما قد يقال ناشئ من عدم معرفة الولاية المطلقة الإلهية.

وقد عرض الشيخ محسن كدوير في كتابه «نظريات الحكم في الفقه الشيعي» النقاط الأساسية الواردة في رسالة الإمام الخميني في سياق توضيحه لنقطتين تعطيان للولاية المطلقة معناها، وذلك تحت عنوان "عدم الالتزام أي من الولي الفقيه بالأحكام الإلهية الفرعية الأولية والثانوية، ثم ذكر النقطة الثانية "عدم الالتزام بالقوانين البشرية ومن جملتها الدستور."

وقال: تتحدد الولاية القائمة على أساس الشرعية الإلهية المباشرة من الشارع المقدس، وليس من الناس المولى عليهم وواقع الحال أن الولي الفقيه المطلق يستطيع أن يلغي القانون عندما يرى أن ذلك من مصلحة الإسلام والمسلمين وذلك باعتبار أن القانون الواقعي هو قانون الإسلام الذي ينقضه الفقيه الولي. وبناء عليه فأوامر الولي الفقيه تعتبر في حكم القانون، وهي مقدمة عليه في حالات التعارض معه.

ومن ثم يمكن التأكيد أن حدود وصلاحية الولي الفقيه ما زالت من أكثر النقاط جدلاً بين الفقهاء الشيعة أنفسهم، وبين السياسيين الإيرانيين جميعاً، فالأدلة النقلية والعقلية إذا استطاعت أن تقنع أنصار الولاية بوجوبها، فإن صلاحيات الولي وحدود الولاية بقيت أمراً عصياً على الاتفاق وأثارت جدلاً في المذهب الشيعي عامة وفي البيت الداخلي الإيراني خاصة وأخرجت منه صيغة المحافظين والإصلاحيين.

ولاية الفقيه والانتخابات الإيرانية

مما سبق يمكن القول بأن ولاية الفقيه مصطلح ديني موجود في الفقه الشيعي حيث يعتبرها فقهاء هذه الفرقة ويعرفونها بأنها ولاية وحاكمية الفقيه الجامع للشرائط في عصر غيبة الإمام الحجة، حيث ينوب الولي الفقيه عن الإمام المنتظر في قيادة الأمة وإقامة حكم الله على الأرض.

وهذه النظرية التي تجمع الولاية الدينية والدنيوية هي التي تحكم إيران منذ الثورة التي قادها الخميني في العام 1979، وحتى الآن، حيث خلفه في منصب الولاية على خامنئي، والذي ما زال في المنصب حتى الآن.

والمادتان في الدستور الإيراني ٥٧ و110 تعطيان لولي الفقيه صلاحيات مطلقة في تسيير أمور الدولة داخليا وخارجيا. أي أن نظرية ولاية الفقيه كإطار نظري ينطبق تماما على الواقع الإيراني ويجعل من مرشد الثورة على خامنئي ممسكا بزمام الأمور كلها ومحركا المفاصل الدولة الإيرانية صغيرها وكبيرها.

وثمة متغيرات في المجتمع الإيراني، واختلافات في هرم السلطة أظهرتها وكشفت عنها الانتخابات الرئاسية الأخيرة، تجعل من استقرار هذه النظرية واستمرارها موضع شك لدي العديد من المراقبين والمتابعين للشأن الإيراني.

ولقد كشف الدبلوماسي الإيراني المنشق عادل الأسدي خيوط "المؤامرة أو الانقلاب" على هذه النظرية الذي قال إن المعلومات التي بحوزته والتي وصلته عبر تواصله المستمر مع جهات إيرانية نافذة في الداخل، تفيد بأن رجال الدين في قم، بزعامة آية الله صانعي وآية الله منتظري، اتخذوا قرارا بالانتفاض على ولاية الفقيه ممثلة في علي خامنئي. وأوضح أن ما جرى في إيران منذ نتائج الانتخابات التي فاز بها الرئيس أحمدي نجاد بفترة رئاسة ثانية كان مخططا له ولم يكن معركة من أجل الرئاسة وإنما حركة شعبية بدعم رجال قم لقلب نظام ولاية الفقيه رأسا على عقب.

وأكد أن لديه معلومات تشير إلى أن الأزمة الإيرانية سوف تستمر، وكلما تدخل المرشد الأعلى على خامنئي في الأمور ستزداد الحركة ضد ولاية الفقيه نافيا بشدة وجود تدخلات أجنبية في الحركات الاحتجاجية التي حصلت ضد الحكومة عقب الانتخابات.

كما لفت إلى أمر اعتبره مهما في الوضع الإيراني الداخلي، وهو أن أغلبية الشعب الإيراني ليسوا راضين عن النظام الحالي ولهم دور كبير بما يجري الآن في الداخل.

وهذا التخطيط وتلك الخيوط التي ينسجها رجال قم تقوم على تخطيط من الرئيس السابق على أكبر هاشمي رافسنجاني الذي بات يطرح نفسه بديلا ويغتصب بصورة سافرة مهام رجل الدين صاحب الكلمة العليا في الدولة على خامنئي.

ورغم صعوبة هذه المحاولة إلا أن المتتبع الخطوات رافسنجاني يجد أنه يسير على هذا الطريق الشائك منتهزا كل فرصة لتحقيق ما يراه مكاسب حقيقة على حساب خامنئي الذي ربما يجد للمرة الأولى جبهة معارضة قوية، وليس مجرد شخصيات معارضة، وقوى مناوئة له شخصيا، لا ترغب في إزاحته فقط، بل ترغب في تقويض أسس النظرية ذاتها.

فقد بدا رافسنجاني في التأسيس لشرعية خاصة به من خلال طرح نفسه والتعريف بها بصورة مغايرة لرجل الدين والسياسة التقليدي، فتراه وقد استشهد في خطبه الأخيرة بتاريخه الطويل، إضافة لحضوره السياسي منذ أكثر من ٦٠ عاما. وشهوده الثورة لحظة بلحظة منذ البدايات الأولى للصراع، وأن معلمه المباشر هو الخميني الأب الروحي لثورة عام .1979 ثم بدا من خلال حديثه وخطبه في سحب البساط من تحت قدمي مرشد

الثورة، ويستلب دوره المؤسسي، بل ويوجه إليه اللكمات، حيث طالب الحكومة بإطلاق سراح المعتقلين، وإرخاء قبضتها على وسائل الإعلام، وإزالة الشكوك التي تعتمل في صدور الشعب الإيراني بشأن نتائج الانتخابات، مضيفا أن إرادة الشعب يجب أن تتحقق، وفي هذه الحالة الانتخابات الرئاسية، فإن ثقة الشعب قد اهتزت.

وهذا الخطاب كان من المفترض أن يلقيه خامنئي ذاته، وهو ما يمليه عليه دوره كمرشد روحي، وكان عليه أن يترفع فوق الصراعات، ولا ينحاز إلى أحد الفريقين لكن رافسنجاني خطف هذا الدور متجاوزا سلطة المرشد، الذي وقف موقفا لا يتناسب مع دوره مطلقا، حيث قام بإلقاء خطبته منذ أربعة أسابيع، أعلن خلالها تقبله بسرور انتصار أحمدي نجاد، وقال إن الانتخابات قد أثبتت ثقة الشعب في النظام، وتوعد بالمزيد من القمع إذا استمرت المظاهرات.

بل وتحدى رافسنجاني سلطة المرشد الأعلى للثورة، وأشار إلى اتخاذه قرارات من دون الحصول على موافقة جميع الأطراف في مجلس تشخيص النظام، في نادرة ربما تكون غير مسبوقة في التاريخ السياسي الإيراني الذي ينظر للولي الفقيه على أنه شخص معصوم.

وفي إحدى خطب الجمعة وضع رافسنجاني للمرة الثانية، وبحضور قادة المعارضة خاتمي وكروبي وموسوي نفسه فوق التناقضات بين الفريقين المتنازعين، فريق "خامنئي – نجاد" وفريق "موسوي–خاتمي"، وطرح نفسه كحكم بين الفريقين، حيث دعا إلى حل المشاكل الانتخابية بالطرق القانونية وإطلاق المعتقلين والحريات وهو ما يلزم الطرف السلطوي خامنئي ونجاد، ثم طالب المعارضة بنبذ الفرقة والانقسامات وهذا ما يلزم بطبيعة الحال فريق (موسوي–وخاتمي).

ثم أعلن را فسنجاني رسميا، بوصفه رئيس مجلسي تشخيص مصلحة النظام والخبراء، أن الأمة الإيرانية دخلت مرحلة أزمة خطيرة، ملمحا وبقوة إلى أن مرشد الثورة بات جزءا من الأزمة، في حين أن ولاية الفقيه تفرض أن يكون الولي جزءا من الحل لأنه معصوم من الخطأ.

أما الشارع الإيراني فإنه مفترض أن يرى في الولي الفقيه نائبا عن الإمام الغائب، ومن ثم فهو في منزلة ذات قدسية تجعل من كلماته حدا فاصلا بين الصواب والخطأ، بما لا يسمح لأحد بالخروج عن هذا الرأي أو معارضته.

ولكن الشارع الإيراني، حقيقة، لم يعد يرى في خامنئي خاصة بعد تحيزه السافر للرئيس نجاد ووقوفه ضد رغبة الشعب في التغيير، واختيار شخصيات محسوبة على التيار الإصلاحي هذه النظرة المقدسة والشواهد على هذا التغيير كثيرة تلحظها عين المراقب، فلم تفلح محاولات المرشد على خامنئي في وقف المظاهرات المعارضة لنجاد، ولا الحد من الاحتجاجات الدامية بين المعارضين وقوى الأمن المعروفة بالباسيج.

كما أن محاولاته ودعمه المطلق للرئيس أحمدي نجاد لم تنه الصراع على الرئاسة، فما زال مير حسن موسوي وكروبي يصران على أن الانتخابات شابتها عميات تزوير فاضحة، ويحرضان الشارع على التمرد على نجاد، ومن ثم قرار المرشد الذي يدعمه.

مجمل القول أن حديث الشارع الإيراني عن تزوير نتائج الانتخابات بإشراف على خامنئي المرشد الأعلى للثورة والمفترض أنه عند الشيعة معصوم يتمتع بالعصمة كونه ممثلاً للإمام الغائب الذي دخل السرداب ولم يخرج منه حتى الآن، وإصرار هذا الشارع على المعارضة تدل على سقوط رمز المثالية والعصمة، وتبشر بقرب سقوط ولاية الفقيه.

إيـــران
التقسيمات الإدارية
المحافظات خلال عام ١٩٨٢
الحدود الدولية
حدود المحافظة
مركز المحافظة
أذربيجان
بحر قزوين
تركمنستان
تبريز
أذربيجان الشرقي
أذربيجان الغربي
أورمية
رشت
جيلان
زنجان
ساري
مازندران
مشهد
كردستان
سنندج
همدان
طهران
سمنان
المركزية
آراك
خراسان
أفغانستان
باختران
إيلام
خرم آباد
لورستان
أصفهان
يزد
بختياري
الأهواز
عربستان
كرمان
زاهدان
شيراز
فارس
الكويت
بوشهر
سيستان وبلوجستان
هرمزكان
بندر عباس
المملكة العربية السعودية
الخليج العربي
خليج عُمان
باكستان
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
كم
أطلس الجغرافيا والتاريخ

شخصيات إيرانية

الشاة محمد رضا بهلوي
(1919–1980)

** ولد محمد شاه في طهران، وهو الابن الأكبر لرضا خان الذي حكم إيران في الفترة ما بين (1925–1941)

** تلقى تعليمه في المدرسة الداخلية السويسرية لا روسي، ثم أكمل تعليمه في إيران في الكلية الحربية عام 1935

** نودي بمحمد شاه وريثا للعرش عام 1926

** خلف محمد رضا أباه شاها لإيران بعد أن أطاحت قوى التحالف برضا بهلوي خوفاً من جنوحه ناحية أدولف هتلر في الحرب العالمية الثانية وتزويده بالنفط.

فدبرت دول التحالف خطة عسكرية للإطاحة برضا بهلوي تمثلت في الغزو الإنجليزي السوفيتي لإيران وذلك لرفضه تشغيل خطوط السكك الحديدية لخدمة قوات الحلفاء.

ومن خلالها تم عزل الملك الأب وتنصيب ولده محمد رضا بهلوي بدلاً منه ومن ثم نفي رضا شاه إلى جنوب أفريقيا.

** ظل محمد رضا بهلوي شاه إيران في الفترة من (1941–1979)

** عانت إيران من اضطرابات سياسية بعد الحرب العالمية الثانية، أدت برئيس الوزراء الإيراني محمد مصدّق إلى إرغام الشاه محمد رضا بهلوي على مغادرة إيران، حيث احتدم الصراع بين الشاه ومصدق بداية شهر أغسطس1953 ، فتدهور الوضع السياسي تدهورا لم يعرف من قبل، فالتجأ الشاه إلى بغداد يوم ١٦ آب/أغسطس 1953 بصحبته زوجته الملكة ثريا ومرافقه الخاص بطائرته الخاصة، واستقبل بحفاوة بالرغم من استنكار حكومة مصدق، وبعد أداء مراسيم الزيارة في الكاظمية وكربلاء والنجف غادر متوجها إلى إيطاليا وقبل أن يغادر وقع قرارين: الأول يعزل مصدق والثاني يعين الجنرال فضل الله زاهدي محله.

لكنه عاد إلى إيران بانقلاب مضاد لانقلاب رئيس الوزراء بمساعدة المخابرات الأمريكية والبريطانية وأقال مصدّق من منصبه واستعاد عرش إيران وكان ذلك عام 1953

** عمل الشاه على تغييرات سياسية من أهمها إلغاء الأحزاب السياسية مع الإبقاء على الحزب الحاكم، وأعاد إلى الحياة مهمة الشرطة السرية «سافاك» التي اتهمت بمسؤوليتها عن أعمال منافية لحقوق الإنسان ضد الشعب الإيراني.

كما أنه قد عمل على تقطيع الأراضي الزراعية الكبيرة واستحداث أراضي صغيرة كي يستفيد ٤ ملايين فلاح إيراني من تلك الأراضي، والسماح للمرأة بالتصويت.

أثمرت الإصلاحات الزراعية بشكل إيجابي على الاقتصاد الإيراني وكانت فترة ستينات وسبعينيات القرن العشرين فترة انتعاش اقتصادي إيراني لم يسبق له مثيل.

** بالرغم من الانتعاش الاقتصادي، إلا أن التغييرات السياسية التي مست الأحزاب الإيرانية وتفعيل دور السافاك ولدت للشاه أعداء كثيرين.

** تزوج محمد رضا بهلوي ثلاث مرات:

أولى زوجات الشاه محمد رضا بهلوي هي الأميرة فوزية فاروق ابنة ملك مصر فؤاد الأول وشقيقة الملك فاروق الأول.

وقد تزوج بها بالقاهرة في ١٦ مارس 1939 حيث تم الزفاف في القاهرة. ثم بعد سفرها إلى إيران تم الاحتفال بالزفاف مرة أخرى في طهران، وبعد عامين من زواجها تقلد زوجها محمد رضا مقاليد الحكم بعد الغزو الروسي البريطاني لإيران والذي أجبر أباه على التنازل عن العرش ومغادرة إيران منفيا إلى جنوب أفريقيا.

وأنجبا طفلة واحدة وهي الأميرة شاهيناز بهلوي. (ولدت في ٢٧ أكتوبر ١٩٤٠)

وانفصل عن الأميرة فوزية في1949 حيث وقعت أزمة بين مصر وإيران بسبب هذا الطلاق بعد إصرار شقيقها الملك فاروق على الطلاق ورفضه عودتها إلى إيران.

وتزوج بعدها ثريا اسفنديارى عام 1951 وتم الطلاق عام 1958، ثم تزوج فرح ديبا وهي الزيجة الثالثة والأخيرة عام 1959

** وكان يعتبر من بين أغنى الشخصيات في العالم، حكم البلاد بالحديد والنار بحيث كانت له السلطة المطلقة على كل أجهزة الدولة، يعين من الوزراء من يشاء ويعزل من يشاء، وحافظ على عرشه بالقمع والاستبداد.

وعلى شاكلة اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة كان بهلوي منبهرا بالحضارة الغربية نظرا لإقامته مدة طويلة بسويسرا في فترة الدراسة، وأعرب في أكثر من مرة أنه يرغب في جعل إيران دولة حديثة على غرار الدول الأوروبية، بيد أن الواقع كان يكذب كلامه، فرغم أن إيران دولة غنية بالنفط فقد كان نصف سكانها يعيشون تحت خط الفقر، كما كانت الخدمات الصحية فيها متدنية جدا، ونسبة الأمية مرتفعة لكن بهلوي لم يكن منشغلا بذلك، فقد أراد أن يظهر للعالم صورة براقة عن إيران رغم أنها لا تمت لواقع البلاد بصلة.

** «احتفالات برسيبوليس».. الحفل الذي أطاح بصاحبه!

إذا تحدثنا عن البذخ لابد أن نتحدث عن إيران الشاه وإذا تحدثنا عن إيران الشاه لابد أن نتحدث عن برسيبوليس! [تخت جمشيد أو برسيبوليس إصطخر حالياً، هي عاصمة الإمبراطورية الأخمينية نظرًا لأن الفرس في العصور الوسطى نسبوا الموقع إلى جمشيد، وهو ملك من الأساطير الإيرانية، وتعني «المتلالئ» فقد تمت الإشارة إليه باسم تخت جمشيد وتعني حرفيًا «عرش جمشيد».. تاريخ موغل في الصخر وصُنفت ضمن أهم المناطق الأثرية العالمية]

ففي أكتوبر 1971 كانت ذكرى مرور 2500 عام على إنشاء مملكة فارس والاحتفال الاسطوري للشاه.

فلم يكتف شاه إيران بملك الملوك وشمس الآريين وتلك الألقاب التي خلعها على نفسه في احتفال اتسمت مراسيمه بالبذخ المطلق، بل كان لابد للتاج البهلويّ أن يزداد تألقا وكأن صاحبه يحاول ترميم صدعٍ ما قد يخل من ثبات أركانه!

"برسيبوليس" كانت شرارة الفكرة التي طرأت في ذهن الشاه محمد رضا بهلويّ. تلك المدينة العظيمة التي بناها داريوس (دارا) الأول عام 530ق.م وكانت رمز الدولة الإكمينية أعظم إمبراطورية فارسية يفخر بحضارتها العريقة كل إيراني.

قام (الإسكندر المقدوني) بإحراقها سنة 331 ق.م عندما وصلت أساطيله المنطقة آخذاً بثأر العاصمة اليونانية التي احرقها الفرس فيما قبل.

استغرقت الشهبانو فرح زوجة الشاه شهراً كاملاً لشرح أسباب ومغزى هذا الاحتفال الأسطوري للصحفيين لكن الإعداد لهذا الخيال وجعله واقعاً على الأرض استغرق أعوام من تاريخ الإمبراطورية البهلوية.. كان التركيز فيها على الجانب التاريخي ومن أجل ذلك طلبت إيران عون فرنسا فيما يخص التفاصيل العلمية بينما اهتمت إيران بفلسفة الحدث نفسه.

أراد الشاه تنظيم الحفل وسط أنقاض مدينة برسيبوليس التاريخية المذهلة وسط الصحراء، وكانت تشكل عاصمة الإمبراطورية الفارسية لكنها تحولت فيما بعد إلى أنقاض لا تصلح حتى للسكن، وتبعد ساعة بالسيارة عن مدينة شيراز التي تقع في جنوب إيران.

ولكن، أين سيقيم الجميع؟

كان الحل هو إنشاء مدينة من الخيام في الصحراء، ولأن الشاه كان معجبا غاية الإعجاب بالثقافة الأوروبية فقد أسند إنشاء الخيام إلى شركة فرنسية رائدة في هذا المجال هي «منزل جونسون» بباريس، فتم نصب ٥٠ خيمة كبيرة مكيفة وعلى أفخم طراز، وجهزت بأنفس الأثاث.

وبدت الخيام وكأنها شقق مؤلفة من غرف نوم وأخرى للجلوس وحمامات وعدة غرف ملحقة خُصصت للحاشية والخدم مع تجهيز 250 سيارة حمراء من نوع مرسيدس– بنز لتنقلات كبار الضيوف والشخصيات العالمية.

ولأن هذه الخيام نُصبت في قلب الصحراء كان لابد من القيام بحملات تطهير للقضاء على الأفاعي والزواحف السامة حفاظاً عل سلامة الوفود فقد نشط العاملون في ذلك برش كميات مهولة بالمبيدات الحشرية حتى إنهم ملئوا مئات الجِرار بأغرب أنواع المخلوقات الصحراوية!

بيد أن وجود خيم الفخمة وسط صحراء مقفرة لم يكن يروق للشاه لذلك أمر بتحويل المساحات التي تحيط بالموقع إلى حدائق غناء، من أجل ذلك تم

جلب 15000 شجرة من إيران ومن خارجها خاصة أشجار الصنوبر وخصصت كميات كبيرة من المياه لريها، لقد كان أمرا جنونيا حقا أن تهدر أنهار من المياه من أجل إحياء مدينة سوف تعيش لمدة ثلاثة أيام فقط وفي دولة تعاني نقصا في المياه.

نُصبت تلك الخيام حول نافورة مركزية وسط حدائق خضراء، بالإضافة إلى وجود ملعب للجولف.

قيل أن فاتورة إنفاق شاه إيران وصلت ما يعادل 1.5 مليار جنيه إسترليني على المراسم!

العالم كله متأهب فلقد أقفل المطعم الباريسي الشهير (مكسيم) المُتعهد بإعداد طعام الحفل أبوابة خمسةَ عشر يوماً لتحضير المأدبة التي جنّد لها عدد من أكفأ كوادر الطهاة.

لقد كلف الأمر جلب كميات هائلة من الطعام قدرت كالتالي 2700 كيلوغرام من لحم البقر، 1280 كيلوغرام من لحم الطير، ربع مليون بيضة ومواد غذائية أخرى، ومن أجل تسهيل نقل هذه الحمولة من الطعام للموقع فقد تم بناء مطار في مدينة شيراز التي تبعد بـ ٥٠ كيلومتر فقط، إضافة إلى طريق سريع.

تم نقل قالب من الثلج بحجم السيارة يومياً عبر الصحراء بطائرة هليكوبتر فقط لتبريد النبيذ الأبيض، واستيراد ٥٠ ألف طائر لتغرد بصوت لطيف، والذين مات معظمهم خلال أيام بسبب نقص الماء.

أما التصوير الرسمي للحفل، الذي من أجله تم التعاقد مع طاقم إخراج من هوليوود، والتعاقد مع أورسون ويلز ليروي بصوته وقائع الاحتفال بالفيديو.

ومن أجل الدعاية لهذا الحفل الأسطوري الإيراني أنفق الشاه أموالا كثيرة من أجل الترويج لهذا الحفل العظيم حتى أنه ظهر في إعلانات قنوات تلفزيونية عالمية، وفي الصحف اليومية لعدد من الدول، كما نشرت كتب كثيرة عن إيران، ولقد نجح الأمر لحد بعيد بحيث أن الملايين حول العالم كانوا يتابعون تقدم العمل بشكل يومي، وأصبح الحفل مادة دسمة للصحافيين والكتاب.

رافق الحفل كذلك استعدادا أمنيا كبيرا لم تشهده إيران طوال تاريخها لدرجة أنه لم يكن يسمح لشخص بمغادرة أو دخول البلاد، كما كانت الشرطة تعتقل أي شخص مشتبه فيه، وفي الموقع الذي سيشهد الحفل كانت هناك نقاط تفتيش كثيرة، وكان الخدم يفتشون بشكل دقيق للغاية، وأكثر ما كان يخافه الشاه هو أن يقوم أحد الخدم بدس السم في الأكل مثلا، وحتى لا يحدث شيء من هذا القبيل فقد استدعى الشاه طاقم خدم من سويسرا.

ولترسيخ الحدث في جبهة التاريخ تم استصدار عملة نقدية رسمية تحمل شعار برسيبولس كُل ذلك بينما كانت الحالة الاقتصادية للإيرانيين سيئة للغاية.

والشهبانو فرح وأسد علم (رئيس البلاط الملكي) أشرفا على كافة تفاصيل الاحتفال وتعجب كيف يُستنكر عليهم الاهتمام بعظمة خمسةٌ وعشرون قرناً!...

وقد فعلت العائلة المالكة كل ما يمكن أن يتخيله المرء لإنجاح هذا الاحتفال فقد كان الوزراء يحملون الحقائب أحياناً للضيوف وكانت سيدات القصر على استعداد لكيْ قمصان الضيوف (كما قالت فرح ديبا) إذا لزم الأمر بالطبع!!

افتتاح الاحتفال

شهد اليوم الأول حضور أبرز الشخصيات السياسية، أباطرة وملوك ورؤساء من مختلف دول العالم، وقد عبر الجميع عن انبهاره بجمالية الموقع ودقة إنشائه، وفي الليل كان الضيوف على موعد مع مأدبة ضخمة أعدت لها أشهى الأطباق وأفخرها.

لقد كانت مأدبة أسطورية واستثنائية كما أرادها الشاه، فقد تكون تلك المرة الأولى والأخيرة التي تجتمع في مائدة حفل واحدة شخصيات من جنسيات ومذاهب وأديان مختلفة، فرؤساء وقادة دول اشتراكية يجلسون جنبا إلى جنب مع آخرون من دول رأسمالية، وممثلي دول متقدمة يشاركون الطعام مع آخرون من دول نامية أو فقيرة.

اليوم الثاني شهد استعراضا ضخما تم في ساحة أعدت خصيصا لذلك، حيث قامت فرق عسكرية بإعادة تمثيل جيوش إيران على مر العصور، لقد تطلب ذلك بحثا دقيقا من طرف مؤرخين عالمين لتحديد ملابس الجيوش في كل فترة من الزمن، وفي الليل دعا الشاه ضيوفه للقيام بجولة في أطلال برسيبوليس التاريخية، بعد أن تم تزيينها بالأضواء

الساطعة والمشاعل وتحت أنغام الموسيقى التقليدية الفارسية فأضفي ذلك سحرا خاصا على المكان، ثم اختتم اليوم بحفل للألعاب النارية.

سجادة زرقاء تمتد حتى قبر كورش امتدت من مهبط المروحية التي أقلت الشاه والشهبانو وولي العهد.. إلى هناك اصطفاف عشرات الجنود وكبار القادة العسكريين والضيوف على جانبيها بينما بقية أفراد العائلة تقف جانباً على سجادة حمراء.

يسير الشاه ببطء وهو مرتدياً بزته العسكرية محاطاً بالجنود محيياً الضيوف والضباط حتى وصل لقبر كورش (سايروس) مُهدياً ذاك الضريح الصخري البسيط إكليل من الزهور.

وقالت الشهبانو فرح تصف المشاعر أثناء تلك اللحظات: (إنه مشهد مؤثر في وجدان أي إيراني إذ يرى أمامه ذكرى أكبر ملوك إيران وقد نقش تاريخه على الأحجار متضمناً كل المبادئ الأساسية لحقوق الإنسان منذُ 2500 عام فما أعظم الإيرانيين حين يرون ملكهم اليوم يخلّد ذكرى الملك البعيد.

ثم عاد الشاه على قرع الطبول إلى السجادة الحمراء حيث ألقى خِطاباً قدّم فيه التحية لسايروس وخاطبهُ بـ " أنت وأنا من أمتنا. أرقد بسلام يا كورش.. إننا مستيقظون" فالشاه تعهد بالمحافظة على تراث البلد الذي يعتز به ثم صمت الجَمع دقيقة إجلالاً للذكرى الفارسية.

كل ذلك كان بعد أن استقبل الشاه ضيوفه ملوك ورؤساء وممثلي بلدان العالم الذين وصلوا مطار شيراز الكائن قرب أطلال برسيبوليس وأُستقبل كلٌ منهم بالسلام الخاص ببلدة ورفع علم الدولة وكان على قائد حرس الشرف استعراض حرس الشرف لجميع الوفود كما هو العُرف في ذلك لكن الطريف في الأمر أن الضابط ارتطم أنفة بالباب الزجاجي عند عودتة فقد بلغ الإرهاق منه كل مبلغ!.

أدرك بعض زعماء العالم (من بينهم الملكة إليزابيث) أن هذا الحفل كان خطأً فادحاً، فبالرغم من أنها رحّبت بالشاه في بريطانيا إلّا أنها امتنعت عن الحضور، ولكن حتى لا يُنظَر إليها بأنها قاطعت الحفل، قامت بإرسال الأمير فيليب والأميرة آن لتمثيلها.

وكان من بين المدعوين: إمبراطور أثيوبيا هيلا سيلاسي، الأمير رينيه أمير موناكو والاميرة جريس، عدد من زعامات الخليج، الملك حسين وعقيلته الأميرة منى الكاردينال فوستنبرج مبعوث البابا، ملكة الدنمارك الملكة انجريد، ملك النرويج الملك اولاف، الملك بودوين والملكة فابيولا ملك وملكة بلجيكا ودوق دوقة لوكسمبورج جوزفين شارلوت والامير جان، الأمير فيليب ممثلاً الملكة اليزابيث يرافقه ابنته الأميرة آن وولي عهد السويد كارل جوستاف وملك وملكة اليونان آن ماري وقسطنطين الثاني وشقيقته الملكة صوفيا والملك خوان كارلوس ملك اسبانيا.

وفي ختام الافتتاح الرسمي كان الوقت قد حان ليطير الشاه وضيوفه ليحطوا في صفحة من صفحات التاريخ المعتق فالمروحيات قد نقلتهم من باسارجاداي – مدفن سايروس– إلى برسيبوليس حيث السحر بعينه فالخيام التي صممتها شركه فرنسية والمُعدة لاستقبال الضيوف انبثقت من وسط الصحراء على شكل نجمة خُماسية تُمثل القارات الخمس فالعالم كله مدعوا!.

وليس للحفل أن يزداد فخامة دون مأدبة تظل عالقة في ذهن كل من حضرها فقد تم استيراد أطنان من الخضار واللحوم الطازجة والمياه والصودا والعصائر والنبيذ من باريس الشريك الفعّال في هذا الحدث وصاحبة الذوق الرفيع في الحبكة والتصميم

فمناضد الطعام اتخذت شكل ثعبان طوله ٥٧ متراً وحملت أصناف المأكولات والمشروبات. فالكافيار القزويني كان حاضراً لكنهُ محشواً داخل الطيور

وكان لابد لهذه الأبهة سقف يماثلها أو يضاهيها في الروعة، فاكتست سقوف خيام الطعام بالحرير الأزرق الفاخر وكأن السماء استحالت خميلة يتدلى من أديمها عشرات الثريات من الكريستال البوهيمي تشع في جو يُنفث فيه سحر اوركسترا موزارت ترسلها أنامل الموسيقيين من الشرفة يكتنف كل هذا ستائر دمقس حاكتها أذواق مؤنقة بخيوط الترف!

ختام الحفل..

أبواق سايروس وداريوس تُنفخ!

ظلَ سحر برسيبوليس معقوداً بضعة أيام ارتأى الشاه أن خير مُختتمٍ لها الصِبغة الفارسية الأصيلة العابقة في أعمدة تخت جمشيد ٢٥ قرناً

فكانت أكبر المسيرات التاريخية هناك حيث تم استعراض شذرات من التاريخ الإيراني والقوة والمجد الإمبراطوري وعلى أطلال برسيبوليس وقف جنود إيرانيون يرتدون أزياء فارسية قديمة وشعور ولحى مستعارة حاملين سيوف ودروع كناية عن المحاربين القدامى وأخذوا أماكنهم في مواقع متعددة من المدينة.

وقد جسّد أربعة ألاف جندي تاريخ إيران بعصورهِ ومراحلهِ المتعاقبة ابتداء من الإمبراطورية الفارسية وحتى الأسرة القاجارية على دق الطبول ونفخ الأبواق وكأن سايروس على وشك الظهور هو وجميع ملوك الإمبراطورية ليشهدوا لحظات الاحتفاء مع أحفادهم!

كان الموكب الفارسي عظيم فقد بدا الكل مشدوهاً خصوصاً لمنظر الزوارق الحربية الضخمة وفيما تلا ذلك تلقى الشاه محمد رسالة تهنئة وصلته من رئيس البرلمان الإيراني نقلها إليه ضابطان قَدما من طهران على ظهر خيول أُستبدلت أكثر من مره.

وكانت الرسالة عبارة عن مخطوط أشبه بالرسائل القديمة وفيها قدّم رئيس البرلمان شكره وامتنانه للشاه وبالطبع لم تخل من تبجيل سايروس وأنه هو واضع أسس الإنسانية والعدل في العالم والداعي إلى نبذ القسوة وأيضاً يعد من المعلمين الأوائل لحقوق الإنسان!

وتمنى أيضاً باسم الشاه أن يعم السلام العالم والنأي عن التعصب والظلم وأن يؤَمّن للأطفال حياة خالية من الجوع والفقر والذل!

العجيب أن موقف إيران في هذه الأثناء بدا كالذي يأمُر الناس بالبر وينسى نفسهُ! فبينما تناشد العالم سلاماً لا ظلم فيه ولا تعصب نجد أن الفساد كان ينخر في عظام الدولة ابتداء من جهاز المخابرات (السافاك) الذي قبض على شتى مجالات الحياة وبات مصدر رعب لكافة أطياف الشعب بتجاوزاته الفظيعة وحتى حالات الفقر المخزي في عموم البلاد!

ومهما يكن من أمر فإن الاحتفال البهيج انتهى بعشاء فاخر عُزفت فيه الموسيقى التقليدية وكانت طريقة مثلى لإنهاء الاحتفالات في برسيبوليس.

وهكذا حقق الشاه من خلال بوابة برسيبوليس ما كان يصبو إليه بجعل إيران عنصراً حاضراً وهاماً في المسرح العالمي أيضاً محاولة جذب استثمارات تكون عائدة بالنفع على البلاد والأهم أنها باتت ضمن منظومة البلدان السياحية التي قد تدر مدخولاً جيداً للدولة.

ولكن بينما كان شاه إيران وضيوفه يتناولون الكافيار ولحم الطاووس ونبيذ شاتو لافيت الذي يعود لعام 1945 في خيام مكيفة، كان خصومه في أشد الاستياء.

كان آية الله الخميني عدو الشاه يشاهد الحفل الكارثي من منفاه في باريس قال في غضب: "فليعلم العالم أن هذه الاحتفالات لا علاقة لها بالشعب الإيراني النبيل. كل من شاركوا في هذا الحفل هم خونة للإسلام وللشعب الإيراني."

وشجّع الإيرانيين الفقراء على الانتفاض في وجه حاكمهم، وقد تحقق ذلك بعد وقت قصير.

الشاه كان مستبداً بدرجة متقلبة، فبالرغم من منحه النساء حق التصويت وكذلك منح الأقليات حقوقها، إلا أنه قام بتهميش المتشددين، ولم يكن هناك مجال للمعارضة، حيث لاقى المعارضون التعذيب أو السجن أو ما هو أسوأ من ذلك.

وبينما عانى أكثر من نصف الشعب الفقر، عاشت الأسرة الحاكمة حياة مترفة ولم يجرؤ أحد أن يخبر الشاه أنه على خطأ عندما كان يرتب لإقامة أكبر حفل شهده العالم على الإطلاق.

والمفارقة الكبرى أن وليمة الشاه التي كان من المفترض أن تُثبِّت عرشه وتدعمه، إلا أنها أطاحت به في نهاية المطاف أو على الأقل عجلت بذلك!

بعدها بثماني سنوات، هرب "ملك الملوك" للنجاة بحياته، وترك بلاده لعقود تحت حكم حكومة الخميني الدينية وتوفي في مصر لاجئ.

الغريب في الأمر أن هذا الحفل الأسطوري كان أيضا من أسباب الإطاحة بملك اثيوبيا هيلا سيلاسي، فقد ظهر هذا الأخير في الحفل بملابس فاخرة أثارت موجة من

الانتقاد والسخط لدى الشعب الاثيوبي الذي كان بدوره يعيش في فقر مدقع، كما أنه لم تمضي إلا سنة ونصف عن هذا الحفل الذي حضره قسطنطين الثاني ملك اليونان حتى حصل انقلاب أنهى الملكية في اليونان أيضا.

نرجسية الشاه:

إن الأنظمة لا تسقط، بل تنتحر، وإن انتحارها يحدث حينما يصر القائمون عليها على العيش خارج دائرة التاريخ، فيعلنون بذلك الحرب على طبيعة الأشياء ويفقدون ملكة التمييز بين الممكن والمستحيل وبذلك يقطعون كل صلة لهم بعالم الحقيقة والواقع.

ومن أهم المفارقات المأساوية في العصر الحديث، أن الشاه أراد –وفي القرن العشرين– أن يتمتع بامتيازات الأكاسرة وحقوق القياصرة وقداسة الميكادو.. أفليس هو الشاهنشاه، ملك الملوك، وأليس هو أريا مهر، نور الشمس؟

والحق أن لقبه هذا كفيل وحده بإيقاظ أشد أنواع النرجسية غباء وحماقة.. ولا خلاف أن النرجسية إذا تعهدت الإنسان فكرا وسلوكا، فعندئذ تفصله عن الواقع بأسوار من الغطرسة والاستعلاء وتعطل كل طاقاته للتسامي نحو الأفضل، وتشل عقله وتحرر غرائزه وتقلب موازينه، فتريه النصح نقدا وتجريحا.. والهداية تطاولا صريحا.

ومن أفتك سموم النرجسية أنها لا تسمح لغير الكذب والنفاق والتهريج بالنفاذ من أسوارها، الأمر الذي يعمى الأعين عن نذر الكارثة ولذلك ما كاد الشاه المخلوع يحط على أرض مصر حتى بادر الرئيس أنور السادات ناصحا وقائلا: «إياك ثم إياك الاعتماد على مستشاريك وعيونك، بل فلتخرج بنفسك إلى الشارع ولتجس بيدك نبض الشعب ".

ولكن النرجسي لا توقظه النذر، بل الكوارث وهكذا وجدت الشعب الإيراني يخرج الشاه من كافة الأراضي الإيرانية قبل أن يخرج المسكين إلى شوارع طهران وأرياف إيران

ومن أخطر إمراض النرجسية «الترهل» أي الاستهانة بالأمور والرجال، بالحوادث والأحداث ومن أبرز أعراض الترهل التعامي عن أولى القواعد الأساسية في سياسة الشعوب وحكم الأمم، وأعني بذلك القاعدة، بل القانون الحديدي القائل بأن فن

السياسة، قبل أن يكون فن تحقيق الممكن، إنما هو فن التعامل وردود أفعال النفس البشرية، وتحويل هذه الردود إلى أفعال تبنى الوطن، وتسند النظام، الأمر الذي يستوجب اعتماد كرامة المواطن أساسا وحيدا لعزة الوطن، فالوطن ليس مفهوما جغرافيا، بل إنه كان ولا يزال وسيبقى نظاما عضويا حيا عنوانه الإنسان وفحواه كرامة الأمة والفرد

لكن الشاه بدلا من استلهام القواعد الآنفة الذكر في حكم الشعوب الإيرانية، أقام سلطانه على ولاء القوات المسلحة لا على موالاة الشعب معتمدا على نظرية أنه من يملك القوة هو الذي يسود ويقود، ومتناسيا في ذلك، أن أسوار الثكنات لا تصد تيارات الرأي العام، وتجعل العسكر –ولاسيما عسكر العالم الثالث– يعيشون بمعزل عن آمال الشعوب وآلامها.

هيكل الجيش الإيراني:

ومن المفارقات العابثة أن هيكل جيش الشاه كان ملغوما بألغام التحاسد والتنابذ، إذ كان يتألف من حيث الواقع، ومن حيث الامتيازات والرواتب من ثلاثة جيوش:

أولها: «الخالدون» أي الحرس الإمبراطوري، وكان هؤلاء يتمتعون بامتيازات خاصة من حيث الرواتب والتسهيلات المعيشية والبريق الاجتماعي.

ثانيهما: «المحترفون»: أي الذين اتخذوا من الجندية حرفة لهم. وكان هؤلاء يشكلون العمود الفقري للقوات المسلحة الإيرانية، وكانت امتيازاتهم دون امتيازات الحرس الإمبراطوري. وذلك على الرغم من كونهم يمثلون ما نسميه بالجيش العامل أو الجيش الدائم

ثالثهما: جيوش تتألف من المجندين وضباط احتياط ويشكلون الأكثرية العددية الساحقة من القوات المسلحة الإيرانية، ولكنهم كانوا «المحرومين» بالنسبة لهؤلاء ولأولئك وذلك من حيث الراتب والتسهيلات المعيشية والمعاملة والتعامل والمكانة في الثكنة والمجتمع الإيراني

وكانت ثمة فئة رابعة من القوات المسلحة الإيرانية، وأعني بهذه الجنود وضباط الصف من الفنيين، كميكانيكي سلاح الطيران والمدرعات، والنقل، والمواصلات اللاسلكية والسلكية.. الخ.

ومع أن الشاه كان كريما غاية الكرم مع هؤلاء الفنيين، وذلك لأن مرتب البعض منهم كان يتساوى ومرتب العقيد في الجيش المحترف، غير أن رتبهم كضباط صف كانت تنعكس سلبا على نفسيتهم في المجتمع العسكري بخاصة والمجتمع الإيراني بعامة، كما أن أصولهم كأبناء للبرجوازية الصغيرة، كانت تجعلهم أكثر من غيرهم استعدادا للتمرد وتقبلا للثورة وهكذا شاهدنا، قبيل سقوط الشاه بأيام معدودة، ضباط الصف من الفنيين في سلاح الجو الإيراني، طليعة للمتمردين من العسكريين على الشاه ونظامه، فجميعنا نذكر تلك المعركة الشرسة التي دارت رحاها في إحدى القواعد الجوية بالقرب من طهران، بين هؤلاء وبين الحرس الإمبراطوري، وكانت بمثابة الشرارة التي ألهبت الثورة في ثكنات المجندين وضباط الاحتياط، وانتهت إلى تفكك القوات المسلحة الإيرانية

التوازن والاستقطاب:

يتضح من شكل هيكل القوات المسلحة الإيرانية، أن الشاه كان يهدف من وراء تنظيمه لعسكره التنظيم الأنف الوصف إلى إقامة توازن تحييدي في القوات المسلحة الإيرانية، بحيث يصبح هو بذاته لسان الميزان وبيضة القبان، والقائد العام والأعلى معا، ولذلك ربط القوات المسلحة ربطا مباشرا بشخصه، فكان هو الذي يبت حتى في قرارات ترفيع ضباطها وفي نقلهم، وتحديد وظائفهم ومسئولياتهم.

وجماع القول إنه كان يقوم بمهام وزير الدفاع ورئيس الأركان العامة، ولا يسمح للحكومة مجتمعه باتخاذ أي قرار يتعلق بالقوات المسلحة دون موافقته، أو بالأحرى دون أن يكون هو بالذات المبادر باقتراح القرار وفي إضفاء الصفة الشرعية عليه.

وكان هو الذي يحدد الاعتمادات المرصودة للقوات المسلحة في الميزانية العامة ويقرر أوجه صرفها، أضف إلى ذلك أنه كان يتولى بنفسه فرع شؤون الضباط، وحتى اختيار المرشحين لدخول الكليات العسكرية لتخريج الضباط المحترفين وضباط الأركان،

فالقوات المسلحة الإيرانية كانت في نظر الشاه بمثابة هيكل لا يجوز لأي إنسان غيره تخطى عتبته، أو الدخول إليه دون موافقته أو معرفته بذلك

الحواجز النفسية:

وبغية الاطمئنان إلى الولاء المطلق للقوات المسلحة، أقام الشاه بين فروعها حواجز من التحاسد والريبة والحذر، فالحرس الإمبراطوري كان يرصد الجيش المحترف. ويلجم كل قائد يطمع أو يطمح إلى الاستيلاء على السلطة، كما أن الجيش العامل أو المحترف كان بدوره القوة الرادعة للمجندين ولضباط الاحتياط وسلاحي الطيران والبحرية وحتى الحرس الإمبراطوري زد على ذلك أن ضباط وضباط الصف القوات الجوية كانوا ينظرون إلى زملائهم في الفروع الأخرى من القوات المسلحة، نظرة تكبر واستعلاء شأنهم في ذلك شأن زملائهم في ضباط سلاح البحرية.

وبغية دعم سلطانه على القوات المسلحة الإيرانية، جعل الشاه من الاستخبارات العسكرية جهازا على أرفع مستوى من التطور كفاءة وتنظيما، وقد ربط هذا الجهاز بشخصه أيضا.

فكان يحق لرئيسه تجاوز القائد العام ورئيس الأركان، من حيث رفع تقاريره مباشرة إلى الشاه ودون اطلاع رئيسه عليها، وكانت أبواب القصر الإمبراطوري مشرعه إمامه في كل دقيقة من دقائق الليل والنهار، ولم يكن بحاجة إلى استئذان أو تحديد موعد للاجتماع بالشاه وكانت ميزانية هذا الجهاز، حين اقتراحها، لا تقبل نقاشا، أو جدلا، ولم يكتف الشاه بذلك، بل انشأ داخل الاستخبارات العسكرية جهازا آخر للاستخبارات، وكانت إحدى مهام هذا الجهاز الخاص مراقبة الاستخبارات العسكرية العامة ورصد عناصرها، وكان يرأس هذا الجهاز الخاص من الاستخبارات العسكرية رئيس الغرفة العسكرية في القصر الإمبراطوري، ولقد كانت للفرع الخاص بالتوجيه المعنوي من الاستخبارات العسكرية العامة أهداف خمسة:

الأول: ترسيخ الاعتقاد بأن العرش هو العامل الأوحد في الحفاظ على وحدة الشعوب الإيرانية وبالتالي على وحدة إيران الجغرافية.

والثاني: تدعيم الولاء المطلق للشاه واعتبار أي نشاط معاد له نشاطا يهدد إيران بالتفكك والأمة بالانقسام

الثالث: تبرير كل خطوة يخطوها الشاه في السياستين الداخلية والخارجية، وإحاطة صورته بهالة القداسة والإشراق.

الرابع: تدعيم الحواجز النفسية الفاصلة بين أسلحة القوات الإيرانية.

الخامس: إشاعة كل ما يحقق بلوغ الأهداف الأربعة الآنفة الذكر، من حقائق أو أكاذيب بين صفوف القوات المسلحة الإيرانية

ولا خلاف أن الشاه قد نجح في بلوغ غايته، بالنسبة للقوات المسلحة الإيرانية، وذلك على الرغم من محاولات اغتياله من بعض منسوبي تلك القوات، ولكن السبب الرئيسي وراء نجاحه يعود أولا وأخيرا إلى أن إيران بشعوبها المختلفة لم تشهد قبل ثورة الخميني ثورة أو اضطرابات لها من الزخوم والاستمرارية العنيدة ما كان لثورة الخميني منها، لذلك لم تمتحن الأحداث تماسك القوات الإيرانية المسلحة في ساعة الشدة والحرج.

علما بان ثورة مصدق على الشاه، وعلى الرغم من فشلها، كانت بمثابة النذير بأن تحييد القوات المسلحة واتخاذها موقف اللامبالي بالحفاظ على (الإمبراطورية) والإمبراطور أمر محتوم حالما يبلغ غليان الرأي العام وتبلغ الثورة المرحلة الحرجة من مراحلها، وأن لنا فيما أذاعه الجنرال قره باغي القائد العام للقوات المسلحة الإيرانية، عشية انهيار النظام الشاهنشاهي أصدق دليل على صحة ما أوردناه، فلقد أذاع الجنرال المذكور ما يلى:

للحيلولة دون انتشار الفوضى ولمنع إراقة الدماء قرر المجلس الأعلى للجيش الاحتفاظ بحياده، من الخصومات السياسية الحالية، ولهذا فلقد أصدر أمره إلى كافة القطاعات العسكرية بالعودة إلى ثكناتها

لقد كان باستطاعة الشاه ألا ينتهي إلى ما انتهى إليه على أيدي الجنرال قره باغي، لو أنه تعمق في دراسة تجربته والجيش، حينما بلغت خلافاته ومصدق النقطة الحرجة فأرسل مع العقيد نصيري في شهر أغسطس من عام ١٩٥٣، كتابه الشهير إلى مصدق والقاضي بإقالته من منصب رئيس مجلس الوزراء، حيث تمرد مصدق على أمر الشاه،

واضطر الشاه للفرار من إيران والبقاء خارجها، حتى أعاده إليها كيرميت روزفلت من خلال الانقلاب الذي دبره بالتعاون والجنرال فضل الله زاهدي، فعندما تبلغ الثورة المرحلة الحرجة لا يبقى أمام القوات المسلحة سوى ثلاثة خيارات لا رابع لها:

أولا: الدفاع عن النظام القائم وسحق التمرد والثورة. وأن هذا الخيار ممكن وناجح فقط في حالة كون النظام القائم لم يتجاوز نقطة مرونته ولم يستأصل جميع جذوره من تربة الأمة.

ثانيا: اللامبالاة بالنظام القائم وبالثورة معا، أي الحياد بين النظام القائم وبين الثائرين عليه، الأمر الذي يعني، واقعا وفعلا، إطلاق الأعنة للثورة وتحريرها من كل كابح أو لجام. وهذا الأمر ينتهي عادة إلى انضمام الثكنة إلى الشارع.

ثالثا: صيرورة القوات المسلحة رأس رمح للثورة، بتوجيهها الضربة القاضية على النظام، وهذا ما رفضه الخميني حينما جاءه مندوبون عن القوات المسلحة الإيرانية ليطلبوا موافقته على انقلاب عسكري يقومون به على الشاه ونظامه

وهكذا يتضح بجلاء أن محاولة الاستعاضة عن الأمة بالقوات المسلحة عمل أحمق وغبي، وأن الإقناع لا الإخضاع هو تربة النظام وماؤه وهواؤه.

والواقع أن الشاه المخلوع لم يدرك هذه الحقيقة إلا بعد أن غادر المملكة المغربية واستقر أخيرا في مصر.. ففي مصر تبخرت آماله بقواته المسلحة، وتبين له أن الحواجز النفسية الفاصلة بين فروعها تعمل في زمن الشدة على تحييدها، وحتى بتنويرها، وأن حتى أقرب أصدقائه من الأجانب يراهنون دائما، على الحصان المضمون فوزه في الحلبة

جنون التسلح:

لا يكفي لضمان ولاء القوات المسلحة، أن يكون النظام كريما معها في المرتبات والامتيازات المعيشية، بل يتوجب أيضا تزويدها بأحدث المعدات والأسلحة، فالسلاح نوعا وكما يشكل سيكولوجيا، دليلا ماديا على اهتمام أو عدم اهتمام النظام بجنده، الأمر الذي يكون له أعمق الأثر في دعم أو إضعاف ولاء القوات المسلحة للنظام القائم، وقد فطن الشاه إلى هذه المسلمة المنطقية فأغرق قواته بطوفان من شتى الأسلحة وأشدها تطورا وتعقيدا.

وقد بلغ إنفاقه على التسلح ما يقارب الأربعين ألف مليون دولار، وذلك باستثناء العقود المبرمة لشراء المزيد من السلاح والتي ألغتها الثورة حالما تسلمت أزمة الحكم

ومن المضحك المبكى أن كميات ضخمة من الأسلحة التي ابتاعها الشاه أصبحت فريسة للصدأ في مستودعاتها، بسبب عدم توفر الكوادر البشرية القادرة على استيعابها فلقد درج الشاه على عادة استيراد السلاح قبل إعداد الإنسان الذي سيستوعبه ويستخدمه، كما ركب الشاه طموح مجنون إلى جعل القوات المسلحة الإيرانية من حيث القوة، في المرتبة الثالثة بعد الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وقد أعماه طموحه هذا عن أولى المسلمات المنطقية القائلة بأن الجيش القوى هو ذلك الجيش المستند إلى أمة حرة وقوية وتملك اقتصاداً قويا بحيث يكون ابرز أركانه الصناعة من متوسطة وثقيلة، وأن الجيش الذي يستورد أسلحته، يكون قصير النفس في القتال والصمود، ويبقى تحت رحمة صانع السلاح، ويربط مصير أمته بأهواء أو سياسات ذلك الصانع، ويرهن مقومات اقتصاد وطنه لدى الدولة الموردة للسلاح ويعطل موكب التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

جميع هذه البدهيات تعامى عنها الشاه أو تجاهلها، فجنونه بالتسلح لم يقف عند الأسلحة التقليدية، بل تجاوزها إلى الأسلحة النووية، فابتاع المفاعلات من فرنسا وأقام منشأتها على الخليج العربي، وذلك قبل أن يعد لها الكوادر البشرية اللازمة، وهكذا نرى اليوم نظام الخميني يوقف العمل في تلك المفاعلات ويعرضها للبيع، ويتفاوض وفرنسا بغية استرداد الأموال المتبقية في ذمتها.

والحق أن المتامل في سياسة التسلح التي انتهجها محمد رضا بهلوي، ليسال نفسه عما إذا كان الشاه قد انطلق في سياسته هذه من قوة الغطرسة أو من غطرسة القوة فالنرجسي كما هو معروف، غبي وغطريس، ويعيش في عالم لا يمت إلى عالم الواقع بصلة، ويستخدم في النظر إلى نفسه الميكروسكوب لا النظارة الطبية ومن المؤسف أن الشاه قد عثر على من يشبع نهمه إلى السلاح، لقد وجده في شخص الرئيس نيكسون والدكتور كسينجر، هذا اليهودي التلمودي والبهلوان في السياسة الدولية، فالولايات المتحدة الأمريكية، لم تسمح للشاه بالاغتراف من أسلحتها قبل عهد نيكسون ووزير خارجيته

كيسنجر، وذلك لأن الإدارات الأمريكية السابقة كانت تسعى إلى تحويل الإنفاق الإيراني عن التسلح إلى المشروعات الاقتصادية لكن الشاه الذي استعاض عن الأمة الإيرانية بالجيش.

اعتقد الشاه بأن استيراد السلاح كفيل بإشاعة الرخاء في إيران والرفاه بين شعوبها، وذلك لأنه اعتقد بان القوات المسلحة هي الشعوب الإيرانية وقد أثار جنون الشاه بالتسلح فضول رئيس إحدى الدول حين زيارته لإيران فسأل الشاه عن أهدافه من وراء إنفاقه الباهظ على التسلح وهو يعلم حق العلم بأن قواته المسلحة مهما بلغت من الضخامة عددا وعتادا، فإنها تبقى عاجزة كليا عن صد أي هجوم سوفياتي، واستطرد ذلك الرئيس يقول للشاه إن التوازن الدولي في المنطقة لا يسمح له بالاجتياح والتوسع، كما إن اختلاف شعوب المنطقة المجاورة لإيران، عنصرا ولغة وحضارة يجعل بعد تهاوى الاستعمار من المستحيل دوليا وإنسانيا استعمارها وخلص ذلك الرئيس إلى القول بأن سياسته هذه ستجعله أداة تستخدمها الولايات المتحدة للتهديد أو القيام بالمهمات التي تخدم أغراضها لا أغراضه، لكن الشاه لم يجب عن ملاحظات ذلك الرئيس بغير الابتسام، لكنه لم يكن بالابتسام العريض فعقله الباطن لم يكن مرتاحا إلى هذا الطوفان في الاعتدة والسلاح.

الشاه والعالم العربي

بينما يقول القرآن الكريم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات:١٣] تقول شرائع اليهود ويونان الاسكندر وفارس والرومان ما يلي: (من جاورك فهو عدوك تخضعه أو يخضعك وتبداه بالحرب متى استطعت، أو يبادرك هو بالحرب متى استطاع).

من شريعة فارس، لا من الشريعة الإسلامية انطلق الشاه كما ينطلق اليوم الخميني، وسارع إلى القبول بأن يكون الجدار الهام من جدران المحجر الوقائي المعد للعالم العربي، هذا المحجر الثلاثي الشكل، وذو الأضلاع الثلاثة، والمشكل من طهران، وتل أبيب وأديس أبابا.

ويشاء يمن الطالع أو سوءه، أن يكون عالمنا العربي الشرق أوسطي يتمتع بمركز فريد من نوعه جغرافيا وعسكريا واقتصاديا، فهو بمثابة جسر يربط بين قارات ثلاث، آسيا وأوروبا وأفريقيا، وذو ممرات ومضائق مائية تربط بين بحرين ومحيطين وتختزل المسافات اختزالا بالغ الأهمية بالنسبة إلى التجارة الدولية، والمواصلات العسكرية.

كما أن بلدانه تشكل خط الدفاع الثاني بعد تركيا وإيران وتختزن أرضه ثروات هائلة أهمها النفط. دماء الحضارة الحديثة ومحرك صناعاتها وآلاتها الحربية.

أضف إلى ذلك كونه ميدانا مغريا للاستثمارات وسوقا ذا قدرة شرائية لا بأس بها ومصدرا رئيسيا للدولار البترولي، وعاملا بالغ الأهمية بالنسبة للنشاط المصرفي والسندات الحكومية الأمريكية وسواها.

لذلك كله أصبحت لعالمنا العربي الشرق أوسطي الأولوية المطلقة في سلم الأولويات العسكرية والاقتصادية من تجارية واستثمارية ومعونات وقروض الخ

ولما كانت غريزة الطامع ومنطقه يجمعان على أن إبقاء عالم هكذا حاله كعالمنا العربي مفككا وهزيلا هو أفضل وسيلة للحفاظ على مصالحة وتوسيعها وتحقيق إطماعه وذلك لأن التعامل مع الضعيف أيسر سبيلا وأوفر نفعا أن يصبح تعامل كهذا إملاء إرادة وفرض مشيئة لذلك كان لابد من خلق أو إيجاد قوة تكبح من جماح العرب وتبقى شعوبهم على حال من هزال وضعف وترغم دولهم على التطلع دائما وابدأ إلى الدول الكبرى طلبا للحماية أو العون عند كل خطر أو نذير بخطر.

ولما كان عصر الاستعمار في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين يختلف كليا في وسائله عن عصر الاستعمار في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (الذي يعتمده اليوم الاتحاد السوفيتي) لذلك ينبغي أن تكون القوة الكابحة والمضعفة للعرب من داخل المنطقة وملتزمة لا بل خاضعة لتوجيه الدولة أو الدول الكبرى ومنفذة لسياستها وهكذا تشكلت القوة المطلوبة من الثالوث، إيران وإسرائيل وحبشة هيلاس لاسي.

تاريخ مرير

إن تاريخ علاقاتنا بإيران البهلوية تاريخ حافل بمرير الذكريات ففي عام ١٩٢٥م وبموافقة بريطانيا أرسل والد الشاه الجنرال «فضل الله» على رأس جيش إلى الأهواز

فاحتلها واعتقل أميرها الشيخ خزعل وزجه في أحد سجون طهران، حيث قتل خنقا، وبدل اسمها إلى اسم خوزستان ومنع تدريس اللغة العربية وفرض اللغة الفارسية على أهلها العرب ونقل عشائر عربية بأكملها إلى شمال إيران، واحل محلها جاليات فارسية.

وفى عام ١٩٣٧ م أرغم العراق على عقد معاهدة مع إيران، حصلت إيران بموجبها على سبعة كيلو مترات من الأراضي العراقية مقابل عبادان ولم تكتف إيران بذلك، بل نقضت حتى هذه المعاهدة في ١٩ أبريل من عام ١٩٦٩ وعادت لتطالب بالمزيد من أراضي شط العرب.

وفى شهر نوفمبر من عام ١٩٥٧م أعلنت إلحاق البحرين بالتقسيمات الإدارية الإيرانية، وقد اعتبرت البحرين المحافظة الرابعة عشرة من محافظات إيران، ولقد قام الشاه فخص البحرين بمقعدين من مقاعد مجلس النواب الإيراني وقد شغل هذين المقعدين مواطنان بحرانيان إيرانيا الأصل هما عبد الله الزبره وعبد الحميد العليوات.

ويجدر بنا أن نشير هنا أن الملك الراحل فيصل طيب الله ثراه هو الذي انتزع اعتراف الشاه باستقلال البحرين وذلك في شهر أغسطس من عام ١٩٧١م.

وفى اليوم الثلاثين من شهر نوفمبر من عام ١٩٧١م احتلت إيران وبموافقة بريطانيا أيضا. وقبل انسحابها من الخليج، الجزر العربية الثلاث: طنب الكبرى وطنب الصغرى التابعتين لإمارة رأس الخيمة وجزيرة أبو موسى التابعة لإمارة الشارقة.

أضف إلى ذلك احتلال إيران في عام ١٩٥٠الجزيرة هنجام القريبة من رأس الخيمة والتي كان يبلغ عدد سكانها قرابة ستة آلاف نسمة وكان يحكمها أحمد بن عبيد بن جمعة المكتوم.

أضف إلى ذلك جزيرة صرى الواقعة بين أبو ظبي والشارقة، والتي احتلتها إيران في عام ١٩٦٤م وأنشأت فيها مطارا حربيا هاما.

وأضف أيضا وأيضا الجزيرة المعروفة باسم جزيرة الغنم التابعة لعمان والواقعة على مضيق هرمز وأضف أيضا وأيضا وأيضا أن إيران تطالب بثلاث جزر في الكويت.

ولا تزال وحتى في عهد الخميني ترى أن حدودها مع العراق والكويت والمملكة العربية السعودية ليست بحدود نهائية حيث جرت في عام ١٩٦٦م مفاوضات بين إيران

من جهة وبين المملكة العربية السعودية والكويت من جهة أخرى، حول الجرف القاري والجزر الكويتية التي تطالب بها إيران، ويشاء الشاه كما شاء والده من قبل أن يجعل من الاستعلاء والغطرسة دبلوماسيته في تعامله والعرب، فالشاه لم يرض بالقيام حتى بدور الشقيق الأكبر، بل أراد إن يكون حامي الخليج وسيد العرب، وهكذا يعلن جهارا نهارا ويقول:

يجب على إيران أن تبنى مستقبل خططها العسكرية على الخليج.. نحن لا نرغب في أن تخرج القوات الأجنبية من الخليج الفارسي لتحل محلها قوات أخرى.. ولا شك أن أمرا كهذا لن يحدث، وسيكون ضمان حرية الملاحة في هذه المنطقة مناطا بنا ونحن وحدنا قادرون على القيام بالتزاماتنا على أكمل وجه.

الشاه يشب عن الطوق:

من طبيعة النرجسي أنه لا يعرف أبدا الحدود الفاصلة بين الممكن والمستحيل الأمر الذي كان السبب الأوحد وراء سقوط الشاه واندثار نظامه.

فالولايات المتحدة الأمريكية أرادته أن يكون منطلقا لها وقاعدة ترتكز إليها، لا أن تصبح وهى الدولة الأعظم منطلقا للشاه إلى مطامحه ومرتكزة في تحقيق أحلامه الإمبراطورية، وقد أرادته أن يكون قوة تهديد وإضعاف للعرب لا قوة تطمح إلى الانفراد بالسيطرة على الخليج والعرب.

لقد أرادته أن يكون قوة تحييد لا قوة تعمل لحسابها الخاص ومستقلة عنها تماما وأرادته أن يكون حمامة الأوبيك لا صقرها فإذا بالشاه يصرح في اليوم الخامس عشر من شهر مارس عام ١٩٧٦م لمجلة يو. اس – نيوزاند ورلد ريبورت قائلا:

إن إيران تستطيع أن تضر بالولايات المتحدة الأمريكية بقدر ما يستطيع الأمريكيون الإضرار بنا، إن لم يكن أكثر من ذلك، وإن إضرار إيران بأمريكا لن يتمثل فقط في قضايا البترول. بل في قدرتنا أيضا على خلق المتاعب للولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الخليج بأكملها.

وإذا بالشاه يتبع تصريحه الآنف الذكر بتبنيه قرارا يقضى برفع أسعار النفط بنسبة١٥%. وإذا بالشاه أخيرا يتجاوز الخط الأحمر فيخرج عن الدور المرسوم له،

ويقوم بزيارة الاتحاد السوفيتي ويستقبل مختلف البعثات السوفيتية، ويعلن لأمريكا من خلال الفعل لا القول أنه سيتعامل معها تعامل الند للند، ولن يكون تابعا سيارا في فلكها، الأمر الذي جعل الدوائر الأمريكية تتخذ قرارها الحاسم بتأديبه أو إسقاطه إذ أنها خشيت أن ينتهي الشاه إلى نوع مما عرف خلال الخمسينات بالحياد الايجابي، الأمر الذي سيخرجه حتما من الفلك الأمريكي إلى الفلك السوفيتي كما كانت الحال والرئيس جمال عبد الناصر

تأديب أم إسقاط:

بدأ الشاه يشعر بتحرك أمريكا ضده فأدلى بحديث إلى مجلة (تايم الأمريكية) انتقد فيه وكالة الاستخبارات المركزية، واتهمها بإقامة علاقة من تعاون بينها وبين العناصر المعارضة.

وقد نشر حديثه هذا في شهر نوفمبر من عام ١٩٧٨ م وفى الشهر الأخير من العام ذاته، أرسل الشاه كتابا إلى الحكومة العراقية، يحذرها من أن العراق لن ينجو من الاضطرابات التي تعانيها إيران ويقول أن الولايات المتحدة الأمريكية تحاول استبدال الأنظمة القائمة في المنطقة بتحريك الصراعات المذهبية، وأنهى كتابه مطالبا الحكومة العراقية بضرورة فرض رقابة شديدة على نشاط آية الله الخميني، وقد اتهم الشاه الخميني بأن له أو لأعوانه صلات وثيقة بالمخابرات الأمريكية، ويشاء سوء طالع الشاه أن تكون علاقاته بالحزب الجمهوري الامريكي، ولاسيما من خلال كيسنجر وروكفلر، علاقات أكثر من جيدة، وأن يكون الحزب الديمقراطي هو الحاكم بينما كان نظام الشاه يترنح تحت ضربات جماهير إيران.

فالحزب الديمقراطي بحكم المنافسة السياسية، لم يكن مرتاحا إلى التعاطف الخاص بين الشاه وبين الحزب الجمهوري. ومع ذلك كله فلا نستطيع أن نذهب إلى الجزم بأن الولايات المتحدة الأمريكية برئيسها الديمقراطي جيمي كارتر كانت تتوخى إسقاط الشاه لا تأديبه، وذلك لأن البيت الأبيض ولاسيما برجنسكي، بقي حتى اللحظة الأخيرة مساندا للشاه وكذلك كان أيضا حال سيده .. ومعارضا لنصائح وزارة الخارجية الأمريكية القائلة بأن الشاه قد انتهى إمبراطورا ونظاما.

وعلى الرغم من أن الدستور الأمريكي يجعل من الرئيس الأمريكي السيد المطلق الحرية في التصرف في الشئون الخارجية توجيها وتنفيذا لكن واقع التركيب السلطوي الأمريكي، يجعل من حيث الممارسة، إدارات أخرى كوكالة الاستخبارات الأمريكية ووزارة الخارجية ووزارة الدفاع.. الخ تعمل لحسابها الخاص وتتجاوز تعليمات البيت الأبيض وتضع رئيسه إمام الأمر الواقع.

وهكذا سمعت الجنرال ربيعي، قائد السلاح الجوي الشاهنشاهي يقول أثناء محاكمته أمام محكمة الثورة الإسلامية عن دور الجنرال هويزر الأمريكي الذي أوفدته أمريكا إلى إيران قبيل سقوط الشاه، ما نصه بالحرف الواحد: (لقد ألقى الجنرال هويزر بالامبراطور خارج إيران كما يلقى بالفار الميت).

وكذلك تقرأ أيضا في مذكرات الشاه قوله: (عرض الجنرال عرضا غريبا على رئيس أركاني الجنرال قرة بساغي.. وهذا العرض هو أن يلتقي بمهدي بازركان الذي عينه الخميني رئيسا للوزراء، على الرغم من أن شاهبور بختيار كان لا يزال يشغل هذا المنصب واستطرد الشاه قائلا: (لقد نجح الجنرال هويزر في إقناع جنرالات الجيش بالتخلى عن الدكتور شاهپور بختيار).

ولذلك نقول أن دور الولايات المتحدة الأمريكية أو بالأحرى دور وزارة الدفاع كان يختلف كليا عن دور كيرميت روزفلت أيام مصدق فهو يزر حضر هذه المرة إلى طهران ليقوم بدفن الشاه ونظامه. لا بتشييع جنازة الخميني ودفن ثورته

استدراك:

ينبغي ألا نفهم من القول الآنف الذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي أسقطت الشاه فالذي أسقطه هو الشعب الإيراني وحده، شأنه في ذلك شأنه مصدق فعندما انسلخ الشاه عن شعبه، واختار القوات المسلحة شعبا له، حكم على نفسه بالسقوط وعلى نظامه بالاندثار فالجيش قد ينتصر للنظام مرتين وثلاثا وأربعا، ولكن الشعب إذا استمر في نضاله العنيد فلابد للجيش أن ينضم إلى صفوف الشعب.

ولقد جاءت ثورة المجندين من الجيش الإيراني على ضباطهم والمعركة التي دارت في إحدى القواعد الجوية بالقرب من طهران بين جنودها وبين الحرس الإمبراطوري ومن ثم

فرار العديد من العسكريين من صفوف الجيش وبختيار لا يزال رئيسا للوزراء وأخيرا إعلان قائد القوات المسلحة الإيرانية اتخاذها موقف الحياد من الصراع بين الشعب والعرش.. جاء كل ذلك بمثابة الدليل القاطع على صدق ما ذكرته آنفا فجماهير الشعب الإيراني بعد أن صمدت الصمود العنيد أمام الجيش كان لابد للجيش من التراجع ومن ثم التخلي وأخيرا الفرار من ميدان المعركة وترك الشاه لمصيره.

لذلك فان مهمة الجنرال هويزر لم تكن ذات شأن أو أثر في تغيير مجرى الأحداث صدا أو دفعا فالأحداث حينما تنطلق من عقالها تصبح أسيرة لديناميكيتها الخاصة بها، ولا تعود خاضعة لأية قوة خارجة عن زخوميتها بل تتابع مسارها ساحقة كل ما ومن يعترض سبيلها. فمنطق الثورة لا يفهمه العقل حتى عقل الدولة الأعظم.

لقد استعاض الشاه عن الإسلام بالعلمانية، وعن شعبه بالجيش فخذله العلمانيون في ساعة الشدة ولم ينصره العسكريون في لحظة الجسم أما أصدقاؤه الأمريكان فسرعان ما نسوا تماما قصة حبهم الطويل والشاه، فانطلقوا يغازلون الخميني بسمة وهمسا كأنهم مراهق خجول لكن هدير الثورة أغرق همساتهم، وتجهم الخميني كسف بسماتهم أما الشاه فاقتنع بأنه ليس للدول الكبرى أصدقاء دائمون ولا أعداء خالدون، بل إن لها مصالح دائمة.

العلمانية تحكم إيران

يقولون إن عيوب المرء مكتسبة من عصره، أما فضائله فهي ملك خاص به ولا علاقة أو تأثير لعصره فيها.

فطوال الخمسينات والستينات من هذا القرن طغت الموجة المادية على شعوب العالم الثالث، وأصبحت العلمانية بمثابة دين العصر وفلسفته، وغدت الاشتراكية هيكل هذا الدين ومعبده، وأمست الثورية ناظما لطقوسه والثوريون كهنته ورهبانه، وغمر ماركس وإنجلز وما وتسي تونج بظلالهم كل موروث وتراث، فتنكر لا بل أنكر البعض تاريخه، وأصبح كل ما كان قبل ماركس متخلفا فاسدا ورجعيا.

وغدا كل ما ينطلق من ماركس والماركسية صالحا وتقدميا، فماركس قد نسخ تاريخ الحضارات وألغاه، وبالماركسية وحدها يبدأ تاريخ الإنسان الحضاري.

وذلك لان ماركس يرى أن تاريخ الإنسان ليس بتاريخ تساميه الموصوف بالآية الكريمة: {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق:٦] بل إنما هو تاريخ الإنسان الملاحق لغاياته الاقتصادية والكادح في سبيلها.

فماركس قد اختزل الإنسان إلى معده وجاء من بعدة سيجموند فرويد فاختزله إلى جهاز أو آلة جنس، ولذلك فإن كل حافز أو نازع لا ينبع من المعدة تسقط عنه الصفة التاريخية، فليست لدى ماركس ثمة فضائل، فكل ما يخدم مصلحة الطبقة العاملة هو فضيلة، وكل ما يتعارض ومصلحتها هو رذيلة، فلقد قال لينين مثلا: "أن كل عمل يساعد على الثورة هو عمل صالح، فليست الوسيلة هي الميزان، بل الغاية".

ولذلك فالماركسية لا تؤمن بأن ثمة ثوابت تاريخية، وثمة أفعال تنطلق من النخوة والشرف، فالعوامل الاقتصادية، هي عناصر ديناميكية الجدلية المادية التاريخية. لهذا السبب ينبغي أن يكون الرغيف الغاية والهدف، فالخبز وما يرمز إليه من كسب ومنفعة كان ولازال، في نظر ماركس محرك التاريخ وموجهه، وأما الشهادة والاستشهاد أو المثل العليا فهي مشتقات من أفيون الشعب، أما الأخلاق فهي أعراض لا جواهر، وتفرضها الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج على المجتمع والدولة.

فالنظام الإقطاعي له أخلاقيته الخاصة به، وكذلك النظام الرأسمالي، وهكذا دواليك حتى النظام الشيوعي، وبهذا يكون ماركس قد نفى الثوابت التاريخية جملة وتفصيلا، وجعل الإنسان كالحرباء، تماما يتلون أخلاقا وعقائد بلون ظروفه الاقتصادية والاجتماعية، أما التاريخ فهو في نظر ماركس تاريخ الصراع بين الطبقات

هذه أبرز عقائد ماركس الفلسفية، وهي كما يرى القارىء لا ترتفع كثيرا بالإنسان عن مستوى الحيوان الذي خلق ليأكل ويعيش وينفق، وذلك هو مذهبه الأخلاقي الخاضع بمفاهيمه السلم التطور الاقتصادي فالاجتماعي، والمعتمد المكيافيلية شكلا وموضوعا، وذلك هو مجتمعه الداروينى [نسبة إلى داروين] الذي ينتظمه تنازع البقاء. حيث تسود الغريزة وتسيطر.

ويجيء بعد ماركس سيجموند فرويد فيعلن أن الجنس والرغبات الجنسية المكبوتة منها وغير المكبوتة هي دينميكية تاريخ الإنسان وبوصلته، وهكذا يلتقي هذان

الفيلسوفان اليهوديان على اعتبار الحس [وهذا بدوره نتاج المادة أيضا] هو وحده جدلية التاريخ

تلك كانت مقدمة لابد منها، كي نتفهم ونفهم الأسباب التي دفعت بالشعب الإيراني إلى الثورة على الشاه على الرغم من المنجزات الضخمة التي حققها الشاه في إيران ولإيران

ثورة الشاه البيضاء

من تلك القواعد الفاسدة انطلقت جميع التيارات الإصلاحية والثورية التي أخذت تعصف بالعالم الثالث وشعوبه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

وقد بلغت التيارات أشدها من العتو والطغيان خلال الخمسينات والستينات من هذا القرن، كان أشد دعاتها تطرفا هم المثقفون الذين نهلوا من الثقافات الأجنبية ماركسية كانت أم ليبرالية، وذلك لأن الديمقراطية الليبرالية بجميع فروعها ولاسيما الاشتراكية منها، تنبع من المادية ذاتها التي تنبع منها الماركسية، ففرنسيس بيكون هو والد ماركس، أما هربرت سبنسر فهو عرابه.

والحق أن تيار الشاه الإصلاحي، لم يشذ عن تلك القواعد. وذلك لأن العلمانية التي ورثها عن أبيه ومارسها طوال عهده قد أبقته رهين سجن الجدلية المادية، الأمر الذي جعله عاجزا عن إدراك الفوارق الجوهرية بين العدل الاجتماعي في الإسلام وبين الاشتراكية التطورية الإصلاحية التي انتهجها في إيران:

منجزات الشاه:

لا خلاف أن الإنسان المادي العقلاني حينما يتأمل في منجزات الشاه ليقف مذهولا أمام ثورة الخميني ونجاحها في خلع الشاه وإسقاط نظامه، وذلك لأنه سيرتبك ويحتار في تفهم أسبابها وفهم سببيتها.

فما حققه الشاه وأنجزه ابتداء بعام ١٩٦١م وانتهاء بعام ١٩٧٧ م لهو والحق ضخم غاية الضخامة وفقا حتى لأي معيار مادي أو ميزان علماني، ووفقا لأي مفهوم اشتراكي أو قاعدة ماركسية.

ففي شهر مايو من عام ١٩٦١م أصدر الشاه مرسوما يقضى بحل المجلس النيابي العشرين، وذلك لأن الشاه وجد أن المجلس المذكور سيعارض حتما مشروع قانون الإصلاح الزراعي الذي ينتوي إقراره وتنفيذه في إيران، فقبل صدور هذا القانون كان ثمة ألف عائلة إيرانية تملك ثمانين بالمائة من الأراضي الزراعية الجيدة. وكانت هذه العائلات تشكل طبقة إقطاعية وأوليغاركية معا وتستأثر بسياسة البلاد وبرقاب العباد، وفي عام ١٩٦٢ أصبح للإصلاح الزراعي قوة القانون.

وقد استفاد من الإصلاح الزراعي مليونان ونصف المليون عائلة، الأمر الذي لم تكن له انعكاساته فقط على البنية الاقتصادية، بل وأيضا على الهيكل السياسي الإيراني ونظامه.

وقد اتبع الشاه الإصلاح الزراعي بقانون يقضى بإنشاء التعاونيات الفلاحية، وتشكلت ما يقارب الثمانية آلاف تعاونية زراعية، فكانت تضم قرابة مليون منتسب، وكانت هذه التعاونيات لا تحصر نشاطاتها فقط في تقديم القروض لتسويق المحاصيل الزراعية، بل تتجاوز ذلك إلى القيام بخدمات اجتماعية من تعليم وصحة وسواهما، ولم يستثن الإصلاح الزراعي الأوقاف الدينية بل شملها أيضا، الأمر الذي دفع بآية الله الخميني إلى معارضة قانون الإصلاح الزراعي شكلا وموضوعا، ورغبة من الشاه في توفير الخدمات الصحية للريف انشأ أربعمائة وحدة صحية وقد أنشأت هذه الوحدات حتى منتصف السبعينات خمسة وعشرين ألف مستوصف في خمس وعشرين ألف قرية من قرى إيران الخمسين ألف : كما قضى الشاه على الجدري والملاريا والطاعون.

أما العمال البالغ عددهم قرابة المليون والذين يعملون في الصناعة المتوسطة والخفيفة والتحويلية فانتظموا في نقابات وأباح لهم القانون ممارسة جميع أنواع النشاط النقابي، كما أصبح لهم سهم لا باس به من الأرباح، أضف إلى ذلك أن القانون اشترط أيضا أن يكون للعمال تسعة وأربعون بالمائة من الأسهم في المؤسسات الصناعية الرسمية، وفرض أيضا تشكيل لجان تحكيم مختلطة من العمال وأرباب العمل لفض المنازعات والبت في الخلافات بين رأس المال والعمل.

وطموحا من الشاه إلى توسيع ميادين الصناعة، أسقط الشاه الضرائب عن المؤسسات الصناعية المنوي إنشاؤها وأعفاها من الرسوم الجمركية وشتى الرسوم الأخرى، وعرض على ملاك الأراضي أن يعوضهم عن ملكياتهم الزراعية المنزوعة لحساب الإصلاح الزراعي بأسهم في المؤسسات الصناعية، وعقد الشاه العزم على أن يجعل من إيران الدولة الصناعية السادسة في العالم بعد (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي واليابان وألمانيا وفرنسا)

وهكذا وجدته يدخل بإيران عصر الصناعات الثقيلة، إذ أصبحت إيران بلدا منتجا للسيارات ولبعض المعدات الصناعية الأخرى، كما سار الشاه ببلاده إلى عتبات عصر التكنولوجيا، فاشترى عددا من المفاعلات النووية من فرنسا، ومن ثم تطلع أيضا نحو الاتحاد السوفيتي حيث أبرم مع السوفيت اتفاقا يقضى بمدهم بالغاز لقاء قيام الاتحاد السوفيتي ببناء مجمع من أكبر مجمعات الصلب في آسيا وإفريقيا فجرى تمديد خط الأنابيب الغاز يبدأ بالحقول البترولية الجنوبية وينتهي ببلدة استرا السوفيتية الواقعة على بحر قزوين، وقد بلغ طول الخط المذكور ٧٨٠ ميلا وبلغت طاقة ضخه في عام ١٩٧٥م مليارا ونصف المليار قدم مكعب من الغاز يوميا.

وعلى الرغم من الارتفاع النسبي للضرائب.. فلقد كانت الاستثمارات تجنى قرابة ثلاثين بالمائة من الأرباح، كما أن ارتفاع الأجور والمداخيل والمرتبات لم يكن له سوى الأثر الضئيل في ارتفاع الأسعار، وذلك لأن الشاه استطاع أن يكبح من جماحها.

ومن ثم جاء ارتفاع سعر البترول ليزيد في طموح الشاه طموحا، فلقد جن الشاه بأمرين لا ثالث لهما ألا وهو التسلح والتصنيع، فلقد كان في هذين الميدانين لا يتسابق والزمن.

بل كان يسبقه في كل شوط ورغبة منا في إيضاح القفزات الهائلة التي قفزتها إيران في عهد الشاه سنكتفى بضرب المثل التالي:

بلغت المبالغ المرصودة للخطة السبعية ابتداء بعام ١٩٤٩م وانتهاء بعام ١٩٥٦ م ثمانية وستين مليون دولار، قفزت المبالغ المرصودة للخطة الخمسية ابتداء بعام ١٩٧٣ م وانتهاء بعام ١٩٧٨م من ثمانية وستين مليون دولار إلى سبعين إلف مليون دولار.

وفي عام ١٩٦٢م شن الشاه حملات كاسحة على الأمية وقد أشرك الجيش في هذه الحملات فكان يفرض على المجندين من المتعلمين الذهاب إلى القرى وتعليم الأميين من الفلاحين.

وقد أنشأ الشاه أيضا أربعا وأربعين دارا للمعلمين وثمان جامعات وبلغ عدد الطلاب الجامعيين في عام ١٩٧٠ م مائة ألف طالب بالإضافة إلى ثلاثين ألف طالب كانوا يتلقون علومهم في الخارج، كما بلغ عدد المدارس المهنية والتقنية مائة مدرسة.

ولكن الشاه مع جميع هذه الانجازات الرائعة في ضخامتها لم ينج من اللعنة النازلة اليوم بمعظم بلدان العالم الثالث وأعني بهذا تضخم العاصمة على حساب القرى والبلدان والريف بصورة عامة، فلقد كانت طهران تنتج ٥١ بالمائة من مجموع ما تنتجه إيران من السلع، وكانت تستأثر بثلاثة وثلاثين بالمائة من جميع الأموال المستثمرة في إيران، وكان ستون بالمائة من جميع الأجور والمرتبات في إيران يتقاضاها العاملون والموظفون في طهران، وكان ثلاثون بالمائة من جميع المشاريع الإيرانية تقوم في طهران وكان في العاصمة ثلاث جامعات هي جامعة طهران وجامعة إيران الوطنية وجامعة أريامهر الصناعية.

وقد كلف الشاه زوجته الإمبراطورة فرح ديبا، بوصفها مهندسة فيما مضى بالإشراف على وضع مخطط طهران بحيث يجعلها تتسع لخمسة ملايين من السكان.. ولكن الأحداث تشاء أن يتجاوز عدد سكان طهران الخمسة ملايين نسمة قبل أن يوضع ذلك المخطط موضع التنفيذ

هل بالخبز وحده:

ذلك غيض من فيض من منجزات الشاه، بل روائعه التي ستجلوها يد التاريخ وسترغم كل مؤرخ علماني، وكل باحث مادي المذهب على التساؤل، بل التسليم بأنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

فالفقر قد يكون الديناميت، ولكن تفجيره يكون ويبقى بحاجة إلى صاعق.. وقد ثبت لكل متأمل موضوعيا في التاريخ، ولاسيما تاريخ نشوء الدول وتجسدها وازدهارها وسقوطها، أن هذا الصاعق كان ومازال صاعقا من صنع الروح وحدها لا من صنع المعدة أو رغائب الجنس.

ومن العجب العجاب أن هذه الروح ليست قادرة فقط على تفجير الديناميت. بل وقادرة أيضا على تبديل طبيعة الديناميت المتفجرة تبديلا كليا، إذ أنها تحيله، إذا اخلص الحاكم والمحكوم للحق وحده إلى زخوم هائلة تدفع لا بل وتطير بالأمم إلى أهدافها بسرعة مذهلة لا مثيل لها إلا سرعة الإسلام في صدره، وذلك لأن الكادح إلى ربه كدحا يحيل حتى الطاقة الهدامة إلى قوة تتسامى به إلى بارئه.

وهذا ما جهله الشاه أو تجاهله حينما انساق في طريق العلمانية وهجر الإسلام.. وقد يقوم أحد العلمانيين أو المتعالمين فيقول أن خطوات الشاه في تسارعها نحو التصنيع، ونحو إنشاء مجتمع صناعي لم تواكب تطور الإنسان الإيراني، بل خلفته وراءها أشواطا وأشواطا، الأمر الذي اضطر معه المواطن الإيراني إلى الحرون ومن ثم إلى الانتفاض فالثورة.

وقد يستطرد مثل هذا المتعالم فيقول: الشاه قد سبق زمانه، وأن من عادة الشعوب أن تصلب من يسبقها من أبنائها.. ولكن.. ولكن ما قول هذا المتعالم بالماركسية القائلة بأن سياط الحتمية تسوق دائما الشعوب وتبلغ بها أهدافا ما كانت تحلم ببلوغها أبدا من قبل؟

ألا يرى معي هذا المتعالم أن الماركسية حينما تقرر ذلك تهدم أهم أركانها، وهو الاقتصاد؟

فتلك الحتمية التي تقول بها الماركسية، وهي تحريف لمفهوم كلمة الإيمان لأن الإيمان كما نعلم جميعا لا يتدفق أبدا من المعدة، بل ينبع فقط من ضمير الإنسان، وأن السبب كل السبب وراء نجاح ماوتسى تونج في الصين هو براعته في تحويل الحتمية الماركسية إلى نوع من إيمان بنوع من دين، ولكن مثل هذا النوع من الإيمان الذي يمثل هذا النوع من الدين لا يستمر طويلا ولا يعمر، إذ سرعان ما تخبو جذوته كما نشهد الآن في الاتحاد السوفيتي، إذ أننا نرى أن معظم أبناء الأجيال الذين ولدوا وترعرعوا وشبوا في ظلال الماركسية، هم الذين يشكلون اليوم جيلا أو بالأحرى أجيالا لرفض للماركسية والسوفيتية معا.

وهم المتمردون على الشيوعية مثلا أعلى ونهجا، فالرغيف ضروري، ولكنه غير كاف البتة لإشاعة الراحة والطمأنينة اللتين يشيعهما الدين والإيمان بالله، كما أنه غير كاف البتة للحفاظ على زخومية الأمة والتصاقها بقادة لا يوفرون لها سوى ضرورات العيش، ويمنعون عنها جميع ضرورات الحياة، وشتان ما بين العيش والحياة، أي شتان ما بين اللذة والسعادة.

جميع هذه الحقائق جهلها الشاه وذلك لأن جميع منجزاته كانت تستنفر المعدة وتخدر الروح، وكانت دائما مرفوقة بجهود تهدف إلى طمس إيمان الشعب الإيراني المسلم دون أن تقدم له بديلا لإيمانه الأصيل بالإسلام، لذلك كانت ترغمه على العمل، ولكنها كانت دائما تفشل في استنفار حماسته إي إيمانه بما يعمل.

ولما كانت تربة شعوب الشرق تربة مستعصية على جذور المادية وكان التسامي وحده هو مولد زخومها لذلك جاء ما بذره الشاه وزرعه دون جذور فهوى حالما هبت عليه رياح الإسلام.

فالإيمان لا يصنع المعجزات فقط، بل يحافظ على استمرارية العمل ويزود الأمة بأنفاس أبدية أيضا.

وليس الحس أو الحواس هي وعاء الإيمان فكل شيء يفقد قداسته، حالما يدخل عالم المحسوس، وهكذا فان حياة الشاه ومصيره كانا أصدق برهان على أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وعلى أن الإيمان هو القوة الوحيدة القديرة على الاجتياز بالأمة النقطة الحرجة في مراحل تطورها.

وأن أفضل السبل لإيقاظ إيمان الأمة هو ممارسته لا الدعوة إليه فقط: فإن يستشهد المرء في سبيل ما يؤمن، أسهل بكثير من أن يعيش وفقا لمنطوقه. هذا ما سبق أن قاله ذلك الفيلسوف الروماني سنيكا.

أضف إلى ذلك أن للإيمان رفيقا وحيدا ألا وهو الحرية.. فليس الإيمان فعل إرغام. بل فعل حر، ومثل هذا الفعل لا يشترى برغيف ولا يتحقق بإكراه ذلك هو السر وراء سقوط الشاه ونظامه فعلى خشبة الحرية ستصلب المادية فلسفة ونهجا.

إيران والآيات.. بين مد وجزر:

من سوء طالع الشاه أنه بلغ المنعطف الحاسم في مصيره، حينما لم يكن حوله أولئك المستشارون الأعلام كقوام السلطنة وسيد زيا وحكيمي وعلم والجنرال فضل الله زاهدي.. وسواهم من دهاقنة السياسة في إيران.

فآنذاك كان الموت، أو الشيخوخة أو النزوة أو الغطرسة أو هذه كلها مجتمعة قد شتت شملهم وأحلت محلهم أغرارا بارعين في استقراء ما يرتاح إليه الشاه، وأبرع من ذلك في ترديده على مسمعيه.

وهكذا وجدتهم يضغطون بالتاج على رأس الشاه، ورأيت رأسه بغوص أعمق فأعمق داخل تاجه، فيحجب الحقائق عن ناظريه، فيضطر الشاه للاستعاضة عن عينيه بعيني منافق أو وصولي أو خنوع.. إنها والحق المأساة، مأساة كتبها الغباء وأخرجتها النرجسية ومثلتها المكابرة والغرور.

ولا خلاف أنه عندما ينفض الحكماء من حول الحاكم، أو يفض الحاكم الحكماء من حوله، حينئذ يستسلم الحاكم والحكم معا لنفاق الحاشية، وترهل البيروقراطية وأجهزة التضليل والقمع.

وهنا يصبح الاستهتار لا الاستدراك أسلوبا للتعامل مع الأحداث ولغة للتخاطب مع البشر. ولذلك يغدو التأرجح بين المد والجزر أسلوب الحاكم في تعامله والأزمات ولغته في تخاطبه والبشر، وهكذا ترى مثل ذلك الحاكم يعمد إلى التطرف في اللين وحينا إلى التطرف في العنف، الأمر الذي كان الطابع المميز لأسلوب الشاه طوال سنتي الأزمة التي انتهت بسقوط عرشه واندثار نظامه.

الرحيل والانهيار

حين اشتدت الاضطرابات السياسية في إيران، أُرغم الشاه محمد رضا بهلوي على مغادرة إيران بغير رجعة، إثر مظاهرات عارمة واضطرابات شعبية هائلة في العاصمة طهران نشبت ضد الاضطهاد والظلم وإثر سياسة منع الحجاب وتغيير التعليم، فقرر شاه إيران الرحيل لتجنب إراقة الدماء، فيما كان يعاني مرضاً خطيراً استوطن في جسده بعد ذلك..

حاول الشاه الذهاب إلى أوروبا، ولكنها رفضت استقبال طائرته وتوالى رفض باقي السفارات، إلى أن نزل الشاه بطائرته في أسوان في ١٦ يناير 1979 واستضافه الرئيس أنور السادات الذي كان على علاقة جيده مع الشاه منذ نهاية الستينات.

وفي مصر، حرص السادات على أن يقدم لضيفه مراسم استقبال تليق برؤساء الدول مع السجادة الحمراء عند باب الطائرة واستعراض حرس الشرف.

نزل الشاه وزوجته في فندق أوبروي المبنى على جزيرة وسط النيل بأسوان. سعى الشاه وزوجته معًا للجوء إلى المغرب بدعوة من الملك الحسن الثاني، ولكن اضطر الشاه أن يغادر المغرب ولكن اضطر الشاه أن يغادر المغرب أيضا لأنه أراد ألا يسبب المتاعب لملك المغرب مع النظام الإيراني الجديد.

طلب من طاقم طائرته الملكية العودة بالطائرة إلى إيران على أن الطائرة ملك للشعب الإيراني وغادر المغرب على طائرة الملك الحسن الثاني الخاصة إلى جزر البهاما ثم إلى المكسيك التي أقام فيها عدة أيام، حيث تعرض فيها لمحاولة اغتيال، وذلك وفقا لما نشرته الأهرام يوم ٢٨ يونيو 1979 بعنوان «هليكوبتر تهاجم بالرشاشات قصر شاه إيران في المكسيك»

ونظراً لحالته الصحية الحرجة طلب من الولايات المتحدة السماح له بالعلاج لديها فسمح الرئيس الأمريكي جيمي كارتر بعد أن تبيّن أن حالته الصحية حرجة للغاية.

قضى الشاه بعض الوقت في قاعدة حربية أمريكية في تكساس، ولكن الشاه اضطر مجبراً على مغادرة الولايات المتحدة بعد احتلال الثوار الإيرانيين السفارة الأمريكية في طهران في ٤ نوفمبر1979 م واحتجزوا ٥٢ أميركياً من سكان السفارة كرهائن مطالبين بتسليمه مقابل الإفراج عن الرهائن الأمريكيين. ما جعل الولايات المتحدة في وضع حرج مع الشاه وتطلب منه سرعة مغادرة أراضيها خوفا على رعاياها.

وبالمناسبة ظلت الأزمة قائمة حتى بعد وفاة الشاه، إلى أن أفرج عن الرهائن الأميركيين في ٢٠ يناير 1981 بعد اتفاق بين واشنطن وطهران بوساطة جزائرية بعد 444 يوماً من الاحتجاز.

وعندما أراد الشاه أن يعود إلى المكسيك من حيث أتي، وجد أن كل الأبواب مغلقة أمامه، وبعدها توجه إلى بنما التي لم يستطع الإقامة فيها مدة طويلة.

البناميون تمسكوا طوال الوقت بأنهم لن يسمحوا لأي طبيب أجنبي لا يحمل ترخيصاً رسمياً بأن يمد مشرطاً إلى جسد الشاه، ولهذا خرج الشاه من المستشفي وسط حراسة مشددة جداً ومخاوف من احتمال أن يدس له بعضهم السم، فاختار أن يغادر قصره وأراضى بنما كلها إلى مصر.

ولقد ضاقت الأرض على الشاه بما رحبت إلا من الرئيس المصري الراحل أنور السادات الذي استضاف الشاه في مصر ومنحه ملاذا بها وخصص له قصر القبة لكي يقيم فيه عام 1980، وتغاضى الرئيس السادات عن المظاهرات الشعبية الغاضبة التي قامت في مصر ضد قراره بإيواء الشاه.

** وقد أكد الرئيس الراحل محمد أنور السادات في إحدى خطبه الشهيرة عن مدى امتنانه للشاه محمد رضا، حيث قال إنه قبل حرب أكتوبر لم يكن في مصر فائض من البترول يكفيه ١٥ يوما فقط، وحين طلب من الزعماء العرب لم يرفضوا، ولكن لم يبالوا بخطورة الموقف، إذ طلبوا منه أن يرسل وزير النفط المصري، وبعدها بشهور يرسلون البترول، فرد قائلًا : "هم مش على بالهم ومرتاحين"، لكن شاه إيران لم ينتظر حينما طلب السادات منه مساعدته، فأرسل سفن البترول التي كانت تتجه إلى أوروبا لترسو في ميناء الإسكندرية وتزود مصر بالنفط الإيراني، وشدد على دوره الكبير في دعم مصر بالبترول اللازم للدولة والجيش في فترة الحرب ضد العدو الإسرائيلي.

وأشار السادات أيضا إلى أنه طلب من الرئيس الليبي الراحل معمر القذافي إمداده بالبترول استعدادًا لحرب أكتوبر إلا أن الرئيس القذافي رفض ذلك الطلب!!

** وصدر عدد الأهرام في يوم ٢٥ مارس ١٩٨٠بعنوان رئيسي يقول «السادات يصحب الشاه من المطار إلى مقر علاجه بمستشفى المعادي»، ونقل مراسل الأهرام رد الرئيس السادات عندما سئل الشاه عن مدة إقامته في مصر، «هل ستبقى في مصر بصفة دائمة، فرد الرئيس السادات على الفور (نعم)»، أما عدد ٢٦ مارس من ذات العام، فقد جاءت عناوينه بتصريحات نارية من الرئيس السادات، «السادات: قراراتنا

تنطلق من روح الإسلام الحقيقي وليس إسلام الخميني» و «من يريد الصراخ فليصرخ لآخر العالم، ولكننا لن نأبه لذلك على الإطلاق» و«الشاه يقبل الدعوة للإقامة الدائمة في مصر».

وتألف الفريق الطبي المتابع لحالة الشاه في مصر من ١٥ طبيبا مصريا وخمسة أطباء فرنسيين. وظلت حالته الصحية تتأرجح ما بين التحسن والتدهور، حتى وافته المنية

جدير بالذكر انه حينما أُعلن قيام الثورة الإسلامية في إيران، كان الرئيس السادات من أشد المهتمين بدعم عرش الشاه والحفاظ على حكمه، لدرجة أنه قطع محادثاته في كامب ديفيد ذات يوم ليتصل به ويعلن مساندته له، وأُرغم الشاه على مغادرة إيران للمرة الثانية، ولكن هذه المرة بغير رجعة، ليتسلَّم الخميني الحكم بعد عودته من منفاه في فرنسا 1979

** توفي في القاهرة في ٢٧ يوليو 1980 بمستشفى القوات المسلحة بالمعادي بعد صراع مع مرض سرطان الغدد الليمفاوية عن عمر ناهز ٦١ عاما.

وقد أقام له الرئيس المصري الراحل السادات جنازة عسكرية مهيبة من قصر عابدين وعزفوا السلام الإمبراطوري الإيراني، وحمل النعش ملفوف بعلم إيران فوق عربة مدفع يجرها ثمانية من الخيول العربية وشارك فيها ولي عهده رضا بهلوي الثاني والرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون وملك اليونان السابق قسطنطين الثاني وسفراء عدة دول ودفن في المقابر الملكية بمسجد الرفاعي بنفس الغرفة التي كان مدفوناً بها والده رضا بهلوي عام 1944 قبل نقله إلى طهران بعد طلاق الشاه من فوزية بنت فؤاد الأول.

وكتبت جيهان السادات في مذكراتها: "لم تُنظم جنازة رسمية أكبر من هذه، نظم أنور كل شيء بنفسه، مشرفًا حتى على أدق التفاصيل، تقدم الموكب آلاف من طلاب أكاديميتنا العسكرية، كلهم يعزفون الآلات الموسيقية، ويرتدون الزي العسكري الأبيض، والأصفر، والأسود، بحسب رتبتهم، وساروا وراء الجنود حاملين أكاليل الورد والزهور، يتبعهم ضباط راكبين الخيول، ثُم جاءت سرية من الرجال حاملي نياشين الشاه العسكرية، فوق وسائد من القطيفة السوداء، تتقدم النعش الملفوف بعلم إيران".

وكانت تقوم الشهبانوا فرح ديبا بزيارة قبره باستمرار برفقة جيهان السادات زوجة الرئيس الراحل محمد أنور السادات.

وكان آخر شاه يحكم إيران واستمر حكمه من 1941 إلى 1979وكان يلقب بـ (شاهنشاه) أي ملك الملوك.

فبعد عقود من العمل الثوري لأنصار رجل الدين روح الله الخميني، غادر شاه إيران محمد رضا بهلوي في ١٦ يناير/كانون الثاني 1979 العاصمة طهران إلى مصر، وبعدها تسارعت الأحداث وانتصرت الثورة الإسلامية خلال ٣٥ يوما.

وعلى وقع الانتفاضة الشعبية، التي عمت أرجاء البلاد، قال آخر ملوك إيران من مطار مهر أباد إنه "يشعر بتعب منذ فترة وبحاجة إلى استراحة."

ورغم أنه تحدث عن عزمه على العودة إلى أرض الوطن بعد تلقيه العلاج في الخارج؛ إلا أن زيارته إلى أسوان المصرية شكلت بداية النهاية للحقبة الملكية، التي استمرت 2500 عام في بلاد فارس.

وبعد نحو ١٥ عاما قضاها في المنفي بين العراق وفرنسا، عاد الخميني في ١ فبراير/شباط 1979 إلى العاصمة (طهران) على متن طائرة للخطوط الجوية الفرنسية، وكانت في استقباله حشود وصفت بأنها مليونية من المناصرين، وسط مخاوف حقيقية من قيام سلاح الجو الموالي للشاه بتدمير الطائرة فور دخولها الأجواء الإيرانية.

وفي عدد الأهرام الذي صدر يوم ١ يوليو من عام 1979 استنكر الكاتب الكبير أنيس منصور في عموده اليومي «مواقف»، موقف العالم من شاه إيران، فكتب «ما أغنى عنه ماله وما كسب» صدق الله العظيم، فشاه إيران (١٦ مليار دولار) لا يجد مكاناً يأوي إليه، أمريكا بجلالة قدرها ضاقت عنه، وأوروبا أيضاً، حتى البلاد الصغيرة مثل جزر بهاماس والمكسيك، وحتى المغرب طالبت به أول الأمر، ثم أرسل الملك الحسن الثاني سفيره عبد اللطيف عراقي ليقابل الرئيس السادات يستعجل سفره إلى المغرب، فلما سافر إلى المغرب نشرت صحف المعارضة أن المغرب لا يقوى على أكثر من شاه أي الملك الحسن وشاه إيران! فكان لابد للرجل أن يخرج من المغرب، وقيل إن د. هنري كسينجر ودافيد روكفلر قد تدخلا من أجل أن يبقى الشاه بضعة شهور في جزر بهاماس

أو في المكسيك، وقيل إن الإرهابي كارلوس يتعقبه، وأعلن آية الله الخميني مكافأة لمن يقتل الشاه أن يسافر حاجاً إلى بيت الله الحرام؟!، وذهب بعض الساخرين إلى التفكير في إرسال الشاه إلى الفضاء، وعندما نشرت الصحف أن الشاه سوف ينتقل إلى بيت أخته في المكسيك، أعلن أحد أصحاب الملايين الذي يسكن بجوار أخت الشاه أن هذا الخبر كاذب وأنه يهدد حياته، وبعد ذلك: إنها مسألة إنسانية يا عالم قد تجرد من الإنسانية!

** أما عائلته فقد اختار أفرادها مسارات مختلفة؛ منها ما أفضى إلى الموت انتحارًا. ذاك ما انتهت إليه ٤٤ عامًا عاشها علي رضا بهلوي، الابن الأصغر للشاه وزوجته "الشهبانو" فرح؛ فالرجل الذي يصفه موقع المنحة الدراسية التي تحمل اسمه وتكرم ذكراه بـ"الرجل الذي عاش أفضل وأسوأ ما في إيران"، أطلق النار على نفسه من بندقية في الرابع من يناير/ كانون الثاني 2011 في منزله بالولايات المتحدة.

ونقلت صحيفة "الغارديان" عن صديقة مقرّبة له تدعى فارديا بارس، أن الراحل دخل في اكتئاب عميق بعد العثور على شقيقته ليلى جثة هامدة في غرفة بأحد فنادق لندن نتيجة "جرعة مخدرات زائدة."

وكانت ابنة الشاه التي عملت في مجال عرض الأزياء قد توفيت صيف عام 2001 عن ٣١ عامًا، وأُفيد بأنها عانت من الاكتئاب. وبحسب بارس، فقد أصبح علي رضا على إثر ذلك شخصًا مختلفًا.

بدورها، نازي افتخاري، التي عملت في مكتب رضا بهلوي في واشنطن، كشفت أن اكتئاب بهلوي "نما بمرور الوقت"، متحدثة في هذا الصدد عن رحيله عن إيران، والعيش في المنفي، إضافة إلى وفاة والده ثم أخته التي كان قريبًا جدًا منها.

في إيران التي بلغها موت علي رضا، لم يكن الحدث يستحق الكثير من التعليق. ويلفت موقع "إندبندنت" إلى أن قناة "برس تي في"، التي تديرها الدولة، أوردت في موقعها: "نجل دكتاتور إيران السابق يقتل نفسه"، فيما أشارت وسائل إعلام حكومية أخرى إلى أن علي رضا هو الثاني من نسل الشاه السابق الذي ينتحر.

علي رضا الذي وُلد في طهران عام 1966 انتقل للإقامة في الولايات المتحدة؛ وهناك درس الموسيقى في جامعة برينستون. ثم بوصفه طالب دراسات عليا في جامعة كولومبيا، انكب على الدراسات الإيرانية القديمة.

وأُفيد بأن دراساته في جامعة هارفرد تناولت تلك الجوانب من تاريخ بلاده، إضافة إلى علم فقه اللغة، لكن "الغارديان" نقلت عن متحدث باسم هارفارد أن علي رضا لك يكن يدرس في الجامعة التي تقع في كامبريدج قرب بوسطن وقت وفاته.

على المستوى الاجتماعي، لم يكن علي رضا بهلوي متزوجًا، غير أن ابنة له وُلدت بعد ٧ أشهر من وفاته.

ويورد مقال نُشر على الموقع الرسمي للملكة السابقة فرح بهلوي حدث احتضانها الطفلة إريانا للمرة الأولى بوصفه أحد "لحظات السعادة والعاطفة في حياة الإمبراطورة في المنفي."

وأكدت فرح في الحديث الصحافي المنشور أن طفلة كل من علي رضا بهلوي وراها ديديفار "تحمل الاسم واللقب نفسه الذي تحمله بنات عمها رضا: نور وإيمان وفرح"، قائلة: "إسمها إريانا بهلوي، وهي أميرة".

محمد مصدق

ولد محمد مصدق في عام ١٨٨٠ في مدينة طهران ولعائلة لم تكن مستجدة في شئون السياسة ولا في شؤون الوظائف والحكم وبعد أن أنهى دراسته الثانوية ثم حصل على شهادة البكالوريوس في الفنون ثم الماجستير في القانون الدولي من معهد الدراسات السياسية بباريس، ثم حصل على درجة الدكتوراه في القانون من جامعة لوزان بسويسرا.

بدأ تجربته السياسية وهو في الرابعة والعشرين حيث انتخب نائباً عن أصفهان في البرلمان الإيراني عام ١٩٠٦، قبل أن يسافر للدراسة.

ولما عاد إلى بلاده عين عام ١٩١٤ حاكما عاما لمقاطعة فارس وقد شغل هذا المنصب حتى عام ١٩١٩ وعندما استولى رضا شاه على السلطة عينه وزيرا للمالية ومن ثم وزيرا للخارجية وفي عام ١٩٢٣ انتخب نائيا في مجلس النواب.

وعندما رفض علماء الدين مشروع الجمهورية الذي عرضه رضا شاه وأصروا عليه بتتويج نفسه شاها جديدا وخوله المجلس السلطة المطلقة عارض مصدق انتخاب رضا خان "شاها" لإيران، فأجبره الشاه على اعتزال الحياة السياسية.

انسحب محمد مصدق من الحياة العامة كليا، وابتعد عن السياسة وكواليسها وانزوى في بيته حتى عام ١٩٤٤ حيث انتخب عضوا في مجلس النواب وذلك بعد خلع الحلفاء رضا بهلوي من عرشه وتنصيب ابنه ولى عهده خلفا له.

وفي مطلع عام ١٩٤٦م أخذ الاتحاد السوفيتي يضغط الضغط الشديد على إيران بغية حصوله على امتيازات للتنقيب عن البترول في المناطق الشمالية على غرار الحقول الممنوحة لبريطانيا في الجنوب.

فتصدى مصدق النائب البرلماني للضغوط السوفيتية وقاومها بكل شجاعة.. الأمر الذي أحاطه بهالة شعبية براقة ووفر له فرصة دخول الحياة السياسية من أوسع الأبواب.

وبعد أن تجاوزت إيران الضغوط السوفيتية ركز مصدق جميع نشاطاته داخل المجلس النيابي وخارجه على الدعوة إلى تأميم شركة البترول الانجليزية – الإيرانية.

وقد تعزز دوره السياسي حين أسّس "الجبهة الوطنية" –عبر طيفٍ واسع من الإيرانيين العلمانيين– واستطاع عبر نوابها في البرلمان تمرير قانون تأميم النفط الإيراني. فأقر المجلس في شهر آذار من عام ١٩٥١ قانونا يقضى بتأميم الشركة المذكورة وبذلك أصبح مصدق النجم الأول في إيران وقطب الرحى في حياتها السياسية وأصبح له من التأييد الشعبي ما أرغم الشاه على تعيينه رئيسا للوزراء.

وبدأ يتولى بنفسه ترتيب الأوضاع الجديدة، ولم يلبث إلا قليلاً حتى اصطدم بالشاه ومن ورائه بريطانيا.

فانتزع حق تعيين وزير الحرب من يد الشاه بدعم شعبي هائل، وغيَّر اسم الوزارة إلى وزارة الدفاع، وخفض ميزانيتها وفصل عددا من الضباط في عملية تطهير.

وعيَّن لجنة برلمانية للبحث في مدى قانونية عمليات شراء الأسلحة السابقة، ثم خفض مخصصات القصر ومنع الشاه من التواصل مع السفراء الأجانب ووضع الجمعيات الخيرية الملكية تحت الرقابة القانونية.

واستمر صراعه مع الشاه على تطوير الحكومة الإيرانية فأصدر الشاه أمرا بإقالته من منصبه كرئيس لمجلس الوزراء عام ١٩٥٣، الأمر الذي ألهب الشارع الإيراني وخرجت الجماهير المؤيدة لمصدق إلى الشوارع مدافعة عنه، مما أجبر الشاه على مغادرة البلاد.

لكن غيابه عن عرشه لم يتجاوز أياما معدودة.. حيث أعاده انقلاب عسكري شبه شعبي إلى قصره فاعتقل مصدق وقدمه إلى المحكمة وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات بتهمة الخيانة العظمى.

وعلى مدى شهور عدة حاولت أميركا إثناء مصدق عن قرار تأميم النفط الإيراني لكنها فشلت في ذلك، أما البريطانيون الذين مثّل لهم النفط الإيراني الرخيص طوق نجاة بعد الحرب العالمية الثانية، فقد أدركوا من البداية أن مصدق لن يتنازل عن أحلامه بعد أن وجد هذا الدعم الشعبي الجارف.

وفي عملية أطلق عليها "عملية أجاكس" تعاونت المخابرات الأميركية مع نظيرتها البريطانية على الإطاحة بمصدق وإعادة الشاه إلى عرشه بعد خروجه من إيران، وتضمنت

العملية قصف منزل مصدق، فاضطر للهروب ثم ألقي القبض عليه، وأُعلن أن قائد الجيش فضل الله زاهدي هو رئيس الوزراء الشرعي الذي عيَّنه الشاه.

وبعد أن أمضى مدة الحكم فرضت عليه الإقامة الجبرية في منزله.. حيث بقي حتى وفاته في اليوم الخامس من شهر مارس من عام ١٩٦٧

مصدق ينتصر في الجولة الأولى

في صبيحة أحد ايام شهر اغسطس من عام ١٩٥٣ قرع الضابط في الحرس الامبراطوري العقيد نصيري باب مصدق وسلمه أمرا امبراطوريا يقضى بإقالته من منصبه كرئيس المجلس الوزراء، ومن سخرية الأحداث أن العقيد نصيري هذا أصبح فيما بعد رئيسا لجهاز السافاك جهاز المباحث الإيرانية.. وقد اشتهر بقسوة اجراءاته وشراسة سلوكه وكان في طليعة القافلة الأولى من القوافل التي أعدمها الخميني.

رفض مصدق الامتثال لأمر الشاه واحتكم إلى الشارع الايراني فالتهبت طهران واشتعلت إيران وتدفقت الجماهير سيولا في الشوارع وحطمت تماثيل والد الشاه.

وتعالت الاصوات مطالبة بخلع محمد رضا بهلوى.. واعلان الجمهورية ووقفت القوات المسلحة شعب الشاه وأمته تتفرج على ما يحدث من وراء أسوار ثكناتها فالغضب الشعبي كان أشد وأقوى بكثير من أن يترك لها فرصة الانتصار للشاه أو للتعبير عن ولائها لنظامه حتى داخل ثكناتها.

وهكذا وجد الشاه نفسه مضطرا لمغادرة إيران تاركا لأخطاء مصدق وباطنية آية الله الكاشاني ورعونة اليسار الايراني مهمة انقاذه من المأزق الخطير الذي آل اليه.

انتصر مصدق على الشاه في الجولة الأولى لكن انتصاره لم يكن بالضربة القاضية الامر الذي أتاح للشاه ولأعوانه فرصة لالتقاط أنفاسهم واستغلال أخطاء العهد الجديد واللعب على التناقضات القائمة بين أركانه والكر على مصدق من جديد ويجدر بنا هنا بغية فهم ثورة الخميني وتكتيكها البارع وتفهم دهاء قائدها ومكره ومن ثم عوامل انحرافها عن الجادة.

ويجدر بنا أن نتطرق الى السببين الرئيسيين الكامنين وراء انتصار مصدق والى السببين الآخرين في هزيمته المنكرة أمام الشاه

سبب الانتصار:

لا خلاف أن السبب الأول والرئيسي الكامن وراء انتصار مصدق يعود الى براعته الفائقة في توحيد كافة الشعوب الإيرانية ولاسيما جماهير طهران حول شعار واحد كانت له صفة الشمول وقدرة خارقة على استهواء الجميع وحشدهم، وأعنى بهذا شعار «تأميم شركة الانجلو إيرانية»

وذلك لأن هذا الشعار كان يعني بالنسبة للإنسان الإيراني بصورة عامة التحرر من السيطرة الأجنبية لا في الارتفاع بعائدات البترول بغية الارتفاع بالمستوى المعيشي للفرد، ولهذا السبب كان ذلك الشعار يعبر من حيث الواقع عن تطلعات روحية إلى التحرر والحرية.. لا عن تطلعات الى معيشة أفضل فكان بذلك ذا مغزى ميتافيزقي لا مادي الأمر الذي حقنه بزخوم هائلة جمعت بين المؤمن والملحد بين المحافظ والراديكالي بين رجل الدين ورجل السياسة بين المسجد والجامعة بين أبناء المدن وأبناء الارياف.

وهكذا وجدت القوات المسلحة الإيرانية أنها لا تستطيع التعبير عن ولائها للشاه بأكثر من اتخاذ موقف الحياد بين الشاه ومصدق الأمر الذي كان سيستغله الخميني مستقبلا فيما بعد إلى أبعد الحدود وكان سينجح كل النجاح في استغلاله

أما السبب الثاني وراء انتصار مصدق فهو سبب خارجي محض، ويعود إلى طموحات الدولتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وإلى خططهما الرامية الى السيطرة على الكرة الارضية والتحكم بمصائر شعوبها.

لقد أسفرت الحرب العالمية الثانية عن تجسد دولتين عظميين هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وعن تدهور بريطانيا وفرنسا واستقرارهما في المرتبة الثالثة لا المرتبة الثانية. كما قد يخيل إلى البعض.

وما كادت الحرب المذكورة تضع أوزارها حتى أسفر الاتحاد السوفيتي عن وجه استعماري واضح.. وصورة طبق الاصل عن الوجه الذي كان للاستعمار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أي الاستعمار المعتمد القوة المادية العارية اسلوبا وحيدا للتعامل والشعوب، إذا خرجت على المسارات المرسومة لها.. ولنا فيما حدث في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وفي أفغانستان وأخيرا في بولندا الادلة القاطعة.

أما الولايات المتحدة الأمريكية فإنها تختلف عن الاتحاد السوفيتي إسلوبا ولكنها تلتقي معه غاية وهدفا.. علما بأن منطلق الاتحاد السوفيتي هو الرغبة في السيطرة بينما حافز الولايات المتحدة هو الرغبة في الربح.. لذلك فإن العوامل الاقتصادية المحضة هي التي تحدد السياسة الامريكية بينما العوامل السياسية أو ما يسميه اليساريون بالعوامل الايديولوجية هي التي تحدد سياسة التجارة الخارجية السوفيتية وعلاقاتها الاقتصادية ببقية أقطار العالم خارج الامبراطورية السوفيتية.. لذلك فان للسلعة السوفيتية سعرا سياسيا بينما أن للسلعة الامريكية سعرا اقتصاديا محضا.

هذا استهلال لابد منه بغية فهم خلفيات السبب الثاني أي السبب الدولي وراء انتصار مصدق.

والحق أن الحرب الباردة التي دارت رحاها بين الولايات الأمريكية وبين الاتحاد السوفيتي كانت باردة تماما.. لكن الحرب الخفية التي دارت بين أمريكا وحلفائها من بريطانيا وفرنسا وسواهما كانت حربا شديدة الحرارة اقتصاديا وسياسيا.

فالولايات المتحدة الأمريكية اعتبرت نفسها في أعقاب الحرب العالمية الثانية الوريث الشرعي للإمبراطوريات البريطانية، والفرنسية والايطالية واليابانية.. وهي لم تكن ترغب في وراثة تركاتها السياسية.. من سيطرة وحكم مباشرين، بل فقط في وراثة كل ما لبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان من مصالح واستثمارات اقتصادية ولذلك صاح تشرشل بعد هزيمة حزب العمال وتعيينه رئيسا محافظا للوزراء وقال غاضبا: لم أتسلم هذا المنصب كي أصفي الامبراطورية البريطانية.

ولما كانت إيران في عهد مصدق، بلدا يكاد يكون مغلقا في وجه الجميع ماعدا بريطانيا وكان مصدق أبرز القادة الذين تصدوا لمحاربة طلب السوفييت امتيازات للتنقيب عن البترول في المناطق الشمالية الايرانية.. لذلك كانت الولايات المتحدة الأمريكية تنظر إليه بعين العطوف.. بدليل الاستقبال الذي لاقاه في زيارته لواشنطن بعد تأميمه لشركة البترول الأنجلو إيرانية وبدليل تبنيه الكونسريتوم الذي تشكل لإنتاج البترول الإيراني وتسويقه بعد هزيمة مصدق وعودة الشاه وبدليل اتخاذ الشاه بعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية محورا وحيدا تدور عليه سياسته الاقتصادية والتسليحية والخارجية.

ولكن لماذا خذلت الولايات المتحدة الأمريكية مصدق وتخلت عنه كما خذلت الشاه فيما بعد حيث أنها لم تسمح للشاه حتى بالإقامة في أراضيها

أسباب فشل ثورة مصدق

عرف تاريخ إيران الحديثة فقط ثلاثة أحداث ضخام.. الأول والثالث يشكلان منها منعطفين حاسمين في مسارها التاريخي .ولهما مفهوم الحقبة بكل ما لكلمة حقبة من مفهوم تاريخي.

أما الثاني منها، فهو بمثابة مفترق طرق بلغة النظام الشاهنشاهي في عهد وزارة مصدق ولم يحاول الشاه أن يستفيد من نُذره ومؤشراته الاستفادة التي تستوجبها بصيرة الحكم ورؤية الحاكم.

الحدث الأول يتمثل في استيلاء رضا شاه أو رضا بهلوي على عرش فارس وخلع أحمد شاه وطرد سلالته سلالة القاجار من البلاد، وابتداع عائلة مالكة جديدة، هي «عائلة بهلوي» وتبديل اسم بلاده من اسم فارس إلى إيران.

أما الحدث الثالث فيتمثل في ثورة الخميني المسماة بالثورة الإسلامية.

إن وراء هزيمة مصدق سببين وهما أيضا داخلي وخارجي وإن للسبب الداخلي جذورا ثلاثة هي:

١/ أخطاء مصدق

٢/ باطنية آية الله الكاشاني

٣/ رعونة اليسار الإيراني

والحق أن سقوط مصدق ليقدم لنا الأمثولة لا بل المقولة القائلة إن التفاف الشعب حول أية حركة هو الضامن الوحيد لنجاحها وبقائها.. وأن انفضاض الشعب من حولها يستتبع فورا سقوطها وزوالها.

ولقد وعى الخميني في مطلع ثورته هذه الأمثولة.. ولكن خمرة السلطان وشهوة الانتقام قد طمستا أمام ناظريه عظات تلك الامثولة وعبرها

١/ السبب الداخلي:

لم يكد مصدق يرى إيران بدون شاه حتى اندفع محاولا أن يكون إيران والشاه معا، فالشعب قد كرسه حاكما وحزبه كرسه شعبا، فأصبح أي نقد يوجه إليه حتى الصديق العاقل تعتبره الجبهة الوطنية تجنيا على الشعوب الايرانية.

ومن المحزن أن انتصار مصدق قد حرر أنصاره وأتباعه وحواشيه من كل كابح أو قيد.. فانطلقوا يوسعون في صفوف الجبهة الوطنية وشرعوا أبواب حزبهم أمام كل نهاز للفرص.. فتحلق حول مصدق الاتباع لا الأنصار، والعبيد لا الأحرار، فكانوا بذلك لا يزيدون كفاءة ولا شجاعة ولا نضالا عن ذباب يحط على قرص عسل، ومن المحزن أن انتصار مصدق أغلق بابه أمام الطموح وشرعها على مصراعيها أمام الطمع فانزوى العاقل، والمناضل وطفا النفعي والجاهل.

وقد أثارت قذارات هؤلاء الذعر في قلوب الفعاليات السياسية.. فرجال السياسة التقليديون رأوا في المتحلقين حول مصدق متطفلين على السياسة، ولكنهم كانوا في نظرهم المتطفلين الذين يشكلون خطرا داهما على مصالحهم ومستقبلهم السياسي.

وليزيد القدر في طين مصدق بلة، اندس في صفوف الجبهة الوطنية شيوعيون ملتزمون بكل شيء ماعدا العقل بالإضافة إلى جميع ضروب الثوريين الذين يمثلون مرضى العالم الثالث وأفاعيه وقد وجد جميع هؤلاء تشجيعا لا بل تحريضا من الاتحاد السوفيتي، على السير بمصدق الى نقطة اللا عودة.. ومنعطف اللا رجوع الأمر الذي دفع بآية الله الكاشاني وبالتيار الذي يمثله إلى إعادة تقويم مواقفه من مصدق وجبهته.. فلم يكن الكاشاني ولا تياره يريد أن ان يكون مصدق قائد الشعب الوحيد وأن تكون جبهته الوطنية البديل للحوزة العلمية والحسينية وهكذا رأى الكاشاني وتياره أن الاستمرار في مساندة مصدق سيسفر فقط عن استبدال العلمانية الشاهية بليبرالية هلامية تتجاذبها الايديولوجيات الوافدة من كل جانب وصوب، وتفوت على آية الله الكاشاني أغراضه فانقض بقضه وقضيضه على مصدق ومد بيديه إلى كل عازم على مقاومة مصدق وإسقاط جبهته الوطنية، وبذلك فقد مصدق القوة الرئيسية القادرة على استنفار الجماهير وتنظيمها في مظاهرات تكتسح شوارع طهران والمدن الايرانية الاخرى.

وهكذا وجد مصدق نفسه مرغما على توثيق تحالفاته مع الفئات الثورية.. بكل أشكالها وأنواعها وأيديولوجياتها لكن هذه الفئات كانت ولا تزال في العالم الثالث تفتقر إلى الجذور في التربة الشعبية وغير ذات أثر أو قدرة على النفاذ إلى وجدان الأمة وضميرها، لذلك كانت عبئا على مصدق وجبهته، وعاملا أساسيا في إضعافه جماهيريا الأمر الذي اتاح لأعدائه الاستفراد به.. وجعل الولايات المتحدة الأمريكية تتخذ قرارها الحاسم بالعودة الى الشاه ونظامه.. فهي حينما عزمت على تصفية المصالح البريطانية في إيران أرادت أن تكون الوريث الوحيد للتركة البريطانية.. لا أن تؤول هذه التركة في نهاية الأمر إلى الاتحاد السوفيتي.

فالسياسة الأمريكية بعد أن اتخذت من التوسع التجاري والاستقرار النقدي والاستثمار الدولي منطلقاتها الرئيسية أصبح لزاما عليها أن توفر المناخ الصحي لهذه المنطلقات الثلاثة بغية الانتقال بها من النظرية الى التطبيق، لذلك وبعد أن زلزلت أركان مصدق الشعبية وأصبح منعطفا خطرا نحو اليسار، غدا من المتوجب ومن السهل أيضا اسقاطه وطى كتابه متنا وغلافا.

تهللت الدوائر البريطانية فرحا حينما علمت بأن الولايات المتحدة الأمريكية قد قررت أخيرا العمل على إسقاط مصدق وعهده.. فمصدق لم يعد يشكل خطرا فقط على المطامع الاقتصادية الأمريكية، بل وأيضا على الاستراتيجية الأمنية الأمريكية في المنطقة.

فلقد علمتها تجاربها والشيوعية الدولية أن الشيوعيين ينادون دائما بإنشاء جبهة وطنية تضم جميع الفئات السياسية المتفقة مرحليا وبعد أن تتألف مثل هذه الجبهة وتستولي على السلطة ينقض الشيوعيون على جميع المتحالفين معهم داخل الجبهة ويصفونهم سياسيا وجسديا.

فالشيوعيون داخل مثل تلك الجبهة ولاسيما في العالم الثالث يكونون من بين فئات الجبهة الفئة الوحيدة ذات الأيديولوجية الواضحة والتنظيم المنضبط والمدعوم بالإمكانات الشيوعية الدولية الهائلة المادية والمعنوية، وعلى مستوى عالمي لا داخلي فقط.

وقد وجدت الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن انكمش تيار آية الله الكاشاني عن تأييد مصدق لا بل وانتقل إلى مناهضته وكذلك فعل ساسة إيران التقليديون أيضا، وبعد أن استقطب مصدق الثوريين واستقطبه الثوريون وجدت أمريكا أن جبهة مصدق الوطنية لن تكون فى نهاية المطاف أفضل مصيرا من الجبهة الوطنية التشيكوسلوفاكية والبولندية ايضا.

ورأت أن مصدق بعد أن اقتلع الكاشاني والساسة التقليديون جذوره وجذور جبهته الوطنية من التربة الشعبية أصبح هدفا قريب المجال يسير المنال.. وأن نفخة هواء لا ريح كافية للإطاحة به جبهة وزعيما

مراسم الدفن:

لا خلاف أن مصدق سقط مصعوقا بتيار آية الله الكاشاني ذلك التيار ذي التوتر العالي فبعد تحول الكاشاني عنه خبا بريقه وماتت جبهته فأرسلت الولايات المتحدة الأمريكية بكبير عملاء الاستخبارات المركزية في الشرق الأوسط المستر كيرميت روزفلت إلى طهران ليضع اللمسات الاخيرة على مراسم تشييع الجنازة وليأمن دفن الميت والمصالح البريطانية معا في قبر واحد.

حط كيرميت روزفلت في طهران واستقبله أردشير زاهدي نجل الجنرال آل فضل الله زاهدى وسار به إلى أبيه واتفق روزفلت والجنرال زاهدي وزير داخلية مصدق سابقا.. على كيفية تشييع الجنازة وعلى الأشخاص المشيعين الذين كانوا خليطا من عسكريين ومدنيين ومزيجا غريبا من زعماء وجماهير دهماء، وانطلق موكب المشيعين من بعض الثكنات والحوزات والحسينية ومن أماكن أخرى نعف عن ذكرها.. وتعالت الهتافات بحياة الشاه وانصبت اللعنات على الميت ولم تتجاوز تكاليف الجنازة وأجور المشيعين المليون من الدولارات الامريكية كان كيرميت روزفلت قد حملها معه إلى طهران.

وبعد فترة وجيزة مرت على دفن الميت استيقظ المنذهلون وهدأ المنفعلون ونهد المحللون إلى التدقيق في الخسائر والأرباح وتحديد هويات الرابحين والخاسرين فتبين لهم أن بريطانيا لم تكن من الرابحين فعاد الوجوم ليعلو الوجوه المتهللة في دواننج ستريت لكن القدر كان يعد لبريطانيا ضربة أشد وأقسى من الضربة التي نزلت بها في إيران.

ففي عام ١٩٥٦ حينما غزت بريطانيا وفرنسا واسرائيل مصر، وجد الرئيس دوايت ايزنهاور ولاسيما وزير خارجيته جون فوستر دللس .. أن الفرصة الذهبية قد حانت لتكنيس النفوذين البريطاني والفرنسي من الشرق الأوسط وكذلك من المغرب العربي أيضا.. ولتسجيل تركات الامبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية باسم الولايات المتحدة الامريكية.

لذلك فإن موقف الإدارة الأمريكية في عهد ايزنهاور وارغامها القوات البريطانية والفرنسية والاسرائيلية على الانسحاب من الأراضي المصرية.. لم يكن انتصارا لشرعة الامم المتحدة والمبادئ الإنسانية في السياسة الدولية.. بقدر ما كان إعلانا عن هوية الوارث الجديد لكافة التركات الأوربية.

الشاه بعد مصدق

خرجت الجموع تستقبل الشاه وامتزجت هتافات المنتفعين بتهاليل المنافقين وصيحات الساخطين بلعنات المتساخطين على مصدق وجبهته.. ودخل الشاه قصر المرمر واستوى على عرش الطاووس وتحلق حوله النفعي والناصح، فكان ذاك يتحدث بلسان الجيب، وكان هذا يتكلم بوجيب القلب.

وتدافع صيادو الفرص بالمناكب يشقون طريقهم الى عتبات العرش فعودة الشاه فرصة لا تتكرر ابدا.. ووقفت الحقيقة عند أسوار القصر، تنتظر من العقل أن يدعوها ومن العبرة أن تستدعيها فهي لا تتطفل، بل تدعى ففي احشائها يتخلق جنين المستقبل من نطفة الماضي وعلقة الحاضر.. وهي التي حبلت بمصدق ثم اسقطته.. وهي التي اسقطت الشاه ثم أعادته لذلك فهي تعظ وتأمر، وعلى الشاه أن يتعظ ويطيع، فهي التي تخلق الواقع، وتحدد مسار الوقائع وليس ثمة سبيل إلى التمرد على أوامرها فمن يتمرد عليها أو يستخف بها يحكم عليه المستقبل بالإسقاط وهي قبل وفوق ذلك كل متكامل لا يقبل التجزيء.

فعلى الشاه أن يأخذ بها ككل أو أن يهملها كليا.. أما إذا اعتقد بأن بعضها قد يحل مشكلته فعندئذ سيحولها عامل الزمن إلى كارثة.

ومن طبيعة الحقيقة أنها حينما تعظ تهمس بعظاتها همسا، لذلك يتوجب أن تكون للشاه أذنان أرهفتهما إرادة العقل لا غطرسة الامبراطور كي لا يسمح بسخط المنافقين بخنق همسات الحقيقة، لأن الحقيقة ستتحول عندئذ إلى واقع يرعد ويزبد ويرجم الشاه بحمم البراكين.

وهكذا وجدت الحقيقة تهمس في أذني الشاه معا.

وتعظه قائلة:

أولا: أن تيار الشعب الايراني يختلف تماما عن التيار الطووى الذي يرتد مارا تحت سطح الماء بعدما تتكسر موجاته على الشاطئ، وذلك لأن هذا التيار لا يرتد أبدا حتى حينما تتكسر أمواجه، بل يتوقف إلى حين كي يراجع حساباته ويعيد حشد صفوفه واستجماع وتنظيم المزيد من القوة والزخوم ومن ثم ينطلق من جديد ومن حيث توقف إلى الأمام.

ولذلك فإن الحاكم العاقل هو ذاك الذي يمتطى تيار الشعوب لا ذاك الذي ينهد إلى صده. معتقدا بأن التيار قد انقطع إلى الأبد بعدما تكسرت أمواجه على شواطئ السلطة.

وتعظه ثانيا: انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، وأن ضمير الامة لا معدتها هو المحرك والموجه للأمة فردا وشعوبا .وهو الوحيد القادر على توفير التناغم والانسجام بينها وبين النظام.

وتعظه ثالثا: أن الإسلام لا العلمانية هو وحده القدير على إشاعة الاستقرار للحكم والرخاء للشعوب الإيرانية، فهو وحده القدير على توفير الخبز للفرد والإبقاء على ضمير الانسان. لا معدته ميزانا للقيم ومنبعا خالدا للزخوم والتسامي، فالضمير هو الذي يضفي العظمة على الرجال والأعمال، أما المعدة فقد تضفي عليهم وعليها، كل صفات الضخامة وشتان ما بين العظمة وبين الضخامة من فوارق.

وتعظه رابعا: أن من عاد بك إلى كرسي الامبراطورية هو حيرة الشعب الإيراني وعدم وضوح رؤيته وكذلك أخطاء مصدق، ولم تعد بك المؤامرة الأمريكية البريطانية ولا

دسائس كيرميت روزفلت ولا حتى جند الجنرال فضل الله زهدي، فحيرة الشعب وعدم وضوح رؤيته للمستقبل يمدان في أجل النظام المحتضر.

وتعظه خامسا: أن العفو من شيم الأقوياء، وأن الشجاعة من شيم الكرام. وأن كل طاغية حقود جبان، وأن الدولة تعاقب ولا تثأر، وتحاور ولا تنهر، وأن أبناء الشعب هم مواطنوك لا رعاياك، وأن منطق الضرورة يجب أن يكون ويبقى خاضعا لمنطق الرحمة.. فهذا هو الفارق الجوهري بين الاستعمار والاستقلال.

وتعظه سادسا: أن من الأهداف الاستراتيجية الأساسية للدول الكبرى أن تعيش أنظمة الحكم في العالم الثالث في غربة تامة عن شعوبها وأن تتحول هذه الغربة من خلال الممارسة إلى عداء مستحكم بين الأنظمة وبين الشعوب بغية إبقاء العالم الثالث متمحورا عليها ودائرا في فلكها، وأن تحقق هذه الغاية مرهون كليا بانسلاخ الشعوب عن انظمتها.

وتعظه سابعا: هناك المنتفعون بنظامك، وهناك المخلصون لعرشك، فلتقرب هؤلاء منك ولتبعد أولئك عنك فهؤلاء هم أركان عرشك، وأولئك هم السوس الذي ينخر أركانه، ويقوض بنيانه.. ولتحذر فكلام أولئك معسول وكلام هؤلاء مرير كالعلقم، ولتختر مرارة الحاضر لأنها عسل المستقبل، ولتنبذ عسل الحاضر لأنه علقم المستقبل لا بل سمومه.. تلك كانت العظات السبع التي همست بها الحقيقة في أذني الشاه فهل اتعظ بها واتخذها دستورا لحكمه ونهجا لسلوكه

مرحلة انتقال:

بعد ان استتب الأمر للشاه، وأخذ يمعن النظر في الأسباب التي أدت إلى انتصار مصدق في الجولة الأولى وإلى هزيمته في تلك الجولة، خيل إليه أنها تعود فقط الى حقائق أربعة:

الأولى: موقف التيار الديني أو بالأحرى العداء المستحكم بين المسجد وبين الامبراطور فهذا التيار كما نذكر هو الذي ارتفع بمصدق ومن ثم اسقطه.

الثانية: ضعف أجهزة الأمن الداخلي، وضرورة ربط القوات المسلحة بالإمبراطور، ربطا عضويا يؤمن انتصارها له في جميع الاحوال والظروف.

الثالثة: النظام الاقتصادي البالي الذي ورثه عن أبيه، حيث أن هذا النظام أمسى بمسيس الحاجة إلى الإصلاح وإلى توسيع ميادين فاعلياته.

الرابعة: ضرورة ايجاد محور دولي يتمحور عليه في السياسة الخارجية ويمده بالعون في سياسته الداخلية ولاسيما في مناهجه الاقتصادية، والاجتماعية والتسليحية والأمنية.

وقد اختار الشاه بحكم طبيعة نظامه، وبحكم الواقع الدولي وبحكم مستوجبات تنفيذ مناهجه، الولايات المتحدة الأمريكية أن تكون ذلك المحور.. عمد الشاه خلال المرحلة الانتقالية إلى معالجة قضايا الاقتصاد الإيراني التعامل، والحقائق الأولى والثانية والرابعة.

فلقد رأى أن الإصلاح الاقتصادي ينبغي أن يسبقه المناخ السياسي والأمني المطلوب. وقد وجد أن النهج العلماني الذي انتهجه والده من قبله، هو النهج الذي ينبغي أن يتبعه ويتابعه ويستمر في السير على هديه.. الأمر الذي جعله يعمد بعد سقوط مصدق إلى سياسة أشد تصلبا وعنفا للتيار الديني.

وقد عزم على حصر نشاطات رجال الدين بالشئون الدينية المحضة، والقضاء كليا على كل ما لهم من نفوذ في الحياتين السياسية والاجتماعية.

فأصدر تشريعا يقضى باستيلاء وزارة التعليم على جميع المدارس التي يملكها ويديرها رجال الدين. واخضاع هذه المدارس على جميع درجاتها لمناهج التعليم الإيرانية.

واتبع هذا التشريع بتشريع آخر يقضي باستيلاء الدولة على مساحات واسعة من الأراضي الزراعية العائد ملكيتها إلى الأوقاف الدينية، بالإضافة إلى نزع ملكية أوقاف عقارات أخرى.

وقد رافق هذه الاجراءات نشاط بوليسي شديد. استهدف قمع العناصر والجمعيات المتعاطفة والتيار الديني، وقد بلغ النشاط البوليسي ذروته بإعدام صفوي زعيم جمعية فدائيان إسلام.

كما استصدر الشاه قانونا يقضي بمعاقبة تجار المخدرات ومهربيها بالإعدام.. وقد أعدم في ظلال هذا القانون عددا عديدا من عناصر المعارضة السياسية بتهمة الاتجار بالمخدرات أو تهريبها.

يتضح مما ورد أعلاه أن الشاه قد أعلن بعد عودته الحرب الشاملة على التيار الديني ومؤسساته، وأعلن أنه لا هدنة أو صلح بين المسجد والامبراطور ولا بين الثكنة والحسينية، وأن الصراع سيستمر ويزداد ضراوة، حتى يقضى أحدهما على الآخر.

ولقد تصدى رجال الدين لمقاومة الشاه وكان أبرز من تصدى له آية الله الخميني الذي ألقى عليه القبض وكاد يحكم عليه بالإعدام لولا تدخل آية الله شريعة مداري.. حيث أمن للخميني الحصول على مرتبة آية الله الأمر الذي أنقذه من الإعدام، فاكتفى الشاه بنفيه إلى تركيا حيث انتقل منها الخميني بعد فترة قصيرة إلى (النجف) في العراق، فامضى في الديار العراقية قرابة ثلاث عشرة سنة منفيا عن بلاده.

قمع لا حوار

عزم الشاه بعد عودته على النهج مع جميع معارضيه نهجا قمعيا لا تصالحيا، فأنشأ دائرة مباحث أمن الدولة التي أصبحت فيما بعد، شهيرة أوسع شهره باسم «السافاك» وكانت لها الأولوية من اهتمامه، فاستدعى الخبراء في هذا الميدان من الولايات المتحدة ومن إسرائيل أيضا، وزودها بجميع المعدات الحديثة من الكترونية وسواها، المرصودة للتجسس على المواطن، ومراقبة نشاطات البشر، وكان للسفاك بندان فى ميزانية الدولة العامة. الأول منهما علني وآخر سري، ومدرج ضمن الاعتمادات المخصصة للبلاط الامبراطوري وقد أطلق الشاه يدها في التعامل مع المواطنين.

وهكذا وجدت السافاك تقوم أحيانا بدور الشرطة والقاضي والجلاد حيث أنه كان من المحظور عمليا –أقول عمليا– على القضاء ردع أو قمع أو معاقبة أي من أفرادها في حالة خروجه على القانون، إذ أن الشاه جعل السافاك من الوجهة العملية مرتبطة ارتباطا مباشر بشخصه.

وكان للسافاك سجونها الخاصة بها وأقبية للتوقيف في مختلف أحياء طهران والمدن الإيرانية الاخرى.. وكان حتى الموظف من الحلقة الوسطى من موظفيها مخولا من الوجهة العملية باعتقال أي مواطن وزجه في السجن، والتحقيق معه وإخضاعه لشتى وسائل التعذيب النفساني والجسدي معا، بحيث أمست تجاوزاتها على القانون وانحرافاتها عن المهمة الأساسية الموكلة إليها، الأمر الطبيعي لا الشاذ.

ولم يمض طويل الزمن حتى أصبح ذكر اسم (السافاك) يثير الرعب في قلب المواطن الإيراني، ولكنه كان في الوقت ذاته يستحث فيه التربص والحقد، ويشحذ إرادة الثأر في اعماقه، ولذلك كان الجنرال نصيري رئيس السافاك، في طليعة القافلة الأولى التي أعدمها الخميني، وقد بقيت جثته ملقاة في أحد شوارع طهران طوال ثلاثة أيام كأنها نفاية تعمد أو أهمل عامل التنظيفات تكنيسها من الشارع.

فالإنسان المواطن لابد من أن يوهب ذات يوم المقدرة على المغفرة أو الانتقام، ولكن نادرا ما يغفر الانتقام سرعان ما.

والحق أن (السافاك) لم تسئ فقط إلى المواطن الإيراني، بل كانت إساءتها إلى الشاه ونظامه أشد ضررا، إذ اصبحت منبرا رئيسيا يعتليه كل معارض أو هدام يتوخى التعريض بالشاه والتنديد بنظامه والتحريض على الثورة.

ومن المحزن أن الشاه لم يفطن إلى أضرار السافاك إلا بعد فوات الأوان بعد اشتعال فتيل الثورة، وصيرورة انفجارها أمرا محتوما.

حيث زج بالجنرال نصيري في السجن، معتقدا بأن اعتقال رئيس السافاك قد يساعد على إخماد البركان.. ناهيك بأن أولى مبادرات شاهپور بختيار آخر رئيس وزراء للشاه جاءت متمثلة في إعلانه عن حل السافاك مؤسسة ونهجا.

ولكن حتى هذه المبادرة كانت أعجز بكثير من أن تمحو ذكرى الجرائم التي طبعتها الحقيقة والمبالغة والاختلاق على أذهان الناس، فالسافاك كانت بالنسبة إلى الإيرانيين ترمز إلى ما كان يرمز إليه «سجن الباستيل» في حقبة الثورة الفرنسية. إذ أنها كانت رمز الظلم والإذلال وامتهان كرامة المواطن.

ولم تكتف السافاك بأن تكون فقط المستنهض لهمم الشعب الإيراني على الثورة على الشاه، بل كانت أيضا المضلل للشاه ونظامه، فنصف تقاريرها كانت أكاذيب والنصف الآخر كان محاطا بالشك من كل جانب.

وعلى الرغم من أنها كانت في تقاريرها تهدف إلى فرض حياة من قلق دائم على الشاه، كي تبرر ضرورة بقائها، وتبرر تجاوزاتها وانحرافاتها. غير أنها حرصت أيضا على مزج سمومها هذه بسموم أشد فتكا من إجراءاتها القمعية الشرسة ... فكانت تصور للشاه أن

المعارضة والمعارضين لا يمثلون غير فئة قليلة من الشعب وأن الأكثرية الساحقة من الأمة الإيرانية تلهج بحمده بكرة وأصيلا، الأمر الذي لم يتح للشاه أية فرصة لمراجعة ذاته، ومراجعة حساباته وإجراءاته على أضواء ردود الافعال الشعبية.

والحق أن طبيعة الشاه بالذات كانت مفطورة على تصديق مختلقات السافاك عن رضاء الشعب وولائه للإمبراطور.

فالنرجسي يتعبد لذاته في هيكل الغطرسة والاستعلاء ويصدق الكاذب ويكذب الصادق إذا جاء الكذب متفقا ومنطق الغطرسة، وكان الصدق منافيا لنازع الاستعلاء وهكذا أغمضت (السافاك) عيني الشاه عن رؤية الواقع وساقته إلى العيش في عالم الوهم.

فداهمته الثورة لتعيده من عالم السافاك إلى عالم الأمة الإيرانية الذي لم يعرفه إلا في منافيه. في مصر والمغرب وجزر الباهما والمكسيك وبناما ومن ثم في مصر حيث إنه لولا الرئيس السادات لما كان سيعثر على قبر يرقد فيه.. تلك كانت سلبيات سياسة الشاه بعد عودته إلى عرشه.

علي شريعتي

١٩٣٣-١٩٧٧

ولد شريعتي المعروف أيضًا باسم علي مشاراتي، عام 1933 في مازينان، إحدى ضواحي سبزوار شمال شرق إيران في مدينة مشهد لعائلة متدينة من رجال الدين.

كان والده، محمد تقي، مُعلمًا وعالمًا إسلاميًا واعظا ذا شهرة. في عام 1947، أسس مركز نشر الحق الإسلامي في مشهد، بمحافظة خراسان.

كان المركز منتدىً إسلاميًا اجتماعيًا انخرط في حركة تأميم النفط في خمسينيات القرن العشرين.

أما والدة شريعتي فكانت تنتمي إلى عائلة صغيرة من ملاك الأراضي في سبزوار، وهي بلدة قريبة من مشهد.

خلال سنوات دراسته في كلية إعداد المعلمين في مشهد، التقى شريعتي بشباب من خلفيات اقتصادية متواضعة، وشهد لأول مرة الفقر والمعاناة السائدة في إيران آنذاك. وفي الوقت نفسه، اطلع على جوانب عديدة من الفكر الفلسفي والسياسي الغربي . وسعى إلى شرح المشكلات التي تواجه المجتمعات الإسلامية وتقديم حلول لها من خلال المبادئ الإسلامية التقليدية، مع مراعاة منظور علم الاجتماع والفلسفة الحديثين. وتُظهر مقالاته في تلك الفترة، المنشورة في صحيفة مشهد اليومية " خراسان"، تنوعه الفكري المتنامي ومعرفته بأفكار مفكرين حداثيين مثل جمال الدين الأفغاني والعلامة محمد إقبال، بالإضافة إلى سيغموند فرويد وألكسيس كاريل.

في عام ١٩٥٢، أصبح مدرسًا في مدرسة ثانوية وأسس جمعية الطلاب الإسلاميين، وانضوى في حركة مصدِّق. لقد شكلت الحركة الوطنية في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي، والثقافة السياسية المعارضة التي أعقبت ذلك في الستينيات، وجهة نظر معلم المدرسة الثانوية شريعتي، الذي كان مؤيدا للجبهة الوطنية المناهضة للشاه.

في عام 1953 بعد الإطاحة بمصدق كان أول اعتقال له من قبل سلطات الشاه وذلك على إثر أحد المظاهرات، بعد الإفراج عنه أصبح عضوا في الجبهة الوطنية.

حصل على درجة البكالوريوس من جامعة مشهد في عام 1955، وفي عام 1957 تم اعتقاله مرة أخرى من قبل سلطات الشاه جنبا إلى جنب مع ١٦ آخرين من أعضاء حركة المقاومة الوطنية.

** غادر إلى فرنسا على إثر المنحة الدراسة حيث واصل دراسته العليا في جامعة السوربون للحصول على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع.

كانت باريس التي وصل إليها شريعتي في ستينيات القرن العشرين "مركزًا عالميًا للنشاط الثقافي والسياسي"، لاسيما فيما يتعلق بالمقاومة المناهضة للاستعمار في سياق الثورة الجزائرية، وخلال وجوده في باريس تعاون مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية عام 1959، وفي عام 1960 بدأ القراءة لفرانتز فانون –وهو من رواد الفكر الوجودي– حيث قام بترجمة بعض من مختاراته إلى الفارسية.

عرّف شريعتي أوساط المهاجرين الثوريين الإيرانيين بأفكار فانون، واعتقل في باريس عام 1961 بتهمة المشاركة في تظاهرة تضامنية مع باتريس لومومبا أول رئيس وزراء منتخب للكونغو والذي اغتالته الاستخبارات البلجيكية.

في نفس العام أسس مع إبراهيم يزدي ومصطفي جمران وصادق قطب زاده حركة «تحرير إيران» في الخارج.

في عام 1962 تابع دراسة علم الاجتماع وتاريخ الأديان، وتابع دورات المستشرق لويس ماسينيون وجاك بيرك وعالم الاجتماع جورج جورفتش. وتعرف أيضا على الفيلسوف جان بول سارتر. ونشر كتاب جلال آل أحمد " غرب زاده " (أو "الاستغراب") في إيران.

عاد من فرنسا بعد حصوله على الدكتوراه عام 1964، حيث اعتُقل وسُجن بتهمة ممارسة أنشطة سياسية تخريبية أثناء وجوده في فرنسا.

ولكن بعد فترة وجيزة، ربما بعد تقديم ضمانات أطلق سراحه، وسُمح له بتقلد منصبه الجامعي، حيث قام بتدريس علم اجتماع الدين والتاريخ في جامعة مشهد. وصنع لنفسه

اسما كأستاذ متحمس لديه وجهات نظر مغايرة حول التاريخ الإسلامي الذي قدمه في سياق جديد لجمهوره المتزايد.

شريعتي.. الخطيب العظيم

برز شريعتي كمتحدث يتمتع بقوة كبيرة ودعي إلى العديد من أماكن التعلم. تجاهلته الحكومة لفترة، لكن شعبيته المتزايدة أجبرت جهاز الأمن الإيراني "سافاك" على فحص عمله. وكانت النتيجة حظر محاضرات شريعتي.

وفي عام 1963، أنشأ الفيلسوف الإيراني وعالم الدين مرتضى مطهري "منتدى نقاش" باسم حسينية إرشاد في طهران، والتي أصبحت علامة بارزة في المشهد الثقافي الإيراني في عام1969 ، وضمت متحدثين مثل علي خامنئي وهاشمي رفسنجاني ومحمد بهشتي وغيرهم.

وكان مطهري قد أحب كتابات شريعتي الأولى واختار نشرها تحت رعاية الحسينية إرشاد. وفي عام1969 دعاه مهدي بازركان (أول رئيس حكومة في إيران لاحقا بعد سقوط الشاه محمد رضا بهلوي) الذي كان له نفوذ في الحسينية إرشاد، لإلقاء محاضرة هناك.

ألقى شريعتي سلسلتين من المحاضرات، وفي هذه الأثناء، أثارت جهاز السافاك دعوة شريعتي العلنية للثورة ضد الاستبداد في ظل حكم الشاه، وتم منعه من الالتحاق بجامعة مشهد. ولم يتبق له سوى منصة حسينية إرشاد، ولكن هنا أيضا أثارت محاضراته المنشورة حفيظة علماء الدين، الذين أدانوا المنتدى باعتباره منبتا للهرطقة.

سيد حسينية إرشاد

وحسينية إرشاد هي مؤسسة دينية حديثة في شمال طهران تأسست عام ١٩٦٤ للترويج لمنظور إسلامي جديد مستساغ لطلاب الجامعات والمهنيين المتعلمين في الغالب. ويمكن أن يتم مقارنتها بالمؤسسات الكاثوليكية في فرنسا أو القاعات الإنجيلية في الولايات المتحدة، وكانت مختلفة تماما عن البيئة المألوفة للمساجد والتكايا التقليدية.

منذ ما يقرب من عقد من الزمان، سادت رسالة شريعتي لإعادة اكتشاف الإسلام ونشاطه بلغة الاستعارات المؤثرة في قلوب وعقول الشباب الإيراني.

وبالنسبة للجماهير التي جاءت بأعداد كبيرة للاستماع إليه، قدمت حسينية إرشاد مكانا مثاليا لمحاضر ساحر، وسيم، يرتدي بذلة وربطة عنق، حليق الشعر، مبتسم، ويتحدث بلهجة خراسانية مبهجة. لقد كان حداثيا حتى أن الطبقة الوسطى العلمانية الإيرانية لا يمكنها تجاهله.

التحرير بالقرآن

اعتبر شريعتي نفسه وجوديا مؤمنا بالله، وقد سعى للعثور على رسالة تحرر في النص القرآني وفي الماضي الشيعي. وكان هناك في نصوصه وأعماله مزيج قوي من فانون والفلاسفة الفرنسيين سارتر وماسينيون، جنبا إلى جنب مع ماركس ومصدق وجبهة التحرير الوطني الجزائرية وجلال آل أحمد.

تم تجميع أفكار هذه الشخصيات ودمجها في ذهن شريعتي لجعل أبطاله الإسلاميين الأوائل يتحدثون عن رسالته الثورية، وفي العالم الشفهي والمكتوب لعلي شريعتي، تحولت كل هذه الشخصيات إلى أبطال للعدالة الاجتماعية والتضحية بالنفس والثورة ضد الظالمين.

وفي هذا الماضي المقدس، عصر المؤمنين الأوائل، تخيل شريعتي مسارا إسلاميا حيث قاوم الأئمة ورفاقهم الأنقياء العادلون وضحّوا بأنفسهم في مقاومة مضطهديهم الفاسدين.

نظرية المعرفة

طوّر شريعتي فكرة الظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية للمعرفة الدينية في علم الاجتماع. كان يؤمن بالدين الدنيوي وبالسياق الاجتماعي الذي يُبنى فيه معنى المجتمع. كما أكد أنه فهم الدين تاريخيًا لكونه عالم اجتماع. وقال إنه كان مهتمًا بالتوحيد التاريخي والاجتماعي، لا بصحة القرآن أو محمد أو علي.

الثورية ضد الصفوية

في هذه الرواية عن "التشيع الثوري"، كان شريعتي ذا خطاب حديث ومعاصر، ومحرضا أسقط على أبطاله "المظلومين" المهمة الملحة المتمثلة في التمرد الثوري ضد

"الأشرار القمعيين" في مقابل المدافعين عن "التشيع الصفوي الأسود" المنافح عن نزعة علماء الدين المحافظة، والتي وصفها بأنها مساومة، وجشعة.

وكان شريعتي يعتقد أن صعود الشيعة الصفوية ضد العثمانيين السُّنة كان نتيجة مؤامرة لتقسيم الوحدة الإسلامية، وهو منظور تآمري شاركه أيضا الأديب والفيلسوف جلال الأحمد، ومع ذلك، كانت روايته للتاريخ مثيرة لجمهوره الذين كانوا يقارنون بين أفكار شريعتي الجريئة والديناميكية وبين "العالم الراكد للشيعة المعممين".

وكان انتقاد شريعتي لنظام بهلوي ضمنيا ومع ذلك لم تكن تلميحاته بعيدة عن متناول عملاء السافاك الذين كانوا يراقبون أنشطته بشكل روتيني ويضايقونه من حين لآخر.

وعلى الرغم من التضييق عليه من قبل أجهزة الأمن، والانفصال عن رئيس المؤسسة مرتضى مطهري، استمر شريعتي في إلقاء المحاضرات والنشر حتى إغلاق إرشاد في عام 1972 وكانت منشوراته، المتوفرة على نطاق واسع للناس من جميع مناحي الحياة، مصدر قلق للنظام.

دافع مطهري (لاحقا، آية الله العظمى) عن شريعتي، لكنه أصبح يشك بشكل متزايد في آرائه مع مرور الوقت. واضطر إلى الابتعاد عن الحسينية لمدة ٧ أشهر، ولكن عندما عاد كان من المقرر أن يصبح أشهر محاضر فيها، حيث استقطب الجماهير من الجامعات والمدارس الثانوية حتى فاضوا بساحات المنتدى.

وبدأ مهمته الثانية بمحاضرة تحت عنوان "إقبال مصلح هذا القرن". لقد أخذ من العلامة إقبال المفهوم الأساسي بأن الإسلام هو مزيج من السياسة والروحانية وأنه تغلغل في حياة الإنسان بأكملها.

الخلاف مع علماء الدين

يقول شريعتي إنّ الحركة الصفوية ورجال الدين المرتبطين بها، عملوا على ترسيخ التعصّب المذهبي، من خلال دمجه بالقومية الفارسية. ويتهم «المعلّم» الصفويين بتأجيج الكراهية بين المسلمين، من خلال إصرار ملاليهم على الترويج لشتم الصحابة وإجبار الناس على مجاراتهم، ووصف هذه الممارسات بـ «الوحشية» و «الإرهابية».

قال إنّ هذا النوع من التشيّع هو «تشيّع الجهل والفرقة والبدعة، وتشيّع المدح والثناء للسلطات، وتشيّع الجمود والركود بتأدية طقوس عبادية ومذهبية دخيلة على التشيّع الأصيل».

كما أنّه صرّح بأنّ «كل رموز التشيّع الموجود في إيران وشعائره، هي رموز مسيحية ومظاهر مسيحية قديمة وبائدة، أدخلها الصفويون على يد طلائع الفكر الغربي، لكي يفصلوا إيران عن الإسلام السنّي، مذهب الدولة العثمانية عدوة الدولة الصفوية التقليدية. كما أنّ الصفويين تحالفوا مع الأوروبيين ضد العثمانيين، مما أودى بإيران وبالعثمانيين معًا في نهاية المطاف عن طريق إضعافهما بنزاعهما بعضهم مع بعض.

كما أنّه يقول: «لو خرجت كل الطقوس الدخيلة على التشيّع فلن يبقى هناك أي خلاف يُذكر بين المذاهب».

ويوصي علي شريعتي بالعودة إلى الذات الإسلامية، وطرح إسلام عالمي أممي عابر للقوميات والمذاهب، لأنّه فكر رسالي عن طريق البدء بإسكات الخلافات المذهبية.

كما أنّه في كتابه «الاستحمار» انتقد نفاق كثيرين من رجال الدين الذين سمّاهم «فقهاء السلطان» في تزييف الوعي الشعبي وإعادة تشكيله على أساس مصالحهم.

وشرح «المعلم» في كثير من المواقع الفارق بين تقية التشيّع العلوي، التي تتحفّظ عن الإجهار بما يخلف بين المذاهب تجنّبًا للفتنة، وبين تقية التشيّع الصفوي الذي يُستخدم كوسيلة للغش والخداع، في حين يجاهر بالسباب والشتائم للصحابة، إمعانًا في تأجيج الخلاف بين المسلمين.

لا شك مما تقدّم، أنّ أفكار علي شريعتي كانت تهدف إلى هدم مؤسسة عمرها أكثر من 450 سنة، بُنيت عليها مصالح متشعبة وعادات وطقوس أصبحت في حكم المقدّس، مما وضع القسم الأكبر من رجال الدين المعاصرين في إيران في مواجهة معه. لكن عمق أفكاره، وبعض الأحيان تشتتها وصعوبة فهمها، جعلتها غير قابلة للصرف إلّا في أوساط النخب، مما سهّل على رجال الدين اجتياحها بسرعة، بعد سنة من انتصار الثورة الإسلامية التي كان شريعتي معلمها.

لقد كان هجوم شريعتي على علماء الدين مكثفا، وبدأ مرتضى مطهري، الذي فقد السيطرة على الحسينية، معارضة ما اعتبره "تطرف" شريعتي بحلول عام1971 ، وفي عام 1972، في ذروة اشتباكات حرب العصابات في المناطق الحضرية، كان يُنظر إلى شريعتي على أنه تهديد خطير.

تم اتهامه بالتعاون مع مجاهدي خلق وقضى ١٨ شهرا في الحبس الانفرادي، قبل الإفراج عنه بموافقة الشاه عندما كانت الدعاية الدولية لإطلاق سراحه كبيرة بما يكفي لجعل الشاه يدرك مساوئ إبقاء الخطيب المفوه ذي الشعبية الواسعة قيد الاعتقال. مما أدى إلى الإفراج عنه في ٢٠ مارس 1975

ولمدة عامين بعد إطلاق سراحه، عاش تحت الإقامة الجبرية الفعلية مع تدهور صحته بشكل خطير

في أوائل عام1977 ، سُمح له بمغادرة البلاد بعد أن أجبره السافاك على نشر، أو انتحل بيانا نيابة عنه في مدح الثورة البيضاء (الإصلاحات التي قام بها الشاه) وعندما وصل إلى إنجلترا في مارس/آذار، كان يعاني من الاكتئاب وأمراض أخرى.

وبعد فترة وجيزة توفي بنوبة قلبية شديدة بمستشفى في ساوثمبتون.

ومن الغريب أن "الظروف التي أحاطت بوفاته لم تقلق السلطات البريطانية بما يكفي لإجراء تحقيق".

بل يقال أنه وجد مقتولا في شقته بعد ثلاثة أسابيع من وصوله إليها، إلا أن تقرير مستشفى ساوثمبتون قد ذكر أن سبب الوفاة هو نوبة قلبية قاتله.

ولقد رحل قبل الثورة الإيرانية بعامين عن عمر ٤٣ سنة وكان الرأي السائد أن ذلك تم على يد مخابرات الشاه

ودفن الدكتور علي شريعتي في مقام السيدة زينب في دمشق.

الرحلة الفكرية

اقتبس شريعتي من فيلسوف وشاعر شبه القارة الهندية «محمد إقبال» مفهوما أساسيا مفاده أن الإسلام هو مزيج من السياسة والروحانية وأنه تغلغل في حياة الإنسان بأكملها.

ورجال الدين الإيرانيين اعترضوا على آراء شريعتي في إقبال لأنهم رأوا في الشاعر والفيلسوف إقبال فيلسوفا سنّيا. بل إن بعض المنتقدين زعموا أن إقبال أهان الإمام جعفر الصادق في إحدى قصائده، وهو ما لم يكن دقيقا.

لكن التأثير الأكبر على شريعتي جاء من فرانتز فانون المولود في الكاريبي (1925–1961)وأطروحته الثورية المناهضة للاستعمار التي كانت رائجة في ذلك الوقت بين مثقفي اليسار. وقد ترجم شريعتي إلى الفارسية كتاب فانون «معذبو الأرض» بعد وقت قصير من نشره في عام 1961.

ونظر شريعتي للنضال ضد الاستعمار، الذي جسّدته الثورة الجزائرية، باعتباره نضالا وجوديا من أجل التحرر البشري حيث كانت معاناة المضطهدين وتضحياتهم لاستعادة ليس فقط الحرية السياسية، ولكن أيضا كرامة الإنسان والمسؤولية الأخلاقية.

فرانز فانون اهتم بالنضال ضد الاستعمار وتبنى الماركسية الإنسانية وأفكار التحرر الأفريقية (شترستوك)

أصبح فانون صوت المثقفين والنشطاء المتحمسين لما يسمى بالعالم الثالث الذي يعمل على نطاق واسع لتحديد جغرافية الحرمان والاعتماد على الغرب.

وكان فانون اشتراكيا في جوهره، وقد ذهبت مناهضته للاستعمار إلى أبعد من النضال الجماهيري للتأكيد على الروابط القومية والثقافية والعرقية والدينية، والتي اعتبرها أدوات حاسمة للنضال، وانفتح على خيارات واسعة بما في ذلك الكفاح المسلح، للتخلص من الأيديولوجيات الغريبة على جانبي الانقسام العالمي.

وهكذا، استوعب شريعتي تلك الرسالة لكنه أعاد صياغتها لتلائم قراءته التاريخية للشيعة.

فكره

يعتبر الدكتور علي شريعتي نموذج فريد من مفكري إيران. حيث أنه بالرغم من أنه فارسي العرق، لم يكن يتوقف عن نقد النزعة الشعوبية لدى رجال التشيع الصفوي، بطريقة أكثر جذرية من غالب من تصدَّى لهذا الموضوع من الأدباء العرب.

وقد بَيَّن آلية المزج في الموروث الشيعي الروائي ما بين السلطة الإيرانية والنبوة الإسلامية.

ويعتبر واحداً من القلائل الذين استطاعوا التجرد بعيداً عن هوى المذاهب والتمذهب. وسعى بكل ما أوتي من قوة إلى لملمة الصفوف تجاه الوحدة فانتقد ما سماه «التشيع الصفوي» و«التسنن الأموي» ودعا إلى التقارب بين «التشيع العلوي» و «التسنن المحمدي»

إن شريعتي كان "أيقونة للأجيال" مع نظرة عالمية اتسعت لكثير من المدارس الفكرية والفلسفية. وفي الستينيات من القرن الماضي، جعلته خطبه النارية والعديد من الكتب والمنشورات وتسجيلات الكاسيت، رمزا للإسلام الثوري ومعارضا بارزا لشاه إيران.

شريعتي والاشتراكية

يبدو أن شغفه باستكشاف الاشتراكية بدأ بترجمة كتاب "أبو ذر: الاشتراكي العابد لله" للمصري عبد الحميد جودت السحر.

ووفقًا لهذا الكتاب، كان أبو ذر أول اشتراكي. ثم صرّح والد شريعتي بأن ابنه يؤمن بأن مبادئ أبي ذر أساسية. ووصفه البعض بأنه أبو ذر العصر الحديث في إيران.

ومن بين أفكاره، إصراره على ضرورة العمل الثوري. فقد اعتقد شريعتي أن الماركسية لا تستطيع تزويد العالم الثالث بالوسائل الأيديولوجية لتحريره.

ومن منطلقاته أن الإسلام بطبيعته أيديولوجية ثورية، وبالتالي، يمكن للإسلام أن يرتبط بالعالم الحديث كأيديولوجية.

ووفقًا لشريعتي، فإن الأصل التاريخي والحقيقي للمشاكل الإنسانية هو ظهور الملكية الخاصة. كما اعتقد أن ظهور الآلة في العصر الحديث هو ثاني أهم تغيير جوهري في وضع الإنسان.

إذا ما اعتبرنا الملكية الخاصة وظهور الآلة أحد مسارين تاريخيين، فإنهما ينتميان إلى المرحلة الثانية من التاريخ. أما المرحلة الأولى فهي الملكية الجماعية. ومع ذلك، فقد قدم

شريعتي نقدًا للتطور التاريخي للدين والحركات الفلسفية والأيديولوجية الحديثة وعلاقتها بكل من الملكية الخاصة وظهور الآلة.

ولقد تضاربت الآراء في تحديد هوية على شريعتي العقائدية فلقد كان البعض يقول أنه أفضل من رد على كارل ماركس ونقض فلسفته، ودلل على أن في الإسلام الأجوبة والحلول الصحيحة لجميع قضايا المجتمع ومشاكل الدولة.

وقال البعض الآخر من رجال الدين الذين اتهمهم الدكتور على شريعتي بالجمود والتزمت، أن ما جاء به الدكتور إنما هو بدع لا يقرها الإسلام، وقد كان من أبرز معارضيه في هذا الحقل آية الله مرتضى مطهري تلميذ الخميني الأثير.

وقال فريق ثالث أن على شريعتي ماركسي العقيدة ويتستر بالإسلام.

وقال الماركسيون إن على شريعتي مسلم متطرف وخطر غاية الخطورة وذلك لأنه يستخدم جدلية تستند إلى العلم والميتافيزيقا وذات قدرة هائلة على استهواء المثقفين والجماهير معا.

ولكن على شريعتي كان في واقع الحال تطورا أو بالأحرى تطويرا للمفاهيم الإسلامية السياسية والاجتماعية التي قال بها مهدd بازرگان، والطلقاني ومحمد ناخشاب.

والسبب الرئيسي وراء تضارب الآراء حول عقيدته يعود إلى أن الدكتور على شريعتي لم يبرز في دروسه ولا في محاضراته ولا في كتبه الخط الفاصل بوضوح بين الإستراتيجية الإسلامية وبين تكتيكها اللذين يقول بهما.

فالتكتيك، كما نعلم قد يتخذ أحيانا مسارا يبدو متعارضا كل التعارض والإستراتيجية ومنحرفا كل الانحراف عن أهدافها

وذلك لأن التكتيك ينبغي أن يكون مرنا غاية المرونة، كي يبقى قادرا على المناورة أو المداورة وحتى الانكفاء بغية استخدام الظروف من طبيعية واستثنائية رياحا تنفخ في شراع مركبه الميمم شطر أهدافه.

أيضا تداخل الإستراتيجية في التكتيك عند الدكتور على شريعتي يعود إلى أن تنظيره اعتمد إلقاء المحاضرة أو الدرس لا وضع الكتاب، الأمر الذي يؤدى حتما إلى

التمازج بين العموميات والتفاصيل كما هي الحال والفيلسوف الألماني هيجل الذي تتألف معظم مؤلفاته من المحاضرات التي كان يلقيها على طلابه في جامعة برلين

أيضا كان الإمام موسى الصدر كان من أبرز من طبق نظريات الدكتور على شريعتي واعتمد أساليبه حينما أنشأ في لبنان حركته الشهيرة باسم حركة المحرومين التي سرعان ما أصبحت السد المنيع إمام الشيوعية والشيوعيين

وقد نجح الإمام الصدر كل النجاح في تجربته أن غدا الشخصية الأولى في الطائفة الشيعية اللبنانية، كما يعود الفضل أيضا إلى الدكتور شريعتي في تحويل العدد العديد من المثقفين الإيرانيين عن الماركسية وترسيخ جذورهم في تربة الإسلام.

فإذا أضفنا إلى كل ذلك أسلوبه البسيط في تخاطبه وتحاوره والبسطاء من الناس ندرك مدى ما كان له من الشعبية العريضة والشهرة بين الجماهير.

شريعتي والماركسية

شن الدكتور على شريعتي حملة شعواء على الماركسية والماركسيين ولعل أوضح حملاته هي تلك الواردة في كتابه الشهير بعنوان «العودة»، حيث يقول:

عندما أتأمل في أدبيات حزب تودة الشيوعي (الإيراني) فإنني لا أجد فيها إلا عناوين كالعناوين التالية. المادية التاريخية ومعرفة عناصر المادة والمفهوم المادي للإنسانية والأسس المادية للحياة والفكر... الأمر الذي يجعلني والجماهير مصيبين حينما أفهم أن كلمة الشيوعية مرادفة في معناها لكلمة الإلحاد، ولا غرو إذا وجدنا أن انطباعات الجماهير عن الشيوعيين تقول بان هؤلاء ملحدون، وأعداء الله والوطن والدين والأخلاق والروح والقداسة والشرف والحقيقة والتقاليد

ويرى الدكتور على شريعتي أن العامل الأساسي المولد الديناميكية التاريخ، ليس العامل الاقتصادي كما يعتقد الشيوعيون، بل إنه العامل السياسي وأن الأمة لا تستطيع أن تكون قوة فاعلة في التاريخ ما لم تستعد هويتها الحضارية.

وقد تبدت نظرية شريعتي هذه في فاعلية الأمة في الجدل الذي دار بينه وبين الروائي اليساري الشهير والمارتنيكي المولد والذي عمل لفترة رئيسا لتحرير جريدة المجاهد

الجزائرية، وعالم النفس أيضا فانون الذي قال بأن شعوب العالم الثالث لن تتمكن من مقارعة الاستعمار ما لم تتخل عن أديانها.

وقد رد الدكتور على شريعتي بأن مقارعة الاستعمار الناجحة تكون وتبقى مشروطة باستعادة كل أمة من أمم العالم الثالث لهويتها الحضارية الأمر الذي لا يمكن أن يتحقق إلا بعودة الأمة إلى جذورها الدينية، التي تؤكد وترسخ وحدتها كأمة وترهف حسها الجماعي، فلقد كان الدكتور شريعتي يرى أن الترابط الضميري لا الترابط المصلحي هو الشرط الأساسي للأمة

ومن ثم ينتقل الدكتور شريعتي إلى شن أعنف الهجمات على الأحزاب الشيوعية إذ يصفها بأنها غدت مؤسسات بيروقراطية محضة، وأنها أفرزت طبقة جديدة أوسع امتيازا وسلطانا من الطبقة الرأسمالية المعروفة في الأنظمة الليبرالية.

وبهذا يلتقي على شريعتي والزعيم الشيوعي سابقا من حيث نظرته إلى المجتمع الذي أنشأته الشيوعية في دول المعسكر الشرقي وأعنى بهذا الزعيم المفكر اليوغوسلافي الكبير والزعيم الشيوعي السابق ميلفين دوجلاس الذي كشف عن حقائق المجتمع في الدولة الشيوعية وعن موازينه ونوعية عدالته الاجتماعية وذلك في كتابه الشهير بعنوان " الطبقة الجديدة".

أضف إلى ذلك أن الدكتور شريعتي لا يغفل عن الإشارة إلى المظالم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي يعانيها أبناء مجتمعات دول المعسكر الشرقي كما لا يغفل أيضا عن استنكار الانتهازية الفاضحة التي يمارسها الاتحاد السوفيتي في علاقاته بشاه إيران.

وينتهي على شريعتي إلى المطالبة بان يكون للمثقفين دور لا يقل أهمية عن دور رجل الدين، شريطة أن يكون المثقفون عميقي الجذور في تربة الدين.

شريعتي والقومية

عندما كان الشاه في عام ١٩٧١ يحتفل في برسيبوليس، ذلك الاحتفال الباذخ بمرور ألفين وخمسمائة سنة على تأسيس المملكة الفارسية، ذات القومية الآرية كان الدكتور على شريعتي يعلن في إحدى المحاضرات التي ألقاها في حسينية الإرشاد بطهران،

انه ليست لإيران أية قومية أخرى ماعدا القومية الإسلامية وأن العودة إلى الجذور الحضارية الإيرانية تعنى فقط العودة إلى الجذور الإسلامية في تربة إيران حيث ورد في كتابه الشهير بعنوان الحضارة والتقدم قوله التالي:

إن البعض منكم يقول بأنه ينبغي لنا نحن معشر الإيرانيين أن نعود إلى جذورنا العنصرية الآرية، إنني أرفض هذا القول جملة وتفصيلا وإنني أناهض العنصرية والفاشية والعود الارتجاعي.

إن الخبراء من الجيولوجيين وعلماء التاريخ قد يعرفون بالكثير عن الساسانيين وسواهم، وقد يكونون عارفين أيضا بحضارات أخرى أعرق قدما من حضارة الساسانيين.

لكن شعوبنا الإيرانية لا تعرف بأي شيء عن أمور كهذه فشعوبنا لا ترى جذورها ولا تعثر عليها في حضارات كتلك، كما أن ذكرى إبطال وعباقرة وأساطير وإقامة النصب والتماثيل لمثل تلك الإمبراطوريات الغابرة لا تثير ولا تستثير أية عاطفة أو انفعال في نفوس جماهيرنا التي لا تتذكر ولا ترغب في تذكر أي شيء يعود إلى الحضارات السابقة للحضارة الإسلامية لذلك نقول، أن العودة إلى جذورنا لا تعنى إطلاقا العودة إلى إيران ما قبل الإسلام بل إلى جذورها الإسلامية المحضة وأن أبناء هذا المجتمع الإسلامي هم بحكم فطرتهم الإسلامية مناهضون قولا وفعلا الجميع أنواع الاستعمار والاستعباد، والاستغلال والظلم الاجتماعي، وان عظمة الإسلام تتجلى في أنه بالإضافة إلى كونه دينا، إنما هو أيضا نظام اجتماعي يستهدف القضاء على الفقر وتجسيد المساواة والإخاء بين الناس وإقامة مجتمع لا طبقية فيه ولا طبقات.

حول دور المرأة

في كتابه "توقعات من المرأة المسلمة"، الذي يحمل أيضاً عنوان "توقعاتنا من المرأة المسلمة"، والذي ألقاه لأول مرة عام ١٩٧٥، يناقش شريعتي حقوق المرأة في الإسلام. لا يهدف شريعتي في محاضرته إلى إنكار وجود حقوق للمرأة في الإسلام، بل إلى بيان كيف أدت التقاليد التي اعتبرها مناهضة للإسلام إلى نتائج مأساوية بحق المرأة المسلمة. ويستشهد بفاطمة الزهراء، ابنة النبي محمد، كمثال على امرأة لعبت دوراً بارزاً في الحياة السياسية.

يبدأ محاضرته بالقول:

في أغلب الأحيان، نكتفي بالإشارة إلى أن الإسلام يولي قيمة كبيرة للعلم أو يرسخ حقوقاً تقدمية للمرأة. ولكن للأسف، لا نستخدم هذه القيمة أو هذه الحقوق أو نستفيد منها فعلياً.

ويتابع قائلاً:

منذ القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين (وخاصةً بعد الحرب العالمية الثانية)، نُظر إلى أي محاولة لمعالجة مشكلة الحقوق الاجتماعية للمرأة وخصائصها المحددة على أنها مجرد نتاج ثانوي لصدمة روحية أو نفسية، أو نتيجة لأزمة ثورية في مراكز التعليم، أو كرد فعل على تيارات سياسية وحركات دولية. وهكذا، تأثرت المجتمعات التقليدية والتاريخية والدينية، سواء في الشرق أو الغرب (سواء كانت قبلية أو بدوية أو مجتمعات إسلامية متحضرة أو غير إسلامية، في أي مرحلة اجتماعية أو ثقافية من مراحل الحضارة)، بشكل مباشر أو غير مباشر، بهذه الأفكار والتيارات الفكرية، بل وحتى بالواقع الاجتماعي الجديد.

يزعم أن تحرير المرأة قد بدأ في الغرب، ويخشى الكثيرون حدوثه في العالم الإسلامي. ويعود ذلك جزئياً إلى معلوماتهم المغلوطة، وعدم نظرهم إلى الإسلام من منظور تاريخي، واعتمادهم على تفسيراتهم الخاطئة له.

في مثل هذه المجتمعات، ترحب الطبقة المتعلمة حديثاً، أو ما يُعرفون بالمثقفين الزائفين، والذين يشكلون الأغلبية، بهذه الأزمة بشدة وحماس. بل إنهم أنفسهم يمثلون إحدى القوى التي تعزز هذا التحول الفاسد والمدمر.

اعتقد شريعتي أن النساء في إيران في عهد الشاه كنّ يتمتعن بالتحرر الجنسي فقط، ولم يكن لديهن أي حرية اجتماعية. وعزا ذلك جزئيًا إلى "الفكر البرجوازي" وجزئيًا إلى المثل الأعلى الفرويدي للتحرر الجنسي.

وبالنسبة لشريعتي، كان فرويد أحد أدوات البرجوازية.

حتى ظهور فرويد (الذي كان أحد عملاء البرجوازية)، تجلّت النزعة الجنسية العلمية من خلال الروح البرجوازية الليبرالية. ويجب الأخذ في الاعتبار أن البرجوازية تُعتبر دائمًا طبقة دنيا.

ويخلص إلى أن الباحث أو العالم الذي يعيش ويفكر ويدرس خلال العصر البرجوازي، يقيس القيم الجماعية والثقافية والروحية بناءً على الاقتصاد والإنتاج والاستهلاك.

من أقواله

يعرف المفكر الإيراني علي شريعتي كأحد أبرز الرموز الفكرية الإسلامية للقرن العشرين، ويعد ملهم الثورة الإيرانية وأحد علماء الاجتماع والأديان والتاريخ المؤثرين في الشرق الأوسط.. ومن أشهر أقواله:

** إذا لم يكن الشعب على وعي وثقافة قبل الثورة، فلا يلوموا أحداً عندما تسرق ثورتهم.

** إن الحضارة الاستهلاكية هي أسوأ أو أقبح من الوحشية والهمجية! نعم إن الذي يتحضر في الاستهلاك فقط فإنه دون الوحشي، لماذا؟ لأن الوحشي لا يعدم الأمل في تحضره عن طريق الإنتاج، لكن المستهلك من غير إنتاج يعدم الأمل به طبيعيا.

** الحرية الفردية أداة تخدير كبرى لإغفال الحرية الاجتماعية، حيث النباهة الاجتماعية القضية ذات الأهمية الكبرى.

** إن الدين الذي لا ينفع الإنسان قبل الموت لا ينفعه بعد الموت أيضاً.

** في الحياة ليس العدو الحاقد المسلح بأخطر وأشد ضررا للشيخ من مريد متعصب متفان لكن لا عقل له.

** المرأة التي تقضي سنة تتحدث بشأن جهازها وتساوم في مهرها والجواهر التي تُهدى إليها وفخامة حفل الزفاف، لا تزال جارية بالمعنى الكامل للكلمة.

** الاستحمار هو طلسمة الذهن وإلهائه عن الدراية الإنسانية والدراية الاجتماعية وإشغاله بحق أو بباطل، مقدس أو غير مقدس.

** إن شئت التمرد على الديكتاتورية وعدم الرضوخ للظلم، ما عليك سوى أن تقرأ وتقرأ وتقرأ.

** إذا كنت لا تستطيع رفع الظلم، فأخبر عنه الجميع على الأقل.

** الأفكار مشلولة.. العقول مخدرة.. الأوفياء يعيشون الوحدة.. الشباب يائس ومنحرف.. كسروا الأقلام.. كمموا الأفواه.. هذه سمات هذا العصر.

علي شريعتي والثورة

قدم علي شريعتي إرثا مهما من الأفكار التي أسهمت في التمهيد لإسقاط نظام الشاه، حيث أن هناك أكثر من 150 دراسة عنه حتى عام 1997 ومجموع ما طبع لشريعتي في السبعينيات وصل إلى ١٥ مليون نسخة كما يؤكد الباحث محمد اسفنديارى، وقد ذكر شريعتي نفسه أن عدد الطلاب الجامعيين الذين تسجلوا في دروسه تجاوز الخمسين ألف طالب ووزع من كتاب «الولاية» أكثر من مليون نسخة.

وقد اعتبره هاشمي رفسنجاني مَعْلماً أساسياً في إرساء النهضة الإيرانية، كما أن مصطفي جمران يقول إن رفيقه الأساسي في متاريس الجنوب اللبناني المواجهة للعدو الصهيوني، كان كتاب شريعتي «الصحراء».

أما السيّد موسى الصدر فقد أقام الصلاة على جثمان شريعتي في دمشق العام 1977 وقد أدّى احتفال تأبيني في بيروت دعا إليه الإمام الصدر للدكتور شريعتي إلى سحب الجنسية الإيرانية من الصدر.

مع أن أفكار الدكتور «علي محمد تقي شريعتي» وكتاباته ونضالاته كانت الملهم الأول للثورة الإيرانية، إلى جانب الشخصية الكاريزمية للإمام الخميني، فإنّ استشهاده عام 1977 بطريقة غامضة، حرم إيران من دور مركزي كان يجب أن يلعبه في إنشاء الحكم الفتي، وربما إخراجه من سلطة الملالي التي فرضت نفسها بعد سنة من الحكم المدني الذي انتهى عام 1980 بانقلاب وضع الحكم في إيران تحت السلطة المطلقة للولي الفقيه.

ويقال إن الانتقام الصفوي الخميني من عليّ شريعتي أتى سريعًا. في سنة 1977 اغتيل شريعتي في ظروف غامضة، فكان من الطبيعي اتهام جهاز

«السافاك» التابع لحكم الشاه بالاغتيال، لكن الشبهة عادت لتتجّه لاحقًا نحو أتباع الخميني المستنفرين ضدّ أفكاره ودعوته، ولعلمهم بخطورتها على الديكتاتورية المنوي فرضها في إيران استنادًا لسلطة الملالي.

ولم تمض سنة على إقامة الحكومة المدنية الانتقالية بعد الثورة الإيرانية، حتى تمّ إقصاء كل حلفاء الخميني السابقين، من غير رجال الدين، عن مواقع السلطة. تمّت مركزة كل السلطات في شخصية «المرشد» الذي تحول بسرعة إلى موقع «الوكالة عن المهدي المنتظر»، معيدًا لقب «الولي الفقيه» إلى التداول. ورغم توجّه مؤقت يدعو إلى الوحدة الإسلامية العابرة للمذاهب، بقيت الأدبيات الصفوية سائدة، ومعها الطقوس والعادات والمؤسسات الموروثة منذ أربعة قرون ونصف قرن هي المهيمنة على الحياة العامة، ولكن الفارق هو أنّه بدل أن يكون رجال الدين في خدمة السلطات، أصبحت السلطة في يد واحد من رجال الدين، وهو الذي ما لبث أن أعلن نفسه إمامًا معصومًا بسلطة مطلقة في أمور الدين والدنيا.

وقد تمّت حماية وتقوية موقع الولي الفقيه من خلال شبكة من المؤسسات، هيمنت على مختلف الأنشطة الوطنية من أمن وجيش ومخابرات واقتصاد مثل «مجمّع تشخيص مصلحة النظام» إلى «الحرس الثوري» الذي يدير «مؤسسة الشهيد» و «جهاد البناء» و «التعبئة العامة» و «مجلس الأمن القومي» و «الحوزات الدينية» بالإضافة إلى ميليشيا «الباسدران» التي تعدّ بالملايين وتنتشر في مختلف مواقع المجتمع الإيراني.

بعد فشل مبدأ تصدير الثورة العابرة للمذاهب الإسلامية، عاد النظام إلى إحياء العصبية المذهبية خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، فعادت الأفكار الشعوبية الصفوية للهيمنة على الفكر القومي الإيراني، مغلّفة، كما في العهد الصفوي، بمنطق القداسة المتمثل في الوكالة عن المهدي.

وهكذا تكون الصفوية قد أتمت انتقامها من أفكار عليّ شريعتي من خلال الخمينية، وقضت على المحاولات المتجددة للعودة إلى الوحدة الإسلامية على أساس «التسنن المحمدي والتشيّع العلوي»، من خلال إسلام حضاري مطعّم بأفكار التنوير

الحديثة التي لا تعتمد الفرض في الحياة الاجتماعية والشخصية، لكونها تفترض أنّ الحرية هي باب الإيمان الصحيح لا المظاهر.

تلك هي عجالة من نظرة إلى ذلك المفكر الاسلامي الكبير الدكتور على شريعتي الذي كان له الفضل الأكبر في حشد معظم المثقفين الإيرانيين حول الخميني ولا خلاف أن شريعتي لو كان لا يزال حيا في إيران الخميني، لكان اليوم إما رهين السجن، أو القبر أو المنفي.

من المؤسف أن الخميني بعد استيلائه على السلطة، بذل غاية الجهد لطمس الدكتور على شريعتي كمفكر إسلامي ومناضل وقائد، ولا غرو في ذلك، فالمرء يسعى لا بل يكافح لدفع منافسه أو ضحيته إلى زوايا المغمورية والنسيان.

فالدكتور شريعتي لم يكن فقط ذلك المفكر الإسلامي الموسوعي الثقافي الراسخ الإيمان، بل كان أيضا المناضل الشجاع تحت راية الإسلام.

وفي ظروف طغت العلمانية بماديتها على كل معتقد، وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر.. إنها الظروف التي عصفت بالمجتمعات العربية والشرق أوسطية وبحركات التحرر الإفريقية والأسيوية، طوال الخمسينات ومعظم الستينات من هذا القرن.

إن التنكر للإسلام يومذاك كان الدليل على الثقافة التقدمية وكان التمسك بالإسلام البرهان القاطع على الجهالة والرجعية وغدت المادية، أو بالأحرى الاشتراكية موضة العصر، وأمست الثورة كلمة مرادفة للصلاح والفضيلة.

وأصبحت ثورة الزنج في البصرة منارا تاريخيا للأمة، والحركة القرمطية ودولتها في البحرين المثل الأعلى للقومية، نعم إلى ذلك الحد اختلت الموازين وتدهورت القيم وعاش المسلم في أجواء خانقة من الإرهاب الفكري والتعذيب الجسدي وبهذا تساوى الفكر والشجاعة قيمة وفضيلة.

أما أشهر مؤلفات على شريعتي فهي تاريخ الأديان «العودة» «من أين نبدأ» «الماركسية وضلالات غربية أخرى» «الإنسان والإسلام» وهذه جميعا جديرة بالدرس والتأمل.

الإمام الخميني

فقيه وعالم دين ومرجع شيعي إيراني، ألهبت خطبه حماس الإيرانيين فثاروا على الشاه وأسقطوه ونصّبوه مكانه قائدا ومرشدا للثورة، نظَّر لولاية الفقيه في كتبه وطبقها في حكمه، آمن بتصدير الثورة فاصطدم بجاره العراق في حرب أنهكت البلدين.

ولد آية الله الخميني يوم ٢٤ سبتمبر/أيلول 1902 بمدينة خمين في إيران، قتل والده –الذي كان عالما من علماء الشيعة– على يد مسلحين عندما كان عمره خمسة أشهر.

بدأ دراسة القرآن ومبادئ الفقه الشيعي وهو في السادسة من عمره، واهتم بالدراسات الدينية وارتياد الحوزات العلمية، فانتقل إلى آراك ليدرس في حوزتها الفقه الإسلامي، ثم رحل مع أستاذه إلى قم، حيث نبغ بين أقرانه وحصل على مرتبة آية الله.

يعتبر أحد المنظرين المجددين لنظرية «ولاية الفقيه» التي تفرض "حاكمية المجتهد الجامع للشرائط في عصر الغيبة"، وهي قائمة على "نيابة الفقيه" عن الإمام المعصوم (في المذهب الشيعي) الغائب الذي تنتظر عودته.

وقد نظَّر لولاية الفقيه ودافع عن مشروعيتها في كتابه الولي الفقيه والحكومة الإسلامية، حيث قال إن "ولاية الفقيه من المواضيع التي يوجب تصورها التصديق بها" وقد تطورت على يديه وتجسدت عنده في "إسباغ اليقين المطلق على اجتهاداته الذاتية، باعتبار أنها ناتجة من معرفة إلهامية حضورية".

ومكن لها في دستور إيران الذي نصت مقدمته على أن القيادة بيد الفقيه، وهو ضمانة عدم انحراف الأجهزة المختلفة، كما نص على أنه في زمن غيبة الإمام المهدي تكون ولاية الأمر وإمامة الأمة في جمهورية إيران الإسلامية بيد الفقيه العادل المتقي البصير بأمور العصر.

لم يرض الخميني على تدخل القوات الأجنبية في إيران، وكتب عام 1941 ضد نظام محمد رضا بهلوي "كل الأوامر التي صدرت عن النظام الدكتاتوري ليست لها أي قيمة على الإطلاق".

وفي بداية ستينيات القرن العشرين أعلن الشاه ثورة بيضاء نادى فيها بحقوق المرأة والتعليم اللاديني، فشن الخميني هجوما شديدا على سياسة الشاه، الأمر الذي أدى إلى سجنه عام 1963 ثم نفيه عام 1964 خارج إيران.

في بداية منفاه ذهب إلى تركيا ثم انتقل إلى مدينة النجف جنوبي العراق، حيث مكث هناك ١٣ عاما وكون مبادئه حول نظرية حكم الولي الفقيه، وقام بنشر معتقداته بين طلابه.

بعدها غادر النجف إلى باريس، ومن هناك بدأ يحث الإيرانيين على إسقاط الشاه وحليفته أميركا، وكانت رسائله تسجل وتستنسخ على أشرطة وتهرب إلى داخل البلاد، وتوزع على الناس.

وكان لرسائله التي تبث عبر المذياع أثر كبير في حث الناس على العصيان، الأمر الذي أدى في النهاية إلى سقوط الشاه وفراره من إيران في يناير/كانون الثاني1979 ، ليعود الخميني في فبراير/شباط من نفس السنة.

وفي ديسمبر/كانون الأول 1979 أجيز الدستور الجديد وأُعلنت إيران جمهورية إسلامية، وسُمي الخميني إماما وقائدا أعلى.

وفي عام 1980 دخلت إيران في حرب طاحنة مع العراق استمرت ثماني سنوات، ولم تكد تنتهي حتى بدأت الخلافات الداخلية تظهر في إيران، تزامنا مع تراجع صحة الخميني وتقدمه في السن.

ومن أجل الحفاظ على الثورة أصدر عدة مراسيم تقوي سلطة الرئيس والبرلمان ومؤسسات الدولة الأخرى.

صدرت للخميني العديد من الرسائل والكتب، من أهمها: الحكومة الإسلامية وولاية الفقيه، مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية، مسائل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوصية الإلهية السياسية (الوصية).

توفي آية الله الخميني يوم ٣ يونيو/حزيران 1989

** إن الأمة الإيرانية –وعلى مختلف مشاربها ومذاهبها– قد اتخذت من الخميني قطبا وحيدا لرحاها.. وكان بإمكان الخميني أن يكون ويبقى فوق كل تيار أو أيدلوجية ومرجعا أوحدا عند كل خلاف وفيصلا في كل تصادم، ومنارا للحرية ومرشدا للأحرار لا في إيران وحدها، بل وفي كافة أقطار العالم الثالث الذي استقبل ثورة الخميني استقبال اليائس لعراض الآمال.

لقد فتح التاريخ أمام الخميني أوسع أبوابه ودعاه إلى رحابه وقدم إليه قلمه وكتابه، ولكن الخميني لم يسجل في كتاب التاريخ غير خيبة أمل أمته وخيبة آمال شعوب العالم الثالث بشخصه وثورته ونظامه.

فالخميني لم يستطع بحكم فطرته أن يرتفع فوق مستوى القوة النزوعية إلى مستوى العقل فكان لابد له من أن يترك للإعدام والسجون والمنافي أن تتوزع فيما بينها الأزاهير من الشباب الإيراني المثقف المسلم، وأن يسحق بمطرقة طغيانه الغبي كل فضيلة وفاضل وكل موهبة وموهوب: فالطغيان لا يرتاح إلا للرذيلة والرذيل والطغاة لا يطمئنون إلا للتفاهة والتافه وذلك لأن كل طاغية تافه ومرذول.

ولكن ما هي الأسباب التي دفعت بالتخميني إلى الانحراف عن جادة العقل وبحكم ذلك عن جادة الحرية والأحرار.. وجعلت اسمه مرادفا للطغيان والنزوعية بعد أن كان مرادفا للحرية والعقل

إن انحراف الخميني عن الجادة وتعطيله لموكب الحرية في إيران، وفرضه ذلك النوع الرهيب من نظام الحكم على الشعوب الإيرانية وخروجه على مبدأ الشورى الإسلامي وعلى قواعد الديمقراطية من إسلامية ووضعية، ووضعه السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية في شخص الفقيه أي شخصه. وتخويله دستوريا حق عزل رئيس الجمهورية المنتخب شعبيا، وسلطة إقالة الحكومة وحل مجلس الشورى الأمر الذي يجعله فوق الأمة تمثيلا وسلطة.

ومن ثم نص الدستور على أن يكون الفقيه أيضا القائد الأعلى للقوات المسلحة، وعلى كيفية انتخاب الفقيه والهيئة التي تنتخبه، وتكريسه من حيث الممارسة، والإجراءات الفعلية، المبدأ الشاذ عن كل عرف دستوري أو تقليد فقهي والقاضي بعدم

مسؤولية من يحكم وبمسؤولية من لا يحكم الأمر الذي يسقط مفهومي الحكم والمسؤولية معا .. ويطالبنا بصورة ملتوية بالعمل بمبدأ الحق الإلهي الذي زعمه حكام أوروبا لأنفسهم في القرون الوسطى

ذلك الحق المزعوم الذي أسقطه الإسلام بزمن طويل قبل أن يسقط تحت سكين مقصلة الثورة الفرنسية إذ ورد في القرآن الكريم قوله تعالى، وأمرهم شورى بينهم، وورد أيضا في الحديث الشريف بأن يد الله على الجماعة، وكذلك أمتي لا تجتمع على ضلالة، ولكن الخميني يتجاهل هذه القواعد الأساسية في نظام الحكم الإسلامي ويخرج عليها قولا وفعلا بنظريته في «ولاية الفقيه»

فما هي العوامل في انحراف الخميني بجمهوريته عن منطوق الشرائع السماوية ومنطق التشاريع الوضعية؟

العامل التاريخي، والعامل الثقافي، والعامل النفساني

أما عن العامل التاريخي فقد شهدت إيران الحديثة منذ مطلع هذا القرن حتى يومنا هذا. ثورتين اثنتين وانتفاضة واحدة.. والحق أن هذه الأحداث التاريخية السالفة الذكر تشكل ثلاث حقبات تاريخية بكل ما لكلمة الحقبة من معنى ومفهوم تاريخيين.

فالثورة الأولى عام ١٩٠٩ تمثل نهاية حقبة أسرة القاجار وبداية المرحلة الانتقالية إلى الحقبة البهلوية التي بدأت برضا شاه والد الشاه المخلوع وانتهت بانتفاضة مصدق، حيث كانت هذه الانتفاضة بداية المرحلة الانتقالية إلى الحقبة الثالثة ألا وهي حقبة الثورة الخمينية.

والحق أن الأمانة التاريخية تلزمنا بأن نعترف بأن الشاه محمد رضا بهلوي بذل غاية الجهد خلال المرحلة الانتقالية المذكورة آنفا للنهوض بإيران والارتفاع بها إلى مصاف الدول الغربية.. فقد انعطف بإيران نحو التصنيع، وسعى إلى إنشاء قوات مسلحة ضخمة وحمل إيران إلى عتبات عصر التكنولوجيا، واشترع قانون الإصلاح الزراعي وقام بثورته البيضاء المشهودة.

ولكن جميع هذه المنجزات الفذة والإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية الجذرية تقريبا لم يرافقها إصلاح سياسي أي تقدم نحو المزيد من الحرية والمشاركة الشعبية الحقيقية

في الحكم الأمر الذي أفقد نظام الشاه توازنه وجعله يعيش في حال من انعدام الوزن، فكان حينذاك لابد من تصحيح الأوضاع فجاء الخميني بثورته ليصحح ما انحرف فإذا به ينحرف بكل ما استقام وأن السبب في ذلك يعود فقط إلى العداء التاريخي التقليدي بين الآيات والعلمانيين.

فالأحداث الحقبية الثلاثة أي الثورتان والانتفاضة إنما حدثت فقط نتيجة للتعاون بين الآيات والعلمانيين من برجوازيين على مختلف طبقاتهم وملاك، وعمال وطلبة وفلاحين.

ولكن الآيات كانوا سرعان ما يغدرون بالعلمانيين حالما يلمسون أن زمام القيادة قد فلت من أيديهم وأمسك به العلمانيون. وقد اتضح هذا الأمر من غدر الشيخ فضل نوري بثورة عام ١٩٠٩ وغدر آية الله الكاشاني بانتفاضة مصدق، ومن ثم تصفية الخميني لجميع العلمانيين الذين تعاونوا معه على إنجاح الثورة ابتداء بمهدي بازرگان فالأميرال أحمد مدني فأبو الحسن بنى صدر، فاغتيال مصطفي تشمران فإعدام صادق قطب زاده ف .. ف ..

وذلك لأن الآيات وعلى رأسهم آية الله روح الله الخميني، لم ولن يكتفوا بجوهر السلطة، بل إنهم عازمون على الاستئثار أيضا بمظهر الأمر الذي لم يكتشفه العلمانيون إلا بعد فوات الأوان.

ومن المحزن أن العلمانيين أيضا لم يقرؤوا التاريخ ولم يتعظوا به على الرغم من أن أكثريتهم الساحقة كانوا من أعوان مصدق وأنصاره، وعاشوا مأساة غدر الكاشاني بهم بكل فصولها ومع ذلك كله سقطوا في الشباك التي نصبتها لهم باطنية ذلك الثعلب بهشتي، الذي تمكن بمباركة الخميني من شق صفوف الليبراليين وتشتيت شملهم.

لقد كان من المتوجب على العلمانيين أن يقفوا منذ البدء في اشتراع الدستور موقف المعارض العنيد لمبدأ ولاية الفقيه وذلك لأن موافقتهم على ذلك المبدأ الدستوري كانت بمثابة الاستسلام غير المشروط الدكتاتورية الآيات.

لكن بريق المناصب المفرغة الفارغة جعلتهم يسارعون إلى مدينة «قم» للتمسح بأذيال الخميني وتقبيل يده راحة وظهرا، وهكذا أسلموا إيران إلى طغيان أشرس بكثير من

طغيان الشاه.. إذ أنه طغيان الجهالة على العلم وطغيان التعصب على التسامح وطغيان الهلوسة على العقل.

ويجدر أن نشير إلى أننا استعملنا هنا تجوزا مصطلح علماني وعلمانية .. ففي الإسلام لا يجوز تقسيم المسلمين إلى رجال دين وعلمانيين وذلك لأنه ليست في الإسلام ثمة كنيسة ولا كهانة ولا طقوس.

فكل مسلم متمتع بحواسه الخمس ومتفقه في شؤون دينه ودنياه –نعم دنياه إذ أن الإسلام دين ودنيا– يحق له القيام بوظائف الإمام في الصلاة والمرشد في الحياة، والمفتي في شؤونها.

لذلك فإن النظام الهرمي المعمول به لدى غلاة الشيعة والمتطابق كليا والاكليروس من حيث مراتبه لم يعرفه الإسلام لا في فجره ولا في صدره.

ولما كنا جميعا نعرف نطاق ثقافة الخميني ونعرف أن دائرة معارفه لا تضم حتى الآن الكثير الكثير من معارف العصر وعلومه، ونعرف أن العالم المسلم ينبغي أن يكون أوسع شمولية من العالم اللاهوتي.. إذ إن العالم المسلم يجب أن يكون محيطا بعلوم الدين والدنيا معا. نظرا لأن الإسلام دين ونظام ونعلم مدى انطباق هذه الشروط على الخميني ونعلم مدى معاناة الآخرين لذلك كله سنتجاوز استعراض العامل الثقافي في انحراف الخميني عن الجادة إلى العامل النفساني.

هذا العامل النفساني الذي نستطيع تلخيصه بفطرة الخميني الحقود حيث أن الخميني لم يدخل إيران لينشي دولة ويقيم مجتمعا إسلاميا حرا، بل إنما جاء إيران حاقدا منتقما وناسيا أن من عفا ساد ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال القلوب

الخميني استخدم مراجع التقليد

لقد سبق لنا القول أن كل صراع داخلي شهدته إيران وسواء اتخذ شكل المظاهرة السياسية أو الانتفاضة الشعبية أو الثورة الأهلية، فإنما كان وحتى قبل وثوب رضا بهلوي على العرش وتربعه على أريكة السلطة صراعا بين العرش وبين المسجد، ونزاعا بين الثكنة العسكرية من جهة وبين الحسينية والحوزة العلمية من جهة أخرى، وذلك لأن العرش كما قلنا من قبل قد استعاض عن ولاء الشعوب الإيرانية بولاء قواته المسلحة

الأمر الذي وفر للمؤسسة الدينية في إيران أفضل الظروف لتصبح المحور الأساسي لا بل الوحيد، الذي تدور عليه الأمة الإيرانية بجماهيرها العريضة وفي جميع أنشطتها الاجتماعية والسياسية

فالمؤسسة الدينية الإيرانية كانت وما زالت المنبع والناظم والموجه لزخومية كل حركة ذات أثر في المجتمع الإيراني وشأن في الحياة السياسية، فلهذه المؤسسة نظام هرمي ثابت وتقاليد موروثة وتاريخ عريق في العمل السياسي ويبدأ بنشوب النزاع المسلح بين على – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وبين معاوية.

كما وأن لها نظاما من ضبط وربط صارمين. ولها أيضا مراتبها ورتبها المماثلة تماما لمراتب ورتب أكليروس، الكنيستين الكاثوليكية والبروتستنتية، فهناك مثلا الملا وحجة الإسلام وآية الله ومن ثم آية الله العظمى والإمام، وهنا الشماس والقس، أو الكاهن، والمطران والبطريرك والكردنيال والبابا.

أضف إلى ذلك أن هذه المؤسسة تفرض على كل فرد من اتباع طائفتها أن يدفع الخمس من دخله إلى الأمام أو من ينيبه عنه، الأمر الذي يجعل منها مؤسسة إدارة وحكم، علما بأنه ليس في الإسلام ثمة أكليروس وليس فيه لمثل هذه المؤسسة أية كينونة شرعية مستقلة.

والحق إننا إذا تأملنا في المؤسسة الدينية الشيعية الإيرانية، وفيما لها من تنظيم ومراتب وسلطات، ندرك أن عوامل السياسة أكثر من عوامل الاجتهاد في الدين، هي التي أوجدتها كيانا ونظاما. ولذلك فإنها هيكلا ونظاما تستهدف صراحة الاستيلاء على السلطة السياسية.

أضف إلى ذلك أن هذه المؤسسة تدير في إيران ما يتجاوز الستين ألف مسجد وحسينية وحوزة علمية أي أن لها ما يزيد على الستين ألف فرع منتشرة في طول البلاد وعرضها، ومربوط بعضها ببعض بأوثق الروابط وينبغي ألا ننسى هنا أن النظام الإيراني قد سبق له أن اعترف دستوريا بسلطة المؤسسة الدينية.

فالدستور الإيراني الصادر في ١٩٠٥ والذي ألغاه الشاه رضا بهلوي، ينص صراحة على أن كل قانون صادر عن مجلس النواب، لا يصبح نافذ المفعول إلا بعد إقراره من لجنة تتألف من خمسة من المجتهدين.

ولذلك فان لهذه المؤسسة بحكم الطبيعة والظروف والتاريخ معا كينونة مستقلة، وقدرة هائلة لا بل كاسحة على تعبئة الجماهير وتوجيهها الوجهة السياسية التي تتوخاها.

ولكن نقطة الضعف الوحيدة في هذه المؤسسة تتمثل في تعدد رؤوسها المسمين بمراجع التقليد وكان النظام السياسي في إيران يهدف في كل عمل يأتيه إلى إشاعة الخلاف بين رؤوس المؤسسة هؤلاء.

فالنظام كان يدرك أن وحدة كلمة مراجع التقليد تعني وحدة كلمة الشعوب الإيرانية لذلك كان يدرك أيضا أنه إذا توحدت كلمة المراجع فعندئذ لن يستطيع النظام السياسي أن يصمد طويلا أمامهم إذا اعترض سبيلهم إلى ما يريدون، الأمر الذي لم يدركه الشاه المخلوع، وذلك لأن نرجسيته الطاغية قد أعمته عن رؤية كل حقيقة من حقائق واقع الأمة الإيرانية، وكانت العامل الأساسي في توحيد صفوف المؤسسة الدينية، وبذلك حكم الشاه بنفسه على نفسه بالسقوط وعلى نظامه بالاندثار، فهو الذي مهد الطريق إمام الخميني زعيم المتطرفين للسيطرة على المؤسسة الدينية ومن ثم على إيران بأكملها.

والحق أنه حالما آلت السلطة إلى الخميني سارع إلى الحد من نفوذ، لا بل محاولة تصفية مراجع التقليد هذه. وكانت أبرز محاولاته اتهام آية الله كاظم شريعة مداري بالاشتراك مع المرحوم صادق قطب الذي أعدمه الخميني مؤخرا بتهمة التأمر على جمهوريته ولا خلاف أن كاظم شريعة مدارى يعتبر أكبر مرجع تقليد في إيران. وهو بالإضافة إلى كونه الزعيم الروحي غير المنازع لأذربيجان، فان له عددا غفيرا من المريدين من أبناء الشعوب الإيرانية الأخرى.

المؤسسة الدينية والسياسة

كانت المؤسسة الدينية حتى عام ١٩٧٧ منقسمة إلى ثلاثة أجنحة. وكان أكبر هذه الأجنحة وأضخمها عددا ذلك الجناح الذي يرأسه آية الله الخوئي النجفي وآية الله أحمد الخرساني وكذلك آية الله المرعستى النجفي.

وكان هؤلاء جميعا يقولون بضرورة ابتعاد رجال الدين عن السياسة وبتركيز جميع الأنشطة الدينية على شئون الدين فقط وبالاهتمام بقضايا الأخلاق، ومحاربة التسيب وإغلاق دور اللهو من نواد ليلية وصالات ميسر وسواها.

ولم تكن مطالب هذا الجناح من السلطة تتجاوز القضايا المشار إليها آنفا. ولكن خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٧٥، ١٩٧٧ وبعد أن ضجت جماهير طهران وغيرها من المدن الإيرانية الكبرى من الغلاء الفاحش والارتفاع الجنوني في أسعار المواد الضرورية، وبعد أن اضطرت الحكومة إلى اتخاذ إجراءات قمعية شديدة ضد أصحاب المتاجر، حيث سجنت ما يزيد على خمسة وعشرين ألفا منهم، وبعد أن تجاوزت الحكومة بإجراءاتها القمعية التجار وأصحاب الحوانيت إلى المساس مباشرة بمصالح المؤسسة الدينية.

وبعد أن التهب «البازار» أي السوق. على الشاه وحكومته وللبازار كما نعلم أوسع الأثر والد السياسة في إيران، بعد كل هذه الوقائع، انضم هذا الجناح من المؤسسة الدينية، والذي لم يسبق له العمل من قبل في السياسة، إلى الجناح المتطرف من المؤسسة الذي كان يرأسه الخميني.

أما الجناح الثاني من المؤسسة فكان يمثل المعتدلين في السياسة وكان من أبرز قادته آية الله شريعة مداري ومحمد رضا غوليا يقاني ومحمد هادي ميلاني وأخيرا آية الله زنجاني، وكان هذا الجناح حريصا كل الحرص على الإبقاء على قنوات اتصال بينه وبين الشاه.

وكان يعارض منح المرأة حق الانتخاب وكذلك قانون الإصلاح الزراعي ويسعى جاهدا للحفاظ على مصالح المؤسسة الدينية، وكان يطالب بنظام ملكي دستوري وبالعودة إلى العمل بدستور عام ١٩٠٥ والذي ينص على أن تكون هناك لجنة مؤلفة

من خمسة مجتهدين أو فقهاء ويكون لها القول الفصل في إقرار كل قانون يصدر عن مجلس النواب.

وقد سبق لهذا الجناح أن ساند حركة مصدق وتعاون مع الجبهة الوطنية الإيرانية وجبهة تحرير إيران لكنه كان دائما وأبدا يحافظ على استقلاله وذاتيته.

وزبدة القول أن هذا الجناح من المؤسسة الدينية لم يكن جناحا ثوريا يهدف إلى إسقاط النظام الشاهنشاهي واستبد بأي نظام آخر، بل كان بطبيعته تيارا إصلاحيا سياسيا شديد المحافظة اجتماعيا.

وكان من مطالبه الرئيسية العودة إلى العمل بدستور عام ١٩٠٥ لكن إجراءات الشاه القمعية ضد البازار (السوق) بالإضافة إلى قيام الشاه بإنشاء حزبه المعروف باسم حزب البعث الإيراني ورعونة هذا الحزب في سلوكه السياسي، وإثارة الذعر بين صفوف هذا الجناح الديني المعتدل، جعل المعتدلين الممثلين بشريعة مداري ومحمد رضا غوليا يقاني، يرون في حزب البعث الإيراني عزم الشاه وتصميمه على تصفية المؤسسة الدينية كيانا ونفوذا.. كل ذلك دفع بهذا الجناح المعتدل إلى الانضواء تحت راية الخميني وإلى اندماج معظم قواعده في قواعد المتطرفين.

أما الجناح الثالث من المؤسسة الدينية فهو الجناح المتطرف الذي يرأسه الخميني وبعض تلامذته البارزين كمحمد بهشتي ومرتضي مطهري وهاشمي رفسنجاني وأخيرا على خامنئي رئيس الجمهورية الإيرانية الحالي.

ولم يكن هذا الجناح يتوخى الإصلاح ولم يكن يطالب بالعودة إلى دستور عام ١٩٠٥ فلقد كان ثوريا بكل ما للثورة من معنى ومفهوم.

فلقد كان يريد إنشاء نظام جديد كل الجدة، يكون فيه لرجال الدين السلطة المطلقة. ويتمثل في حكومة إسلامية، وكان يقول أيضا بأنه يتوجب على هذا النظام ألا يطمئن إلى الليبراليين فهو يرى أن الليبراليين خدعوا وخانوا المؤسسة الدينية بشخص مصدق، لذلك القائمين على هذا النظام ألا يكلفوا الليبراليين بغير المهام الثانوية، ولكن ينبغي ألا يشعر الليبراليون بحقيقة نوايا رجال الدين تجاههم.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن آية الله محمد بهشتي كان يتمتع بعقلية سياسية مرنة للغاية. وكان منفتحا على مختلف التيارات، بمن فيهم الشاه بالذات، وكان حتى قبيل سقوط الشاه يشغل منصب إمام مسجد بمدينة هامبورج الألمانية.. وكانت الحكومة الإيرانية هي التي تتولى الإنفاق على المسجد المذكور. كما كان بهشتي يؤلف الكتب المدرسية لحساب وزارة المعارف.. وعلى الرغم من ذلك كله فإنه بقي متمتعا بثقة الخميني المطلقة.

أما هاشمي رافسنجاني فلقد تميز بقدرته الفائقة على التنظيم ولاسيما تنظيم الشبكة السرية التي كان يشرف عليها الخميني بالذات، وأخيرا فإن آية الله مرتضى مطهري كان يتميز بعقلية فلسفية وببراعة فائقة في التنظير. وقد بقى حتى ساعة اغتياله يشغل منصب أستاذ العلوم الدينية في جامعة طهران.

كما سبق له أن كان أيضا وفي عهد الشاه، المشرف العام على الحسينية الشهيرة حسينية الإرشاد.

تكتيك الخميني

على الرغم من أن الخميني كان واضحا غاية الوضوح في بعض أهدافه الإستراتيجية ولاسيما إسقاط الشاه ونظامه، وكان صلبا في تمسكه بأهدافه المعلنة وعنيدا حتى المكابرة في الدفاع عنها.

غير أنه كان يتمتع بمرونة عجيبة وبراعة فائقة في تكتيكه، فلقد كان يتعاون مثلا مع كل فئة أو هيئة أو حزب يلتقي معه على إسقاط الشاه. ولم يكن يهتم بأيديولوجية ذلك الحزب وسواء كان شيوعيا ملحدا أم ليبراليا ماديا أم حتى فوضويا، وكان يشعر جميع من يتعاون معهم بأنه منهم ولهم وأنه لن ينصر ولا ينصر أية فئة على أخرى، وأن هدفه الأوحد هو وحدة الكلمة ووحدة الصف معا ولذلك وقف على الحياد عندما قام الدكتور على شريعتي بالهجوم على بعض رجال الدين في المحاضرات التي كان يلقيها في حسينية الإرشاد الأمر الذي دفع بتلميذه الأثير مرتضى مطهري إلى الاستنجاد به كي ينصره على الدكتور شريعتي ولكن الخميني الذي كان يدرك ما للدكتور على شريعتي من تأثير ونفوذ في دوائر المثقفين ولاسيما الشباب منهم فرفض الاستجابة إلى شكوى

مطهري وبقى صامتا، مما اضطر مطهري إلى الاستقالة من منصبه كمشرف ومدير للحسينية المذكورة، وذلك احتجاجا على موقف الخميني منه.

أضف إلى ذلك أنه عندما صدر كتابه الشهير ولاية الفقية، أو الحكومة الإسلامية وأثار ثائرة معظم المعارضين لنظام الشاه بسبب ما طالب به الخميني للفقيه من سلطات مطلقة سارع الخميني إلى الإيعاز إلى أنصاره بأن يذيعوا ويشيعوا بأن السافاك (الاستخبارات الإيرانية) هي التي قامت بدس الكثير من السموم في متن كتابه المذكور.

والحق أن الخميني كان في تكتيكه يرفض دائما أن يترك حدث أو جماعة أو إنسان أن يستجره إلى موقف لم يعزم مسبقا على اتخاذه أو أن يجعله يبدو متحزبا لأية حركة أو جناح أو جماعة.

ولقد اتعظ بردود الأفعال التي خلفها كتابه ولاية الفقيه تلك الردود التي كادت أن تفرط عقد المعارضة وتشيع الانقسام في صفوفهم، لذلك أخذ منذ عام ١٩٧١ يركز كل نشاطاته الدعائية والتنظيمية على هدف واحد ووحيد إلا وهو إسقاط الشاه ونظامه الأمر الذي مكنه أخيرا من احتواء جميع المعارضين العلمانيين فلسفة وحتى الماركسيين منهجا وكذلك أتباع مصدق بجميع فروعهم ومشتقاتهم.

ولكن مرونية هذه في التكتيك سرعان ما كانت تتحول إلى تصلب وعناد شديدين إذا لمس أن ثمة حركة، أو جناحا أو حزبا أو إنسانا من أعوانه أو مخالفيه يطمع في أن يحل محله كقائد سياسي وزعيم روحي.

ذلك لأن الخميني كان عازما العزم الأكيد على ألا ينتهي إلى ما انتهى إليه آية الله الكاشاني على يدي مصدق، لذلك رفض عرض ضباط الجيش الإيراني عندما أوفدوا ممثلا لهم إلى باريس ليعرض على الخميني القيام بانقلاب عسكري على الشاه شريطة أن يحظوا بتأييده العلني لهم.

فلقد أجابهم الخميني بأنه لن يسمح لغير الأمة الإيرانية بإسقاط الشاه، وأن على الجيش الإيراني أن يعرف حق المعرفة بأنه حتى ولو انقلب على الشاه أو أسقطه فإنه سيتابع الصراع ضد الجيش لأن الجيش كما قال الخميني لهم، إذا تسلم السلطة فلن يتنازل عنها إلا بعد صراع دموي طويل بينه وبين جماهير الشعوب الإيرانية.

لقد كان ومازال الخميني عازما على ألا يسمح لغير المؤسسة الدينية بتولي مقاليد السلطة في البلاد وعلى العباد، وكان الخميني صريحا للغاية في الإعلان عن عزمه الآنف الذكر في الخطاب الذي وجهه إلى رجال الدين في ٢١ يونيو من عام ١٩٨٢ حيث قال ما ترجمته بالحرف الواحد:

"إننا حينما نتأكد من أن ثمة مجموعة من الناس، ومن غير رجال الدين سيحكمون وفقا للشريعة وعندئذ سيعود الخميني وكذلك البارزون من رجال الدين إلى بيوتهم وسيتخلون عن السلطة لمثل تلك المجموعة، ولكن طالما لا يزال يراودنا الشك في وجود مثل أولئك الناس، فإننا سنبقى متمسكين بمقاليد السلطة ولن نأبه بما يقولونه أو يتقولونه ولن نعبأ بوصفهم لنا بأننا دولة الملا، فهم يريدون أن يرغمونا على التخلي لهم عن السلطة ليحكموا بغير ما يتفق وشرف الإسلام".

والحق أن مثل ذلك الكلام الصريح في معناه وأهدافه، ما كان ليصدر عن الخميني قبل عودته ظافرا إلى طهران وانفراده وحزبه بمقاليد السلطة في إيران.

فلقد كان الخميني بارعا وموفقا كل التوفيق في إخفاء نواياه الحقيقية عن حليف في غاية القوة والنفوذ، ألا وهو الدكتور على شريعتي الذي لا يزال يتمتع حتى هذا اليوم، وبعد مرور سنوات على وفاته، باحترام الشبيبة الإيرانية والمثقفين الإيرانيين على اختلاف مشاربهم.

كما كان الخميني أيضا ناجحا كل النجاح في اللعب على سذاجة المعارضة المسلحة كالمجاهدين المسلمين الماركسيين والفدائيين ومجموعة «أبو ذر الغفاري» ومجموعة الشيعة الأصلية والمنظمة الشيوعية الثورية الإيرانية، إلى غير ذلك من هذه التنظيمات التي انضوت تحت لوائه وشاركت المشاركة الفعلية في إسقاط الشاه ونظامه، أما اليوم فإننا نرى جميع تلك التنظيمات باستثناء الشيوعيين، ولاسيما حزب توده تستأنف صراعها المسلح ضد الخميني ونظامه.

خمينيون قتلهم الخميني

كما كانت سياسة الخميني تجاه أعداء ثورته عنيفة ودموية، فكذلك كانت سياسته تجاه رفقاء دربه وأعوانه عندما دب الخلاف بينهم!

فالخميني الذي حكم إيران ما بين عام 1989 – 1979م، ركب على ثورة الشعب الإيراني حتى أطيح بالشاه محمد رضا بَهْلَوِي.

وكان الأب الروحي لعدد من الشيعة داخل إيران وخارجها، ودرجته الحوزوية "آية الله" وتضاف إليها "العظمى" لأنه بلغ الاجتهاد في نظر الشيعة وأصدر رسالته العملية، أي مجموعة فتاواه في العبادات والمعاملات في الإسلام. ولكنه لم يكن قائد الثورة الفعلي وإنما جموع الشعب بكافة أطيافه المتضررة من استبداد الشاه وفساده.

الخميني كان رجلاً سياسياً بكل معنى الكلمة، وكان حاذقاً جداً؛ إذ ركب على ثورة الشعوب الإيرانية وأخذ زمام الثورة والحكم وكافح كفاحاً شديداً من أجل الحفاظ على كرسيه الهش في مستهل الثورة، ثم رسخت أرجله في حكم إيران فيما بعد، وقتل وشرد وسجن ونفى كلَّ من خالفه.

وسنذكر أسماء أشهر رجال الدين والسياسة الإيرانيين الذين قتلوا في مدة حكم الخميني، والذين قتلوا بعده لكن على النمط والطريقة نفسهما.

هذه طريقة المستبدين الطغاة الذين لا يقبلون أي صوت يخالف صوتهم، ولا يتحملون شخصاً لا يأتمر بأوامرهم، والخميني ليس مستثنى من هذه القاعدة. وإليكم بعض الخمينيين الذين قتلهم الخميني:

صادق قطب زاده:

أول من نتكلم عنه هو صادق قطب زاده، كان مستشاراً للخميني ووزير الخارجية والإعلام في مرحلتين بعد انتصار الثورة. وهو الذي استأجر الفيلا الذي يسكن فيها الخميني في قرية نوفل لوشاتو بفرنسا.

صادق قطب زاده كان مترجماً ومستشاراً سياسياً للخميني أيام إقامته في فرنسا؛ حيث درس قطب زاده اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة. ويعد من أهم معاوني الخميني ولولاه لما استطاع الخميني أن يتكلم مع الغربيين بسهولة ولما استطاع أن يطمئنهم على حكومته القادمة، وبعبارة أخرى لولا صادق قطب زاده لما استطاع الخميني خداع الغرب بسهولة.

كان قطب زاده عضواً في عدد من الأحزاب السياسية في عهد الشاه المخلوع، وهرب من إيران بسبب مواقفه العدائية لحكم الشاه، وجال في المنطقة وزار لبنان والتقى فيها بموسى الصدر وزار العراق وسوريا وفي النهاية زوَّر جواز السفر السوري وذهب إلى فرنسا.

ولما رجع الخميني من فرنسا إلى إيران بطائرة فرنسية خاصة رافقه صادق قطب زاده، ومن الطريف أنه سأل الخميني ما شعورك بعودتك إلى إيران بعد كل هذه السنوات؟ رد الخميني قائلاً: لا شيء! وبهت قطب زاده من جوابه.

ثم بعد وصولهم إلى طهران وبعد تشكيلهم الحكومة المؤقتة شارك صادق قطب زاده في كتابة الدستور الإيراني الجديد وشغل مناصب عليا من وزارة الإعلام ووزارة الخارجية وعضوية البرلمان، لكنه بسبب خلافاته مع الخميني اتُّهم بمحاولة تفجير بيت الخميني وأجبروه أن يعترف بهذه التهمة على التلفزيون الحكومي، وتم إعدامه في سجن إيفين بعد أربع سنوات من الثورة.

أية الله حسن لاهوتي:

كان في عهد الشاه من مناصري الخميني وأمضى ثلاث سنوات قبل الثورة في السجن، وبعدما أُفرج عنه ذهب إلى فرنسا ليرافق الخميني، ولم يمكث هناك إلا عشرة أيام ثم رجع إلى إيران مع الخميني في الطائرة الفرنسية التي خصصت للخميني ورفاقه. وهناك صورة مشهورة من نزول الخميني من الطائرة وحسن لاهوتي واقف خلف الخميني.

بعد تأسيس ما يسمى بحكومة الجمهورية الإسلامية في إيران انتخب عضواً في البرلمان الجديد، وكان أول خطيب للجمعة في مدينة رَشْت مركز محافظة جيلان. إذ إن الشيعة لم يصلوا صلاة الجمعة في إيران منذ عهد الصفوية حتى عهد الخميني.

تقول الشيعة إن الجمعة من خصائص الإمام، ولا يجوز لأحد أن يصلي الجمعة بالناس إلا الإمام أو نائبه والخميني يعد نفسه نائباً للإمام المهدي (المزعوم) وهو يعين الأئمة. وإلى يومنا هذا المرشد الأعلى في إيران هو الذي يعين أئمة الجمعة في كل المدن الإيرانية.

ثم تقلد حسن لاهوتي مناصب أخرى مثل قيادة قوات الانقلاب، وكان مهمتها إعادة الأمن إلى المجتمع وكانت بمثابة الشرطة في مستهل الثورة. وتقلد أيضاً منصباً أهم وهو رئاسة الحرس الثوري الإيراني لمدة وجيزة.

لكن كل ما قدمه للخميني وثورته الرضيعة لم يشفع له عند الخميني لأنه كان ذا آراء تخالف آراء المرشد الأعلى الذي يسمي نفسه الولي الفقيه والمرجع الأعلى ونائب إمام الزمان. كثيراً ما يقول الخميني أمرت من الله أن أقود هذه الثورة.

ثم بسبب عدم تصويته ضد بني صدر، أول رئيس للجمهورية الإسلامية في مجلس الشورى، حقد عليه الخميني وتم اعتقاله وبعد فترة وجيزة مات في السجن.

وقالت الحكومة آنذاك مات حسن لاهوتي على إثر نوبة قلبية... لكن قالت أسرته كما نقلت عنهم مجلة أسبوعية باسم "شَهْرْوَنْد" بعد الفحص الطبي للجسد وجدوا مادة إستريكنين السامة في معدة المتوفى. وبسبب هذا الحوار مع أسرة لاهوتي تم إغلاق المجلة في عهد أحمدي نجاد.

داريُوْشْ فُرُوْهَر:

داريوش فروهر كان من السياسيين القدامى في عهد الشاه، كافح نظام السلطة وسجن في عهد الشاه أكثر من عشر مرات، وكان ابن الخميني (مصطفى) معه في أحد السجون. ويقال إن هذه المعية كان سبباً للإفراج عنه بعدما سجنه الخميني بثلاث سنوات بعد الثورة.

كان داريوش فروهر يقود المظاهرات ضد الشاه وأسس عدة من الأحزاب السياسية، وكان جريئاً جداً حتى أنه واثنين من أصحابه (د. كريم سنجابي، وشابور بختيار) كتبوا رسالة إلى الشاه وطلبوا منه صراحة أن يتخلى عن الاستبداد بالحكم وينصاع لمطالب الشعب.

وكان داريوش فروهر قبل انتصار الثورة قد ذهب إلى باريس ليصاحب الخميني ولم يمكث هناك إلا ستة عشر يوماً إلى أن رجع معه في طائرته الخاصة إلى طهران، وكان من مقربيه في بداية الثورة.

وبعد انتصار الثورة رشح نفسه لرئاسة الجمهورية لكن سبقه بني صدر سبقاً بعيداً وجاء هو في المرتبة الثانية، وفي حكومة "بازركان" انتخب وزيراً العمل، وكان مندوب الرئيس في أمور كردستان.

وبسبب جموحه أمام استبداد الخميني فقد سجن، ولكن شفعت له معية مصطفى خميني في سجن الشاه وأفرج عنه بعد ستة أشهر. وبعد ذلك تم إقصاؤه من كل عمل سياسي داخل الحكومة؛ لكنه واصل طريقه وتم اغتياله في بيته مع زوجته "بَرْوَانَهْ إِسْكَنْدَرِي" سنة 1999 يعني بعد ٩ سنوات من وفاة الخميني.

حسين علي منتظري:

آية الله حسين علي منتظري (1922) هو الآخر من المتضررين من حكم الخميني في إيران. هو رجل دين إيراني، وكان أحد قادة الثورة المسماة بالإسلامية.

بعد انتصار الثورة تولى المنتظري رئاسة مجلس قيادة الثورة، ومجلس الخبراء، وأصبح إمام صلاة الجمعة بعد رحيل آية الله محمود طالقاني، وأخيراً عينه الخميني نائباً للمرشد الأعلى، باعتباره الرجل الثاني في الثورة الإيرانية، وأطلق عليه لقب نائب القيادة العليا.

شكلت حمايته المستمرة لشقيق صهره، مهدي الهاشمي، المسؤول السابق عن مكتب حركات التحرر، بداية التوترات بينه وبين النظام والثورة. فقد اتهم مهدي هاشمي من قبل النظام في مايو من عام 1986 بإفشاء معلومات المفاوضات التي جرت بين الناطق باسم البرلمان الإيراني آنذاك، علي أكبر هاشمي رفسنجاني مع الولايات المتحدة الأمريكية، وكان أيضاً متهماً من قبل النظام السابق بقيامه باغتيال مراجع الدين في إيران سنة 1988 فصدر حكم إعدامه على الرغم من معارضة منتظري واحتجاجه على ذلك.

وفيما بعد ازدادت التوتُّرات بين منتظري وبين النظام. فكان في بعض القضايا، كاستمرار الحرب العراقية – الإيرانية ومحاكمات المعارضة من جماعة مجاهدي خلق، يقف بخلاف ما يعتقده أقطاب النظام. ثم قام بإرسال رسائل إلى الخميني موجهاً فيها انتقاداته للنظام. وتوفي في بيته عام 2009 محصوراً مهجوراً.

العلامة أحمد مفتي زاده:

ولد العلامة أحمد مفتي زاده (1933–1993) في مدينة سِنَهْ (سَنَنْدَجْ) في محافظة كردستان في عائلة دينية عريقة.

بحلول الثورة الخمينية عام 1978 كان مفتي زاده قد أسس حركته السياسية الإسلامية مع رفاقه الكرد الذين أيدوه في فكرة تأسيس دولة إسلامية في إيران مع حكم ذاتي للكرد في إطار الدولة الإيرانية.

في عام 1978 أسس مفتي زاده المدرسة القرآنية في مدينة سنه (سنندج) في كردستان إيران، فالتف حوله شباب منطقة كردستان وعموم شباب إيران من أهل السنة والجماعة.

ساهم مفتي زاده في الثورة على الحكم الشاهنشاهي وضاعف جهوده لدعم الثورة بتوعية أهل السنة والنهوض بهم لمسايرة باقي الإيرانيين من الشيعة في وجه الطغاة وساهموا في الثورة مساهمة فعالة وقدموا في سبيل ذلك تضحيات كثيرة من خيرة أبنائهم.

بعد انتصار الثورة كان أحمد مفتي زاده عضواً في مجلس الثورة ومجلس الشورى الإسلامي في إيران.

بعد عدة مناقشات مع قائد الثورة الخميني، عبر وسطاء. ذكر أن مفتي زاده قال: إن ضمانات الحكم الذاتي في كردستان موجودة في جيبي. لقد عرض قادة الثورة الإسلامية عدداً من الضمانات لحكم ذاتي للكرد في إيران مقابل دعم الكرد للثورة الإسلامية.

لكن الخميني خدعه ولم يفِ بأي ضمان أعطاه بل ناصبه العداء، واعتقل مفتي زاده عام 1983 في عهد الخميني من قبل السلطات الإيرانية بحجة أنه يشكل خطراً على الأمن القومي وأمضى عشر سنوات عجاف في السجن وعذب وسجن في الزنزانة الانفرادية، توفي مفتي زاده بعد أشهر قليلة من إطلاق سراحه عام 1993 وكان قد اشتد عليه المرض.

أبو الحسن بني صدر

ولد أبو الحسن بني صدر في مقاطعة همدان في إيران، وكان والده من رجال الدين النافذين في همدان، وكانت تربطه صداقة مع روح الله الخميني. درس بني صدر الاقتصاد والحقوق الإسلامية في جامعة طهران.

كان بني صدر يقيم في باريس مدة خمسة عشر عاماً، وبعد انتصار الثورة رجع إلى إيران مع الخميني في طائرة مخصصة له وشغل مناصب عالية في الحكومة المؤقتة وبعدها عين أول رئيس إيراني بعد الثورة بأصوات الشعب.

لكن سرعان ما انقلب عليه أنصاره الثوار من الخمينيين وتواطئوا ضده وسحبوا الثقة عنه في مجلس النواب، وبعد ذلك هرب من إيران وعاش في باريس.

الإعدامات

أما الإعدامات الجماعية للمنتسبين إلى منظمة مجاهدي الخلق في عهد الخميني وبأمره يفوق عددهم ثلاثة آلاف شخص، أعدموا في السجون وهم أيضاً كانوا في سلك الخمينيين؛ إذ أيدوا ثورة الخميني وساعدوه في بداية الثورة؛ لكن الخميني انقلب عليهم وحاربهم واعتقل آلافاً منهم وأعدمهم في السجون.

الفصل الأخير

لم يعرف الخميني أنه ليس المهم أن يسقط النظام، لكن المهم غاية الأهمية ألا ينتهي بإيران، بعد سقوط الشاه، إلى فراغ تتخبط فيه الشعوب الإيرانية في ظلمات الحيرة، فلا تعرف أين تسير ولا إلى أين تقصد، فتمسى بذلك فريسة لديناميكية أحداث تستجر وتجر السلطة الثورية إلى مجتلدات العنف وسراديب التوجس والقلق. الأمر الذي يستنزف طاقات الأمة ويهدر زخومها ويشل حيويتها.

فالثورة ليست غاية في ذاتها، وينبغي، وفي مطلق الأحوال ألا تصبح غاية في ذاتها، إنها فقط وسيلة إلى هدف يتمثل في إتاحة الفرص لتطور الأمة الروحي والمادي إلى الأفضل لذلك فليست ثمة مثل عليا ثورية ولا قيم ثورية.

فالثورة فعل نفي لما هو كائن وليس فعل تأكيد على ما ينبغي أن يكون، ولا حتى فعل انطلاق نحو ما يجب أن يكون، إنها فعل تهيئة لانطلاق، إنها عملية جراحية كبرى

تجريها الأمة على مجتمعها، لذلك فان الصحة صحة المجتمع وعافيته هما الهدف، وليست العملية الجراحية.

ويتوجب على المرء أن يعرف حق المعرفة بأنه ليس من المهم أن تستولي على السلطة، بل إنما المهم غاية الأهمية أن تعرف كيف ولماذا تستخدم السلطة، ولقد اتضح أن الخميني وزمرته لا يعرفون، ماذا يفعلون بالسلطة وكيف يستخدمونها، ولا خلاف أن السبب في ذلك يعود أولا وأخيرا إلى أن الخميني وعصبته قد استولوا على السلطة قبل أن يتوفر لهم أي منهاج أو برنامج يمكن أن يكون لهم دليل عمل في ممارسة السلطة الممارسة العاقلة المعقولة والهادفة إلى الارتفاع بالشعوب الإيرانية إلى مستوى من الحياة أرفع من المستوى الذي بلغته الأمة الإيرانية في عهد الشاه.

والحق أن افتقار السلطة الثورية بخاصة إلى دليل عمل، يجعلها قوة خطرة غاية الخطورة، في داخل بلادها وخارجها، وذلك لأنها تحاول أن تستر فقرها، أو بالأحرى جهالتها بقناع من العنجهية والغرور، وأن تفض مشاكلها بالقمع والزجر، فليس كالغطرسة من ستار للجهالة ولا كالعنف من سلاح لها، وليس ثمة عامل يبعث على اشد أنواع الغثيان مرارة وقرفا كاستعلاء الجهالة التي حينما تستعلي تبلغ أقذر درك من دونية الجهل.

ولكن هل كان الخميني يفتقر إلى الأعوان من الجهابذة في ثقافة العصر، والمتبحرين في سياسات وسيكولوجيات الشعوب وتواريخها؟

فما خرج علينا به الخميني في كتبه ولاسيما في كتابه ولاية الفقيه أو الحكومة الإسلامية، وحتى في كتابه «كشف الأسرار»، إنما يمثل عموميات ضبابية وتجاريد ميتافيزيقية وأراء بلغت من السخف والهزل درجة لا تبعث فقط على الرثاء للأمة الإيرانية؛ بل وأيضا على التفجع على ما آلت إليه إيران من مصير.

والحق أن الخميني لم يكن يفتقر إلى تلك العناصر البشرية التي حصلت على أعلى الدرجات العلمية واكتسبت من الحياة النضالية بمرير تجاربها المعارف الواسعة في النظرية، والخبرات العميقة في التطبيق، لكن الخميني كان يفتقر إلى الغيرية في القيادة والتوجيه، وإلى الخيرية في الفطرة والسلوك وعلى الرغم من أنني راسخ القناعة من أنه لم يكن ثمة

إنسان ينافس الخميني أو يطمع في منافسته مستقبلا، غير أن افتقاره إلى خيرية الفطرة جعله أنويا، ولا أقول أنانيا، يعتقد أنه بلغ أعلى مراتب الحكمة وأصبح مطلعا على الحقائق النهائية في الكون.

والحق أنه لم يسبق أبدا لأي زعيم ثورة في التاريخ الحديث أن اجتمع حوله ذلك العدد الضخم من المثقفين والمتعلمين والطلاب ما اجتمع حول الخميني منهم... وإنني لا أتجنى على الحقيقة أن أقول إن الخميني أصبح في عام ١٩٧٧م الزعيم الأوحد لا للمثقفين والطلاب فقط، بل وأيضا للبيروقراطيين والتكنوقراط، فالي من يعود الفضل في تجنيد الانتلجنسيا (النخبة المثقفة) التي تردد اليوم بيت الشعر القائل:

رب يوم بكيت منه فلما * صرت في غيره بكيت عليه

الانتلجنسيا المسلمة:

لا خلاف أن الدكتور مهدى بازرجان والدكتور صحابي.. أستاذ الجيولوجيا سابقا في جامعة طهران، هما الأبوان الروحيان للانتلجنسيا الإيرانية المسلمة، وهذان العالمان المسلمان ولاسيما الدكتور مهدي بازرجان هما اللذان كان لهما الفضل الأكبر في ربط المثقفين بالخميني وفي دفع الطلاب الإيرانيين إلى الانتظام في جمعيات عرفت باسم جمعيات الطلاب المسلمين التي انتشرت في القارتين الأوروبية والأمريكية، وكانت لها صحفها ونشراتها ونواديها.

وتعهدت شبابا بلغوا أعلى مستوى من ثقافة العصر كالدكتور على شريعتي ومحمد ناخشاب وحسن نزيه ومصطفي تشمران وعزت الله صحابي والدكتور عباس شيباني وصادق قطب زاده.

ويجدر بنا ألا نغفل هنا ذكر تلك الشخصية الديناميكية التي لمعت كأنها الشهاب.. ثم اختفت في ظروف غامضة.. وأعنى بها الإمام موسى الصدر، الزعيم الروحي لطائفة الشيعة في لبنان، والذي كان السند الأول للمعارضة الإيرانية، في الخارج وسفيرها إلى الدول العربية والإسلامية والأجنبية.

وكما ذكرنا سابقاً أن الخميني كان بارعا غاية البراعة في التكتيك وأنه درج طوال حياته في المنفي على الانطلاق في حواره من النقاط المتفق عليها بداهة، والبقاء داخل

هذه النقاط، وعدم التعرض بحثا أو نقاشا أو عرضا لأية نقاط قد تبعث على الانشقاق أو الجدل، ولكن الخميني مع كل ذلك، لم يكن ليتسامح مع أي فكرة أو إنسان قد ينافس أو يشكل خطرا على زعامته الأوحدية لإيران الثورة الأمر الذي يثير أشد الشبهات لا الاتهامات، في أسباب وفاة الدكتور على شريعتي ومن ثم محمد ناخشاب فالإمام موسى الصدر وأخيرا مصطفي تشمران

شبهات وشبهات:

لم يكن خافيا على أحد أن الدكتور على شريعتي ومن ثم محمد ناخشاب فالإمام موسى الصدر وأخيرا مصطفي تشمران، كانوا يمثلون قيادة تيار يتفق وتيار المؤسسة الدينية الإيرانية التي استولى عليها الخميني يتفق معها فقط على إسقاط الشاه، ويختلف معها على كل مبدأ آخر وسواء كان ذلك في ميادين السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، وكان هذا التيار كما يعرف البعض؛ أشد ترابطا وارتباطا بالتيار الليبرالي منه بتيار المؤسسة الدينية.

فالإمام موسى الصدر مثلا كان من حيث يدري أو لا يدري، متأثرا بالدكتور على شريعتي أكثر من تأثره بصهره وابن عمه، وذلك لأن النظرية الاجتماعية التي قال بها كانت نظرية قرينة للغاية من نظرية الدكتور على شريعتي، بدليل أن حركة المحرومين التي أسسها الإمام موسى الصدر في لبنان كانت ثورية الأسلوب والجوهر معا، ناهيك بالكراهية الشديدة التي كان يكنها محمد بهشتى ومنتظري الأب للإمام موسى الصدر.

ومن الغريب أن موسى الصدر والدكتور على شريعتي ومحمد ناخشاب قد أخفاهم الموت عن مسرح الحياة عشية الثورة الإيرانية.

أضف إلى ذلك أنه قد ثبت الآن بما لا يقبل الشك أن النظام الإيراني الحالي هو الذي قام باغتيال مصطفي تشمران في الجبهة العراقية الإيرانية زاعما بأن تشمران قد سقط برصاص الجند العراقي، وقد جاء مقتل تشمران بعد وفاة الدكتور على شريعتي ومحمد ناخشاب والإمام موسى الصدر، بمثابة القضاء نهائيا على كل حركة مقاومة جدية لنظام الخميني.

فلم يكن في واقع الحال تيار أبي الحسن بني صدر ولا مسعود رجوي، هو الذي يشكل خطرا مباشرا على زعامة الخميني وعلى نفوذ زمرته بل كل تيار الدكتور على شريعتي ومحمد ناخشاب والإمام موسى الصدر ثم مصطفي تشمران الذي كانت خلاياه منتشرة في جسم القوات الإيرانية المسلحة، ولذلك فإن ظروف وفاة أولئك وملابساتها تحيط قادة النظام بشبهات شديدة.

فالدكتور على شريعتي كان بمثابة القوى الضاربة لأية معارضة تعزم على الانقضاض على الخميني حينما تؤول السلطة إليه.

ولقد كان من مصلحة الشاه لا فقط الإبقاء على الدكتور على شريعتي، بل المحافظة عليه أيضا إذ أنه كان القوة الوحيدة المؤهلة لشق صف المعارضة إلى دينية وليبرالية، الأمر الذي بدت إرهاصاته في الخلاف الشديد الذي نشب بين الدكتور على شريعتي وآية الله مرتضى مطهري تلميذ الخميني الأثير، وذلك بسبب الهجوم الذي شنه الدكتور شريعتي على جهود رجال الدين وتزمتهم.

فهل يجوز لشبهاتي إذا تساءلت عمن يكون المستفيد من وفاة أولئك في ظروف غير طبيعية، أقول هل يجوز لها أن تتحول إلى اتهام للنظام الإيراني الخميني.

الخميني والوجه الآخر، في ضوء الكتاب والسنة [زيد العيص]

كتاب «الخميني، والوجه الآخر، في ضوء الكتاب والسنة» من أروع الكتب التي سلطت الضوء على نقاط هامة في عقيدة ومسيرة الطائفة الشيعية المعاصرة، ورغم أنني طالعت كثيرا من المؤلفات التي تتناول قضية الشيعة، خاصة كتب شيخا العلامة (إحسان إلهي ظهير) رحمه الله تعالى، إلا أن كتاب أستاذنا (د. زيد العيص) يعد –وبحق– إضافة جديدة لهذا الموضوع، حيث تناول مسيرة هذا الرمز الشيعي (الخميني) الذي كثر حوله الزخم واللغط، وناقش أباطيله بمنهج علمي رصين مبتعدا في مسيرته التأليفية عن التجريح البذيء الذي تأباه أخلاقنا الإسلامية العفيفة.. لقد كانت رحلتي مع صفحات الكتاب من أمتع الرحلات المعرفية في حياتي، وقفت خلالها على درر من الأقوال والمناقشات، وأحببت أن أرصدها في هذا الجمع المختصر، لينتفع بها القاصي والداني من

طلاب المعرفة والباحثين عن الحقيقة في هذا الخضم الشيعي الرهيب، سائلا المولى هذا وجل أن يجعله في ميزان كاتبه وجامعه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المجمع عند الشيعة الإمامية أن الله تعالى نص على الأئمة بالتعيين، وهم اثنا عشر إماما، يتسلم اللاحق الإمامة من السابق، حسب تسلسل معروف، وهو أن تنتقل الإمامة من الأب الأكبر إلى الابن الأكبر، بعد علي وابنه الحسن، لأنها انتقلت منه إلى الحسين رضي الله عنهم.

ثم انتقلت من الحسين إلى ابنه الأكبر علي، وانتقلت من علي إلى ابنه الأكبر محمد، ثم إلى ابنه الأكبر جعفر، وكان من المفروض أن تنتقل إلى ابنه الأكبر إسماعيل، ولكن حصل ما لم يكن بالحسبان، فقد توفى إسماعيل قبل أبيه، فأحدث موته مشكلة، إذ كيف يموت إسماعيل، وقد أخبر الله تعالى أنه سيكون الإمام بعد أبيه جعفر.

إما أن الله تعالى لم ينص أصلا على الأئمة بهذا التسلسل، وهذا القول يهدم معتقد الإمامة برمته، وإما إن الله تعالى لم يكن يعلم أن إسماعيل سيموت قبل أبيه، وهذا ينافي علم الله المطلق، وإما أنه سبحانه كان يعلم أن إسماعيل سيموت قبل أبيه، ومع هذا أخبر سبحانه بأنه الإمام بعد أبيه، وهذا يؤدي إلى نسبة العبث إلى الله تعالى.

وكان القول بالبداء المخرج المناسب من هذا المأزق، فقالوا: إنه بدا لله تعالى أن ينقل الإمامة من إسماعيل إلى أخيه الأصغر موسى.

ووضعت مباشرة روايات في فضل البداء، واعتبر سرا من أسرار آل محمد صلى الله عليه وسلم، وغامض علومهم.

ويبرز سؤال، وهو ما قصد الخميني من رفع مقام الأئمة بخاصة الثاني عشر منهم – المهدي– على حساب مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم؟

نعرف الإجابة عن هذا السؤال إذا عرفنا مكانة الفقهاء، ودورهم في أثناء غياب الإمام المهدي، فقد سبق أن أشرنا بأن الفقهاء في معتقد الخميني نواب عن الإمام، لهم

ما له من حقوق، يقومون بمهامه جميعا، ويتمتعون بصلاحياته واختصاصاته، وذلك باسم «ولاية الفقيه».

وحيث أن الخميني هو الفقيه المجتهد، فقد استحق وصف نائب الإمام وصار له ما للإمام، وبهذا الأسلوب مهد الخميني لنفسه ليصبح صاحب الأمر بلا منازع.

وإذا كان ذلك فلا عجب أن يضفي الخميني على نفسه هالة من القداسة، أو يضيفها عليه أنصاره، كونه نائبا للإمام المهدي، وبين أيدينا حادثتان تكشفان عن جانب من مظاهر هذا التعظيم:

(الحادثة الأولى): إدخال اسم الخميني ضمن ألفاظ الآذان بعد اسم الله مباشرة، وقبل اسم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر هذا الدكتور موسى الموسوي العالم الشيعي الإمامي حين قال: «أدخل الخميني اسمه في آذان الصلوات في إيران بعد استلام الخميني الحكم فيها وفي كل جوامعها كما يلي: الله أكبر الله أكبر خميني رهبر، أي أن الخميني هو القائد، ثم أشهد أن محمدا رسول الله .. ».

ثم قال: نستثني جامع كوهر شهادة في المشهد المقدس الرضوي، حيث لم يسمح الإمام الطباطبائي القمي أن تدخل هذه البدعة إلى الجامع الذي يصلي فيه، وأبلى بلاء حسنا في مقاومة هذه البدعة، وقد كتب الله له النجاح فتغلب على زمرة الخميني في آخر المطاف.

(الحادثة الثانية): ذكرها أيضا د. الموسوي، فقال: «لقد جرت العادة في البلاد الإسلامية إذا ذكر اسم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم صلى الحاضرون عليه إجلالا وإكبارا، وفي إيران اليوم إذا ذكر اسم الخميني صلى الحاضرون ثلاث مرات، وقال بارزكان في خطاب جماهيري: ماذا تقولون لرسول الله إذا قال لكم تصلون علي مرة إذا ذكرت، وثلاث مرات إذا ذكر ابني. وكان بارزكان يقصد من ابني الخميني الذي يدعي أنه من أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكاد بارزكان يدفع حياته ثمنا لهذا الكلام».

يقول أبو زرعة: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندنا حق،

والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن، أصحاب رسول الله، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة».

ولقد تنبه العلامة الندوي لهذه النتيجة المترتبة على الطعن في الصحابة فقال: «إن صورة المسلمين الأولين التي تبرز للعيون في ضوء معتقدات الفرقة الإمامية وتصريحاتها تثير تساؤلا في نفس كل مثقف ذكي بحق، وهو أن الدعوة الإسلامية إذا لم تتمكن من التأثير العميق في الحياة أيام ازدهارها على يد داعيتها الأعظم. وإذ كان المؤمنون بهذه الدعوة لم يستطيعوا البقاء على الجادة القويمة ولم يعودوا أوفياء لدعوة نبيهم صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وذهابه إلى الرفيق الأعلى ولم يبق على الصراط المستقيم الذي ترك عليه النبي أتباعه إلا أربعة، فكيف نسلم إن هذا الدين يصلح لتزكية النفس الإنسانية وتهذيب الأخلاق، وأنه يستطيع أن ينقذ البشرية من الهمجية والشقاء ويرفعه إلى قمة الإنسانية».

ولقد وجه الخميني ومن قبله من علماء الشيعة الإمامية اتهاما إلى عمر رضي الله عنه مفاده أنه حال بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين كتابة كتابا للمسلمين، يتضمن تعيين خليفة من بعده:

ذكر أهل السنة أصل هذه القصة، فقد أخرج البخاري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال: لما حضر النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال هلم أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده، قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع، وعندكم القرآن فحسبنا كتاب الله واختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كتابا لن تضلوا بعده ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال قوموا عني.

وفي رواية أخرى لهذا الحديث أن هذه الحادثة كانت يوم الخميس.

يفيد هذا الحديث بأن النبي صلى الله عليه وسلم رغب في كتابة شيء للصحابة يهتدون به، ولكن اختلافهم عنده حول هذا الأمر جعله يعدل عنه، ويأمر بالقيام من عنده.

ولا أحد يعلم ماذا كان سيكتب الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ولكن الذي نجزم به أنه لم يكن في نيته أن يكتب شيئا يتعلق بالإمامة التي يرى الشيعة أنها أحد أركان الإيمان.

وإذا ذهبنا نستنطق هذا الحديث برواياته المتعددة فإننا نخلص إلى أنه حمل فوق ما يحتمل، ولنا في إثبات هذا عدة أمور:

١– أنه ورد في رواية أحمد ومسلم أن هذه الحادثة كانت يوم الخميس، والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم توفى يوم الاثنين فعاش بعد قضية الكتاب عدة أيام، ولم يطلب الكتاب مرة أخرى مما دل على أن الأمر الذي رغب في كتابته لم يكن محتما وإلا لعاود الطلب، بل لأمر بإحضار الكتاب ولا راد لأمره صلى الله عليه وسلم من البشر.

وحاشاه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أن يترك تبليغ أمر لازم، بسبب لغط في مجلسه واختلاف، وقد نزل عليه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة:٦٧]

٢– ورد في الحديث نفسه من روايات أخرى أنه صلى الله عليه وسلم أوصى بعد ذلك بأمور أقل شأنا من مسألة الخلافة، فقد ذكر ابن عباس أنه أوصى صلى الله عليه وسلم بإخراج المشركين من جزيرة العرب، وأوصى أن يجيزوا الوفد بنحو ما كان يجيزه، وأوصى بتجهيز جيش أسامة، وأوصى بالقرآن الكريم، وأوصى بتسوية القبور.

فهل يعقل أن يوصي الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بهذه الأمور، ويتعذر عليه أن يوصي بأمر الخلافة لعلي، لو أراد ذلك، بخاصة أنه لا يحتاج إلى أكثر من كلمات لتبليغ هذا الأمر.

٣– تفيد الروايات أن عمر لم يكن الوحيد الذي اقترح ترك الرسول وشأنه إشفاقا عليه، وحرصا على راحته، فقد مال جمع من الصحابة إلى تأجيل أمر الكتاب وكان فيهم عمر، ولربما فيهم بعض آل البيت. وإذا كان ذلك كذلك لم يجز إسناد الأمر إلى عمر نفسه، وكأنه الوحيد الذي سعى لهذا الأمر.

٤– هناك كلمتان قيمتان في هذا المقام لابن تيمية وللعقاد. يقول ابن تيمية: «من توهم أن هذا الكتاب كان بخلافة علي فهو ضال باتفاق عامة الناس من علماء السنة والشيعة، وأما أهل السنة فمتفقون على تفضيل أبي بكر وتقديمه، وأما الشيعة القائلون بأن عليا كان هو المستحق للإمامة فيقولون إنه قد نص على إمامته قبل ذلك نصا جليا ظاهرا معروفا وحينئذ فلم يكن يحتاج إلى كتاب.

وإن قيل إن الأمة جحدت النص المعلوم المشهور فلأن تكتم كتابا حضره طائفة قليلة أولى وأحرى، وأيضا فلم يكن يجوز عندهم تأخير البيان إلى مرض موته ولا يجوز له ترك الكتاب لشك من شك، فلو كان ما يكتبه في الكتاب مما يجب بيانه وكتابته لكان النبي صلى الله عليه وسلم يبينه ويكتبه ولا يلتفت إلى قول أحد فإنه أطوع الخلق له، فعلم أنه لما ترك الكتاب لم يكن الكتاب واجبا ولا كان فيه من الدين ما تجب كتابته حينئذ إذ لو وجب لفعله».

وأبطل الأستاذ العقاد هذه الدعوى بأسلوب منطقي، حيث قال: «أما القول بأن عمر هو الذي حال بين النبي عليه السلام والتوصية باختيار علي للخلافة بعده فهو قول من السخف بحيث يسيء إلى كل ذي شأن في المسألة، ولا تقتصر مساءته عمر، ومن رأى في هذه المسألة مثل رأيه، فالنبي عليه السلام لم يدع بالكتاب الذي طلبه ليوصي بخلافة علي أو خلافة غيره، لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج إلى أكثر من كلمة تقال، أو إشارة كالإشارة التي فهم فيها المسلمون منها إيثار أبي بكر بالتقديم وهي إشارته إليه أن يصلي بالناس، وقد عاش النبي بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه، ولم يكن بين علي وبين لقائه حائل، وكانت السيدة فاطمة زوج علي عنده إلى أن فاضت نفسه الشريفة، فلو شاء لدعا به وعهد إليه.

وفضلا عن هذا السكوت الذي لا إكراه فيه نرجع إلى كل سابقة من سنن النبي في تولية الولاة، فنرى أنه كان يجنب آله الولاية، ويمنع وراثة الأنبياء، وهذه السنة مع السكوت لا يدلان على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أراد خلافة علي فحيل بينه وبين الجهر بما أراد».

٥- إن القول بأن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان سيوصي لعلي ليس بأولى من القول بأنه كان سيوصي لأبي بكر، على فرض التسليم بأن الكتابة تتعلق بهذا الأمر، بل تشير بعض الأدلة إلى أنه صلى الله عليه وسلم لو كتب شيئا في أمر الخلافة لما أوصى لغير أبي بكر رضي الله عنه.

ودليلنا على هذا ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لقد هممت أو أردت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه وأعهد، أن يقول القائلون أو يتمنى المتمنون، ثم قلت يأبى الله ويدفع المؤمنون أو يدفع الله ويأبى المؤمنون»

وفي رواية عند مسلم عنها رضي الله عنها قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه: ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابا فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»

فهذان الحديثان يدلان دلالة واضحة على أن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان ينوي أن يكتب لأبي بكر بأمر الخلافة لكنه عدل وعلل هذا بأنها لن تتجاوزه، لأن الله يريد ذلك والمؤمنون كذلك، فلا حاجة للكتابة.

ولهذا لم يعاود طلب الكتاب -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لأن الأمر صائر إلى أبي بكر لا محالة، وترك اتخاذ القرار للمؤمنين ليرشدهم إلى العمل بالشورى، ويوجههم إلى كيفية اختيار الحاكم، فتحقق بهذا المسلك الذي سلكه صلى الله عليه وسلم أمران حسنان: أولهما: اختيار أبي بكر، والثاني: العمل بالشورى، وليس بعد الحق إلا الضلال.

هذه هي قصة الكتاب التي استند إليها الخميني في الحكم على الفاروق عمر رضي الله عنه بالكفر والزندقة، والتآمر على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

طلب الحاجات والشفاء من المخلوقات.. أبان الخميني عن معتقده في هذه المسألة حين طرح سؤلا بهذا الشأن وأجاب عنه.. فقد قال: هل طلب الشفاء من التربة شرك؟

أجاب بقوله: «إن الإجابة عن هذا السؤال تتوضح من خلال ما يحمل الشرك من معنى، فقد عرفتم بأن الشرك هو أن يكون مع الله أحد أو عبادة أحد أسوة بعبادة الله، أو طلب الحاجة من أحد على أساس كونه إلها أو شريكا للإله أو له استقلالية في التأثير،

ولكن ذلك لا يعد شركا ولا كفرا إذا ما تم الطلب على أساس أن الله قادر على أن يستجيب للطلب من خلال من يتفانى من أجل دينه، وخسر روحه من أجله تعالى».

ويعني بهذا تربة أرض كربلاء التي سال عليها دم الحسين رضي الله عنه، فاستحقت بهذه الخصوصية أن يطلب منها الشفاء بعد اليأس من الأدوية.. يقول الخميني: «إن الله هو الذي أعطى الأدوية ما نلمس من مفعول، ومن هنا فهل يمكن أن يكون اللجوء بعد اليأس من الأدوية إلى تربة أريقت فوقها دماء قرابين على طريق الله، وطلب الشفاء منها شركا أم هو توحيد وعبادة لله؟!! قولوا: هل هذا هو الأفضل أم التمسك بالطبيعة والتغاضي عن الأعمال الغيبية والإلهية؟!».

وقد أجاز الخميني الأكل من هذه التربة بقصد الاستشفاء، مع أن الشيعة تحرم أصلا أكل التراب، وجعل هذه الخاصية لتربة قبر الحسين خاصة، ولم يلحق بها حتى تراب قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

يعتقد الخميني أن إقامة القباب على القبور لا تكون شركا، وإنما هي عبادة لله وطاعة، إذا كانت تعبيرا عن الاحترام لأصحابها، أو من أجل الصلاة أو استراحة الزوار، كما يحث على زيارتها لطلب الأجر والثواب من أصحابها.

ويستدل على مشروعية هذه الأعمال التي دعا إليها بما يفعله المسلمون من طواف حول الكعبة المشرفة، ومن تقبيل للحجر الأسود وهي كلها حجارة لا تضر ولا تنفع، فالمسلمون الموحدون يقومون بهذه الأعمال ولم يقل أحد أنهم مشركون فكذلك الذين يبنون القباب على القبور، ويعبدون الله عندها فهم موحدون، ولا يجوز اتهامهم بالشرك.

ويسوق الخميني رواية طويلة ليستدل بها على فضل زيارة قبر الأئمة وإعمارها وتتضمن ذم المنكرين لهذه الأعمال ووصفهم بالأشرار.

يقول الخميني ما نصه: «ينقل الشيخ الطوسي عن أبي عامر –واعظ أهل الحجاز– قوله: إنني ذهبت إلى الصادق عليه السلام وسألته: ما هو أجر من يزور أمير المؤمنين ويبني قبره؟ فرد علي السؤال قائلا: يا أبا عامر قد روى أبي عن جده الحسين بن علي بأن الرسول قال لأبي –يعني عليا– إنك ستنقل إلى العراق، وتدفن في أرضه، فقال يا رسول الله: ما هو أجر من يزور قبورنا، ويقيمها ويجدد العهد بها؟ فقال: يا أبا الحسن،

إن الله جعل قبرك وقبور أولادك بقعة من بقاع الجنة، وصحنا من صحونها، وإن الله أدخل في قلوب المختارين من خلقه حبكم، وجعلهم يتحملون الأذى والذل من أجلكم ويقومون بإعادة بناء قبوركم، ويأتون لزيارتكم تقربا إلى الله، وزلفى إلى رسول الله، وهؤلاء مشمولون بشفاعتي، يا علي، إن من يبني قبوركم ويأتي إلى زيارتها يكون كمن شارك سليمان بن داود بناء القدس، ومن يزور قبوركم يصيبه ثواب سبعين حجة غير حجة الإسلام، وتمحى خطاياه، ويصبح كمن ولدته أمه توا، إنني أبشرك وبشر أنت محبيك بهذه النعمة التي لم ترها عين، ولم تسمعها أذن، ولم تطرأ على بال أحد، إلا أن هناك توافه من الناس يلومون زائري قبوركم، كما يلومون المرأة الزانية، أن هؤلاء شرار أمتي، والله لا يشملهم بشفاعتي».

أفتى الخميني بأن المسلم السني مباح المال، ويجوز أخذ ماله بأي طريقة إن أمن الشيعي على نفسه، نص على هذا الحكم عند حديثه عن فريضة «الخمس» والأصناف التي تجب فيها، فقال: «يجب الخمس فيما غنم من أهل الحرب الذين تستحل دماؤهم وأموالهم وتسبى نساؤهم وأطفالهم إذا كان الغزو بإذن الإمام عليه السلام، وأما إذا كان في حال الغيبة وعدم التمكن من الاستئذان فالأقوى وجوب الخمس فيه، وأما ما اغتنم منهم بالسرقة والغيلة وكذا الربا والدعوى الباطلة ونحوها، فالأحوط إخراج الخمس فيها من حيث كونه غنيمة لا فائدة، ولا يعتبر في وجوب الخمس في الغنيمة بلوغها عشرين دينارا على الأصح، نعم يعتبر فيها أن لا يكون غصبا من مسلم أو ذمي أو معاهد ونحوهم من محترمي المال، والأقوى إلحاق الناصب بأهل الحرب في إباحة ما اغتنم منهم وتعلق الخمس به، بل الظاهر جواز أخذ ماله أين ما وجد، وبأي نحو كان، ووجوب إخراج خمسه».

ومعلوم أن عامة علماء الشيعة الإمامية يطلقون على أهل السنة لفظ «النواصب»، فأينما ورد هذا اللفظ في كتبهم فالمراد به المسلم السني، وهذا من المسلمات المتفق عليها عندهم.

وقد أفتى الخميني أيضا بعدم جواز إعطاء الزكاة لأحد من أهل السنة، وحكم بأنها لا تجزئ إذا دفعت إليهم وأفتى بعدم جواز إعطائهم شيئا من الصدقة المندوبة كذلك،

حيث يقول: «يعتبر في المتصدق عليه في الصدقة المندوبة الفقر لا الإيمان ولا الإسلام، فتجوز على الغني وعلى الذمي، وإن كانا أجنبيين، نعم لا تجوز على الناصب ولا على الحربي وإن كانا قريبين» فقد ساوى في هذا الحكم بين أهل السنة وأهل الحرب، وفضل عليهم أهل الذمة وهم اليهود والنصارى.

وأفتى أيضا بأن ذبيحة أهل السنة لا تحل، حين قال: «وتحل ذبيحة جميع فرق الإسلام عدا الناصب وإن أظهر الإسلام».

ولقد طفح حقد الخميني على أهل السنة حتى أصاب كلابهم، حينما حكم بعدم جواز الأكل مما صاده كلب أرسله أحد من أهل السنة، إذ يقول: «فلو أرسل كلب صيد كافر بجميع أنواعه أو من كان بحكمه كالنواصب لعنهم الله لم يحل ما قتله».

ويؤكد الخميني في موضع آخر أن الراد على الفقيه راد على الله تعالى مستدلا بما رواه في مروية عمر بن حنظلة: من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا فليرضوا به حكما، فإني قد جعلته عليكم حاكما، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه، فإنما استخف بحكم الله، وعلينا رد. والراد علينا راد على الله، وهو على حد الشرك بالله، وعلق الخميني بقوله: «وفي هذه الرواية عد المجتهد حاكما، وعد الرد عليه رد على الإمام والرد على الإمام رد على الله، والرد على الله يقع في حد الشرك».

إن رائحة الفلسفة الإشراقية تفوح من معتقد الخميني ولا غرابة فإن نشأته كانت نشأة فلسفية، فقد درس الفلسفة، ودرسها سنوات طويلة، وكان للفلاسفة وأقوالهم في نفسه مكانة عالية، بخاصة الفيلسوف الإشراقي شهاب الدين السهروردي، المقتول بحلب سنة ٥٨٧هـ، فقد كان الخميني معجبا به، وكان ينعته بالحكيم الأكبر وينقل أقواله في كتبه.

تحدث هذا الفيلسوف عن فكرة الولي المتأله، وانتهى إلى القول بأن الزمان لا يجوز أن يخلو من ولي متأله، وهو مناط السلطتين الروحية والدنيوية وهو الإنسان الكامل على الحقيقة، بل هو أفضل من الأنبياء والمرسلين، لأن عنده الحجج والبيانات، وإذا كانت السياسة بيده كان الزمان نورانيا وإذا خلا الزمان منه كانت الظلمات هي الغالبة.

ولهذا وصف فلاسفة الإشراق المتأخرون من الفرس السهروردي بأنه المحي رسوم الفرس، في قواعد الظلمة والنور، وقد لخص الإمام ابن تيمية منهج السهروردي وأمثاله من الفرس المتألهين فقال: «الواحد من هؤلاء يطلب أن يصير نبيا».

وخلاصة معتقد الخميني في «ولاية الفقيه» أن للفقيه العادل السلطة المطلقة على البلاد والعباد، بأمر من الإمام باعتباره نائبا له، وهذه السلطة تخول الفقيه أن يعامل الناس كأنهم أطفال قصر، وهذا ما صرح به الخميني بقوله: «ولاية الفقيه أمر اعتباري جعله الشرع كما يعتبر الشرع واحدا منا قيما على الصغار، فالقيم على الشعب بأسره، لا تختلف مهمته عن القيم على الصغار إلا من ناحية الكمية».

أورد صاحب بحار الأنوار قصة زواج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهم، وهذا الزواج أدى إلى إشكالات كثيرة عند الشيعة، بسبب موقفهم من عمر، والحكم بكفره، ويقول المجلسي في بحاره: قيل لأبي عبد الله عليه السلام إن الناس يحتجون علينا ويقولون إن أمير المؤمنين عليه السلام زوج فلانا [المقصود بفلان عمر وكذا يكنون عنه في كتبهم] ابنته أم كلثوم، وكان متكئا فجلس وقال: أيقولون ذلك؟.. إن قوما يزعمون ذلك لا يهتدون إلى سواء السبيل، سبحان الله، ما كان يقدر أمير المؤمنين أن يحول بينه وبينها فينقذها، كذبوا ولم يكن ما قالوا، إن فلانا خطب إلى علي عليه السلام ابنته أم كلثوم، فأبى علي عليه السلام، فقال للعباس: والله لئن لم يزوجني لأنزعن منك السقاية وزمزم، فأتى العباس عليا فكلمه، فأبى عليه، فألح العباس، فلما رأى أمير المؤمنين عليه السلام مشقة الرجل على العباس، وأنه سيفعل في السقاية ما قال، أرسل أمير المؤمنين عليه السلام إلى جنية من أهل نجران يهودية، يقال لها: سحيفة بنت جريرية، فأمرها فتمثلت في مثال أم كلثوم، وحجبت الأبصار عن أم كلثوم، وبعث بها إلى الرجل، فلم تزل عنده حتى أنه استراب بها يوما، فقال: ما في الأرض أهل بيت سحر من بني هاشم، ثم أراد أن يظهر ذلك للناس، فقتل، وأخذت الميراث وانصرفت إلى نجران، وأظهر أمير المؤمنين عليه السلام أم كلثوم.

«الرقاع» تعد الرقاع من مصادر الخميني التي اعتمد عليها، وقصة هذه الرقاع تتلخص في أنه لما مات الحسن بن علي بن الرضا العسكري، الإمام الحادي عشر هند

الشيعة لم يترك ذرية، لأنه كان عقيما، وقد أكد هذا الأمر عشرات المؤرخين من السنة والشيعة، وقد نتج عن موته مشكلة كبرى، لأن الشيعة يعتقدون أنه لا يجوز أن تخلو الأرض من إمام.

وأمام هذه المعضلة زين لأحد رجالات الشيعة وهو عثمان بن سعيد العمري أن يدعي أن للحسن العسكري ولدا في الخامسة من عمره، ولكنه مختف عن الناس خوفا على نفسه، فصدق الأتباع هذه الحكاية التي رأوا فيها خروجا من مأزق.

ادعى العمري المذكور أنه سيكون الواسطة بين الإمام المختفي وبين الشيعة، حيث سيقوم بحمل أسئلتهم إليه، ويحضر لهم الجواب من الإمام، كما سيتولى قبض الأموال نيابة عنه، واستمر العمري على عمله عشرين سنة، إلى أن توفى سنة ٢٨٠هـ، فخلفه من بعده ابنه محمد على هذه المهمة إلى أن توفى سنة ٣٠٥هـ، بعدها خلفه الحسين بن روح إلى أن توفى سنة ٣٢٦هـ، وأخيرا خلفه أبو الحسن السمري المتوفي سنة ٣٢٩هـ، وهو الذي نقل للشيعة أن الإمام أخبره بوقوع الغيبة الكبرى، ولن يره بعدها أحد إلا أن يشاء الله.

لقد استمرت الغيبة الصغرى تسعا وستين سنة ٢٦٠-٣٢٩هـ وكان خلالها يتلقى الشيعة الأحكام من الإمام الغائب على رقاع، وقد جمعت الأحكام التي وردت فيها، وعدها الشيعة من مصادرهم، والخميني واحد من الذين اعتمدوا على بعض ما ورد فيها، وذلك عند حديثه عن وجوب الرجوع إلى الفقهاء في حل المشكلات الاجتماعية المعاصرة إبان غياب الإمام لأنهم نوابه، حيث قال: «الرواية الثالثة توقيع صدر عن الإمام الثاني عشر القائم المهدي (ع) وسنعرضه مع بيان كيفية الاستفادة منه في كتاب الدين وإتمام النعمة».

علي خامنئي

علي حسيني خامنئي سياسي إيراني، يشغل منصب المرشد الأعلى للثورة الإسلامية الإيرانية منذ ٤ يونيو 1989 بعد وفاة روح الله الخميني، وهو أوّل مرشد أعلى إيراني، وكان ثالث رئيس لإيران بعد أبو الحسن بني صدر ومحمد علي رجائي من ١٣ أكتوبر 1981 حتى ٣ أغسطس1989

اعتقل ست مرات؛ قبل منفاه، لمدة ثلاث سنوات في عهد محمد رضا بهلوي، وفي عام 2012 اختارته مجلة فوربس في قائمة ١٩ شخصية مؤثرة (الأكثر نفوذًا) في العالم.

ولد علي حسيني خامنئي المعروف بعلي خامنئي في ١٩ أبريل عام 1939 بمدينة مشهد الإيرانية، وهو ثاني أولاد العائلة، وكان والده جواد خامنئي أذري المولد هاجر من تبريز إلى مشهد، وكان من أبرز علماء مدينة مشهد، وجده هو حسين خامنئي من علماء أذربيجان المقيمين في النجف، ووالدته ابنة سيد هاشم نجف آبادي، أحد علماء مشهد المعروفين وكانت حافظة للقرآن الكريم عالمة بمبادئ القضاء الديني والمبادئ الأخلاقية.

قضى خامنئي فترة طفولته برعاية أبيه الذي كان شديد الحرص على تربية أبنائه وتعليمهم، وعطوفًا ومحبًا لهم في الوقت نفسه، ونشأ في أسرة تعيش حياة بسيطة لكنها أسرة دينية ومنجبة لعلماء الدين.

بدأ في سن الرابعة من عمره تعلّم القرآن الكريم في الكتّاب مع شقيقه الأكبر، ثم أتمّ دراسته الابتدائية في مدرسة دار التعليم الديني، بعد إتمامه الدراسة الابتدائية دخل مدرسة "سليمان خان" ثم مدرسة "نواب" لتلقي دروس آداب اللغة العربية، والمنطق، والفقه، والأصول، والفلسفة، وذلك على يد أشهر المدرسين والعلماء في مدينة مشهد في تلك الفترة من أمثال الشيخ "هاشم قزويني" و"جواد آقا طهراني".

وفي سنّ السادسة عشر أي بعد إتمامه مرحلة السطح، بدأ بتلقي دروس الخارج (المرحلة العليا) لدى المرجع الميلاني، واستغرقت دراسته هذه سنتين، حيث زار العتبات

في العراق، وأتاحت له تلك الرحلة فرصة حضور دروس معظم علماء النجف، إلا أن والده طلب منه العودة إلى إيران.

وفي عام 1958م قدِم إلى مدينة" قم" ودخل حوزتها العلمية لإكمال دراسته الدينية العالية في الفقه والأصول من خلال حضوره دروس كبار الأساتذة فيها من قبيل: "حسين البروجردي" و "روح الله الخميني". واستمرت دراسته حتى عام 1964 حيث قطعها للعودة للعناية بوالده بسبب مرض ألم به.

انضم إلى المعارضة الإيرانية وذلك في سنة 1962 م حينما كان خامنئي في قُم وانطلقت حركة المعارضة ضد نظام الشاه.

انخرط في التنظيمات المعارضة للنظام، وأصبح ناشطًا في تلك التنظيمات، ما اضطّر الحكومة الإيرانية إلى اعتقاله ست مرات خلال الفترة 1962–1975 بسبب نشاطاته تلك.

وفي آذار 1978 نفته الحكومة الإيرانية إلى "إيرانشهر" لثلاث سنوات غير أن سراحه أُطلق بعد فترة وعاد بعدها إلى مدينة مشهد ليستمر في نشاطاته ضد الحكومة.

أدت نشاطاته العلمية وحلقات الدرس والتنوير إلى اعتقاله من قبل جهاز السافاك في نظام الشاه في عام 1970م، وفي عام1969 م ارتسمت ملامح الحركة المسلحة في إيران، وتوصل النظام آنذاك إلى قرائن تشير إلى ارتباط شخصيات أمثال علي خامنئي بمثل هذه الحركة، ممّا دعا النظام وأجهزته الأمنية إلى التركيز على خامنئي وتضييق الخناق عليه وبالتالي اعتقاله للمرة الخامسة عام1971 م.

وقد دلت بوضوح ممارسات جهاز السافاك في السجون على مدى القلق الذي كان يشعر به بسبب انضواء الحركات المسلحة تحت مظلة التيارات الفكرية الإسلامية، ولم يكن السافاك ليفصل بين نشاطات علي خامنئي الفكرية والدعوية في مشهد وطهران وبين تلك التيارات.

وبعد إطلاق سراحه، بدأت حلقة دروسه السرية العامة في التفسير والدروس العقائدية تتسع وتكبر، وكان خامنئي يُلقي دروسه في التفسير والعقائد في مسجدي "الإمام الحسن" و"كرامت" وكذلك في مدرسة "ميرزا جعفر" في مدينة مشهد، وذلك بين

عامي 1971 و1974م، مما جعل هذه الأماكن مراكز استقطاب للجماهير خصوصاً الشباب الواعي والمثقف والجامعيين وطلاب العلوم الدينية الثوريين.

وعند منبر خامنئي تعلم طلبة العلوم الدينية درس الحقيقة والنضال، ونشروا تلك الأفكار النيرة بين أوساط الجماهير خلال زياراتهم للمدن المختلفة لأغراض الدعوة، مما مهّد الطريق لتفجير الثورة الإسلامية، ودفعت تلك النشاطات جهاز السافاك إلى شن هجوم على منزله، وذلك في عام 1974م وتم اعتقاله ومصادرة أوراقه وكتاباته، وكانت تلك هي المرة السادسة لاعتقاله، حيث بقي في الحبس الانفرادي في سجن اللجنة المشتركة للشرطة العامة حتى عام 1975م.

بعد إطلاق سراحه عاد إلى مدينة مشهد وعاود مزاولة نشاطاته العلمية والثورية، مع حرمانه من عقد حلقات تدريس المعارف.

وبعد انتصار الثورة تابع خامنئي نفس النشاط على طريق تحقيق أهداف الثورة الإسلامية، وهي في جميعها نشاطات فريدة وحيوية، تتلخص أهم إقداماته في إنشاء الحزب الجمهوري الإسلامي الإيراني بالتعاون مع نخبة من رجال الدين، ورفاق دربه من أمثال: "محمد بهشتي" و"محمد جواد".

أصدر الخميني أمراً بتشكيل شورى الثورة الإسلامية وانتخب علي خامنئي لعضوية هذه الشورى وكان أعضاء الشورى الأوائل هم الشيخ مرتضى المطهري، ومحمد حسيني بهشتي، وعبد الكريم موسوي أردبيلي، ومحمد رضا مهدوي كني، والشيخ علي أكبر هاشمي رفسنجاني. وكان من الواجبات الرئيسية لهذه الشورى مرجعية معالجة الأزمات التي تعترض نظام الجمهورية الإسلامية الفتيّة، وتقديم الاستشارات لقائد الثورة.

وقد ازدادت نشاطاته في النظام الجديد وتولى سلسلة من المناصب الرفيعة في الدولة الجديدة حيث تولى:

- معاون شؤون الثورة في وزارة الدفاع سنة 1979م.
- قيادة حرس الثورة 1979م.
- العضوية في مجلس الشورى 1979م.

- إمام جمعة طهران 1980م، بعد رحيل طالقاني. كان يعرض في خطب صلاة الجمعة أهم المواقف المبدئية والإستراتيجية لنظام الجمهورية الإسلامية وأكثرها حسماً وقاطعية، كما كان يعمل على تعميق الفكر الديني والبصيرة السياسية للمجتمع. وكان أيضا يهتم بالخطب العربية التي يوجّهها للمسلمين في العالم الإسلامي.
- ممثل الخميني في مجلس الدفاع الأعلى 1980م. وفي أغسطس آب عام 1980، حين شنّ صدام حسين هجومًا عسكريًا على إيران في محاولة للاستفادة من الفوضى الموجودة في النظام الجديد، دخل الجبهات متنقلا فيها لتعزيز معنويات المقاتلين وعمل على تنسيق القوات المسلحة خلال عمله كعضو في مجلس الدفاع الأعلى.
- رئاسة الجمهوريّة سنة 1981 م: بعد مقتل رجائي وباهنر، رشحت القوى الثورية علي خامنئي لرئاسة الجمهوريَّة، وبالفعل فقد حصل على أكثر من ١٦ مليون صوت من مجموع ١٧ مليون، وأصبح في عام 1981 م ثالث رئيس للجمهورية الإسلامية في إيران، وتسلّم رئاسة الجمهوريَّة في وقت كانت ظروف البلاد حسّاسة وخطيرة.

وبعد انتهاء فترة رئاسة الجمهورية انتخب مرة ثانية لرئاسة الجمهورية الإيرانية من 1985 م 1989 – م وقبل انتهاء هذه الفترة الأخيرة انتخب قائداً للجمهورية الإسلامية.

اقترنت فترتا رئاسته بأهمية خاصة وذلك لأنها سجلت تقلبات مرحلة حساسة وهي الحرب مع العراق، والتحديات التي كان يواجهها النظام آنذاك من الانفجارات والاغتيالات المتوالية والآثار السّيئة الّتي تركتها رئاسة بني صدر والحصار الاقتصادي، وكثير من الأحداث الخطيرة الأخرى مما جعلها فترة حساسة في تاريخ الثورة الإسلامية حاضراً ومستقبلاً.

- رئاسة المجلس الأعلى للثورة الثقافية1981 م.
- رئاسة مجمع تشخيص مصلحة النظام1987 م.

- رئاسة شورى إعادة النظر في الدستور1989 م.
- قيادة الثورة الإسلامية في إيران عقب رحيل الخميني عام 1989م.

وبتاريخ 1981/06/27 م حين كان يلقي خطاباً في مسجد أبي ذر في جنوب طهران تعرّض لمحاولة اغتيال، بتفجير قنبلة وضعت في جهاز تسجيل على منبره، ولكن لم تنفجر القنبلة كلها، بل جزء منها. فأصيب بشدة ورقد في المستشفى.

وفقا للأخبار التي نشرت في وقتها بإصابته في أعلى الكتف وفي ساقه الأيمن وانكسر عظم الترقوة وتقطعت العروق والأعصاب في يده اليمني فأُصيبت يده بالشلل التّام.

وعلى إثر محاولة الاغتيال، أبرق إليه الخميني كلمة جاء فيها: «وبعد أن قام أعداء الثورة بالاعتداء عليكم، وأنتم من ذريّة الرسول الأكرم ومن آل بيت الحسين بن عليّ عليهما السلام، ولم يكن ذنبكم سوى خدمة الإسلام والوطن الإسلاميّ، ولم ينتقموا منك إلّا لكونك جنديّ باسل في الحرب...إنني أهنئك يا خامنئي العزيز على خدمتك لهذا الشعب المظلوم ومشاركتك في جبهات الحرب بالرغم من زيك العلمائي، وأسال الله أن يمنحك السلامة لتمضي في خدمة الإسلام والمسلمين».

علي خامنئي مع مليشيات البيشمركة الأكراد بمدينة ماريفان الايرانية، (محافظة كردستان)، خلال الحرب الإيرانية العراقية

قيادته للثورة الإسلامية

بعد رحيل الخميني في ٣ يونيو/ حزيران 1989 م عُقد اجتماع كبير في صباح اليوم التالي ضم أبرز قادة البلاد ومسئوليها المدنيين والعسكريين وقرأ رئيس الجمهورية آنذاك، علي خامنئي، الوصية السياسية – الدينية للخميني.

وفي عصر نفس اليوم عقد مجلس قيادة النظام (مجلس خبراء القيادة) الذي يضم عشرات الفقهاء والمجتهدين من كافة المدن الإيرانية، اجتماعه لينتخب القائد الجديد – طبقاً للمادة 107 من الدستور الإيراني – ففي البداية كان هناك نقاشاً حول أن تكون القيادة فردية أو على شكل شورى تتكون من ثلاث أشخاص: الرئيس، ورئيس السلطة

القضائية، ورئيس مجلس الخبراء، وهم على الترتيب: علي خامنئي، وموسوي أردبيلي، وعلي مشكيني.

ولكن لم تصوّت أكثرية أعضاء المجلس للقيادة الجماعية، وصُوِّتَ للقيادة الفردية، فتحوّل النقاش بعد ذلك إلى إيجاد المصداق الحقيقي للقيادة الفردية.

فسرد هنا رفسنجاني – رئيس مجلس الخبراء حينها – عدة روايات أبدا فيها الخميني على جدارة خامنئي للقيادة.

لكن كان خامنئي آنذاك غير مؤهل لشروط القيادة. لقد كان شرط المرجعية من شروط ولاية الفقيه آنذاك، في حين لم يكن خامنئي مرجعا دينيا في ذلك الوقت.

لذلك صوّت أعضاء المجلس لتعيينه كمرشد أعلى مؤقت في إيران. وبعد حوالي الشهرين جرى استفتاء مراجعة الدستور في إيران وقد وافق عليها 97.6٪ من الناخبين. فبموجبه عُدِّلَ الدستور عدة تعديلات وأُزِيلَ هذا الشرط.

فجدد مجلس خبراء القيادة في جلسة ثانية في ٦ أغسطس 1989 انتخاب خامنئي في منصب ولي الفقيه بعد حصوله على موافقة ٦٠ من ٦٤ حضروا الاجتماع 1989 .

كان الإمام الخميني قد صرح في رسالته التي بعثها للشيخ المشكيني رئيس مجلس الخبراء آنذاك إلى «أني كنت معتقداً ومصرّاً منذ البداية بأن شرط المرجعية ليس ضرورياً، بل يكفي المجتهد العادل الذي ينال تأييد خبراء البلاد المحترمين».

فقد بُويع خامنئي من الأمة من خلال انتخاب أعضاء مجلس الخبراء الذي تعيّنه الأمة مباشرة، ورضت بقراراته.

ثم توالت عليه رسائل البيعة وبياناتها، بصفته ولياً لأمر المسلمين. فبايعه المسئولين الكبار في النظام والمؤسسات المختلفة، وأفراد عائلة الخميني، ومراجع التقليد وعلماء الدين بما في ذلك الشيخ محمد علي الآراكي، ومحمد رضا الموسوي الكلبيكاني، والشيخ هاشم الآملي وشهاب الدين المرعشي النجفي.

كما بايعته الجامعة الكبرى في قم وإدارة الحوزة أساتذتها، وكذلك الحوزات والتجمعات العلمية في مشهد، وأصفهان وطهران وغيرها.

بعث أحمد الخميني بعد ساعات من انتخابه للقيادة برقية تبريك له يقول فيها: «لقد ذكر الإمام الخميني اسمك مراراً بوصفك مجتهداً صالحاً لقيادة الحكومة. إنّا وكل أفراد العائلة أتقدّم بالشكر الجزيل للسادة العلماء أعضاء مجلس الخبراء المحترمين لانتخابهم المسدد له، وإنني اعتبر أوامر الولي الفقيه واجبة التنفيذ عليّ»

تحريم استخدام السلاح النووي

كشفت وزارة الخارجية الإيرانية في اجتماع الوكالة الدولية للطاقة الذرية في فيينا عن أن علي خامنئي أصدر فتوى بتحريم إنتاج، وتخزين، واستخدام الأسلحة النووية.

واعتبرت هذه الفتوى ضمانة للغرب بأنّ إيران لا تسعى إلى امتلاك السلاح النووي كما قال الرئيس الأميركي باراك أوباما: «أنّ فتوى المرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران علي خامنئي حول تحريم السلاح النووي تشكل آلية جيدة للالتزام بالاتفاق.»

وأكد قائد الثورة الإسلامية أن البرنامج النووي الإيراني هو لأغراض سلمية، وأن مبادئ الجمهورية الإسلامية تمنعها من اللجوء إلى استخدام الأسلحة الذرية.

تحريم الإساءة لزوجات النبي وأصحابه

هي فتوى أصدرها آية الله خامنئي في عام ٧ أكتوبر 2010 حرّم بموجبها الإساءة لزوج النبي محمد أم المؤمنين السيدة عائشة أو النيل من الرموز الإسلامية لأهل السنة والجماعة.

جاء ذلك في إجابة على استفتاء وجهه جمع من علماء ومثقفي مدينة الإحساء السعودية في أعقاب الإساءات التي وجّهها رجل الدين الكويتي المقيم في لندن ياسر الحبيب للسيدة عائشة آنذاك.

لاقت فتوى آية الله خامنئي، بتحريم الإساءة إلى رموز أهل السنة والسيدة عائشة زوجة الرسول اهتماماً في الصحف ووسائل الإعلام المحلية والعالمية كما لاقت ارتياحاً بالغاً لدى عموم المسلمين.

أكد خامنئي على وحدة العالم الإسلامي والتآزر ومساعدة بعضنا البعض وتجنب الاختلافات الدينية والفكرية.

فيقول: «إذا حدثت هذه الوحدة، فلن يكون الوضع الذي يعيشه المسلمون اليوم على هذا النحو وسيكتسب المسلمون الكرامة. الشيعة البريطانيون والسنة الأمريكيون سيف ذو حدين. محاولتهم قتل المسلمين».

وتعد هذه الفتوى الأحدث والأرفع مستوى ضمن ردود الفعل الشيعية واسعة النطاق استنكارا للإساءة التي وجّهها الحبيب للسيدة عائشة حيث أدانت العشرات من الرموز الدينية الشيعية البارزة في دول الخليج العربي وإيران بشدة في تصريحات وبيانات التعرض بالإساءة لأم المؤمنين السيدة عائشة أو أي من أزواج النبي محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وقد وصف خامنئي اتباع ياسر الحبيب بـ «التشيع البريطاني» وبأن قوي الاستكبار تحيك المؤامرات ضد العالم الإسلامي عبر ياسر الحبيب فيقول: «حينما تشاهدون إذاعات وتلفزيونات تنطلق في العالم الإسلاميّ، ويكون عملها باسم "الشيعة" وتحت عنوان "التشيّع"، وتشتم وتُهين كبار الشخصيّات التي يعتقد بها بقيّة المذاهب الإسلاميّة، فاعلموا أنّ تمويلها هو من ميزانيّة الخزانة البريطانيّة.

هذا «تشيّع بريطانيّ!»، وأضاف: «يتخيّل بعضٌ أنّ إثبات التشيّع إنّما يتمّ بقيام الإنسان بشتم وإهانة كبار الشخصيات التي يؤمن بها أهل السنّة والآخرون. كلّا، إنّ هذا خلاف سيرة الأئمة عليهم السلام، لقد أكّد مراجع الدين الشّيعة –الإمام العظيم وآخرون، وخاصّة بعد انتصار الثورة الإسلاميّة– كثيراً على الوحدة الإسلاميّة، وأخوّة المسلمين فيما بينهم، في ذلك الوقت سعى بعضهم –الملكيّون أكثر من الملك– إلى إيقاد نار الفتنة، وإيجاد النزاعات وبثّ الاختلافات، لا يوجد فرق بين ذلك التسنّن الذي تدعمه أمريكا وذلك التشيع الذي يُصدَّرُ إلى العالم من مركز لندن، فكلاهما شقيقا الشيطان، وكلاهما عميلا أمريكا والغرب والاستكبار.

يتحمل خامنئي "المسؤولية المباشرة" عن السياسة الخارجية و"لا تُتَّخَذ القرارات دون رأيه المباشر وموافقته".

ويصف السياسة الخارجية للجمهورية الإسلامية على النحو التالي: "إننا نعتبر الدفاع عن المسلمين والدفاع عن الأمة المظلومة من سياساتنا الأساسية ولا نحيد عنها.

نحن مؤيدون للإسلام، ومسلمون، وصحوة إسلامية، ونعارض تغذية القوى الاستغلالية من موارد وغنائم المظلومين، نحن ضد الاستعمار والاستغلال، وهذه المعارضة ليست بالكلام أو الأقوال. هذا هو إيماننا وهذا هو شكل سياستنا الخارجية.

ويقال إنه يوجه السياسة الخارجية في اتجاه يتجنب المواجهة أو التسوية مع الغرب.

وأدان خامنئي تدخل السعودية في اليمن وقارن السعودية بإسرائيل.

وفقًا لخامنئي، فإن سياسة إيران الإقليمية هي عكس السياسة الأمريكية، وإيران تدعم المقاومة في المنطقة والذين يقاتلون ضد إسرائيل.

أدان خامنئي اضطهاد مسلمي الروهينجا في ميانمار ووصف زعيمة ميانمار الفعلية والحائزة على جائزة نوبل للسلام أون سان سو تشي بأنها "امرأة لا تعرف الرحمة".

ثورات الربيع العربي

وصف خامنئي ثورة تونس ومصر في خطبة الجمعة في جامعة طهران يوم ٤ فبراير 2011 بأنها «بوادر صحوة إسلامية في العالم مستوحاة من الثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979»، ودعي الشعب المصري لإقامة النظام الإسلامي في مصر فقال: «لا تتراجعوا حتى إحلال نظام شعبي على أساس الدين، رجال الدين يجب أن يلعبوا دورا نموذجيا عندما يكون الشعب خارج المساجد ويردد شعارات عليهم تأييدها. إن شاء الله ينضم جزء من الجيش إلى الشعب».

«العدو الرئيسي للجيش المصري هو النظام الصهيوني وليس الشعب المصري»

واتهم خامنئي الرئيس المصري حسني مبارك بأنه «خادم للصهاينة والولايات المتحدة»، مؤكداً أن مصر «كانت لمدة ثلاثين عاما بين يدي عدو للحرية خادم للصهاينة»

وأضاف «تحول مبارك خادما للأميركيين لم يساعد مصر على تحقيق أي تقدم، عليه أن يعرف أن اليوم الذي يهرب فيه وان شاء الله سيحدث ذلك قريبا، سيكون الأميركيون أول من يدير ظهره له وأول من يغلق الباب في وجهه كما فعلوا مع الرئيس التونسي السابق زين العابدين بن علي وشاه إيران السابق محمد رضا»

وأضاف «لذلك فإن الإسرائيليين والصهاينة الأعداء هم الأكثر قلقا مما يجري لأنهم يعرفون أنه إن لم تعد مصر حليفتهم فسيكون ذلك حدثا كبيرا في المنطقة»«

قال خامنئي في خطبة الجمعة التي ألقاها باللغة العربية في ٣ فبراير 2012 بمناسبة حلول الذكري الثالثة والثلاثون للثورة الإسلامية: «الثورة الإسلامية التي نجحت في إسقاط أكبر ديكتاتور علماني في إيران قد عمت الدول العربية، وأن انتخابات مصر وتونس وتطلعات الشعوب في البحرين واليمن تدل على أنهم يريدون أن يكونوا مسلمين معاصرين دون إفراط وتفريط».

الهولوكوست

في أبريل 2013، شكك خامنئي في الهولوكوست في خطاب بمناسبة عيد رأس السنة الفارسية.

وقال: «الهولوكوست حدث لا تتضح حقيقته وإذا حدث فلا يعرف كيف حدث».

وقال أيضا: «لا أحد في الدول الأوروبية يجرؤ على الحديث عن المحرقة، في الغرب الحديث عن الهولوكوست وإثارة الشكوك حولها هو خطيئة كبرى».

المرأة

كان خامنئي قد عبر عن آرائه حول المرأة ودورها في المجتمع في خطاباته في مناسبات مختلفة. فيما يتعلق بالنشاط الاجتماعي للمرأة، يعتقد أنه إذا لم تكن المرأة حاضرة في الحركة الاجتماعية للأمة، فلن تصل تلك الحركة إلى أي مكان ولن تنجح.

حسب اعتقاده القائم على الإسلام، فإن المشاركة في الأنشطة العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية لا ينبغي أن تُفرض على المرأة. على هذا النحو، يجب ألا تحاول أن تسد طريقه. إذا أرادت المرأة الدخول في الأنشطة الاجتماعية والسياسية، فلا عائق؛ في يولي1997 ، وصف فكرة المشاركة المتساوية للمرأة في المجتمع بأنها فكرة سلبية وبدائية وطفولية.

حسب قوله، فإن وجود المرأة في المناصب التنفيذية في البلاد ليس مسألة فخر وهو يعتبر شكلاً من أشكال السلبية تجاه الخطاب الغربي.

وبحسبه فإن أهم مؤسسة اجتماعية هي الأسرة، وللمرأة دور أهم في الأسرة.

اعتبر «التدبير المنزلي» و «إنجاب الأطفال» كفاح المرأة وفنًا.

في يونيو 1998، أمر السيد علي خامنئي «بحملة على السلوك الجامح للنساء» وبحلول منتصف أغسطس من ذلك العام، أُعْتُقِلَ 1800 رجل وامرأة من قبل الشرطة لما أسماه «ملابس غير لائقة وسلوك بذيء».

وشهدت هذه الفترة أيضًا قمع الصحفيات والصحف والمجلات النسائية.

شخصية أدبية

اهتم خامنئي بمجالات الشعر والأدب، وهو قرأ كثيرا من الروايات والقصص، والعديد من الروايات والقصص المعروفة في العالم.

له ميل كثير لمطالعة الروايات والآثار الأدبية لكبار الكتاب في العالم والتاريخ الثقافات والشعوب المختلفة الشرقية والغربية، بل إن له باعه في نقد الأعمال الأدبية والشعرية، وعلاقاته مع الشعراء والكتاب والمثقفين في زمانه كثير.

حينما كان في مشهد، شارك في بعض الجمعيات الأدبية التي تشكلت آنذاك بمشاركة شعراء كبار، وكان ينقد الشعر في هذه الجمعيات الأدبية.

هو قد نظم الشعر أيضا واختار لقب الشعري «أمين» لنفسه في السنوات الأخيرة.

هو أيضا اهتم بقراءة الكتب خاصة مطالعة الكتب التاريخية في الموضوعات والبحوث التاريخ المعاصر.

اهتمام باللّغة العربيّة

يعتقد خامنئي «بما أنَّ لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلاميَّة هي العربيَّة، وأنّ الأدب الفارسيّ ممتزج معها بشكل كامل، لذا يجب تدريس هذه اللّغة بعد المرحلة الابتدائيّة حتّى نهاية المرحلة الثانويّة في جميع الصفوف والحقول الدراسيّة».

يقول الدكتور "محمد علي آذرشب"، (المستشار الثقافي للخامنئي) حول اهتمام خامنئيّ بالعربيّة والأدب العربيّ: "آية الله خامنئيّ يعشق الأدب واللغة العربيّة، وإنّه وحتّى اليوم مع زحمة الأعمال الّتي تحيط به، يعقد جلسات بحث أسبوعية في الأدب والشعر

العربيّ يتعرّض خلالها القليل من الشعر القديم ولكثير من الشعر الحديث، وخلالها سمع مرارًا يقول طالما تمنّيت أنّني ولدت في بلد عربيّ يمكّنني من الكلام باللّغة العربيّة.

لقد طالع موسوعات في الأدب العربيّ بأجمعها ووضع عليها هوامش وتعليقات، من ذلك كتاب الأغاني، فقد طالعه بأجمعه ووضع على حواشيه تعليقات وملاحظات هامّة؛ كما وضع فهرسًا كاملًا قبل أن تبادر دار الكتب إلى طباعة فهرس الأغاني.

وحاول منذ سنٍّ مبكر أن يقرأ "لجبران خليل جبران" ويترجم له ويقرأ ديوان الجواهري ويعلّق عليه، وحتّى في السجن لم يُفوِّت فرصة الارتباط بمن له ذوق بالأدب العربيّ، من ذلك أنّه التقى في سجن القلعة سنة1963 م بمجموعة من السجناء العرب الخوزستانيّين، فآنس بهم وآنسوا به وكان منهم "السيّد باقر النزاري".

ويذكر خامنئي، إنّه كان دائمًا يحاول أن يتكلّم مع هؤلاء العرب ويتحادث معهم، وكان يعلّم بعضهم قواعد اللّغة العربيّة ويتعلّم منهم المحادثة العربيّة، حتّى أنَّه حينما خرج من السجن عملوا له «هوسة»: «يا سيّد جدّك ويّانه».

حول الحرية

يرى خامنئي أن القضية التي تطرح بشأن الحرية هي انتهاج المبدأ الاستقلالي. والسير على منهج التقليد، قد يعكس نتائج مريرة. والحرية الاجتماعية التي هي عبارة عن حرّية التفكير والقول والاختيار، وما إلى ذلك، حق إنساني ورد تكريمها في الكتاب والسُنّة، والحرية مقولة إسلامية.

ولكن يرى هناك مجموعات تتظافر جهودهما ضد النظر إلى الحرية باعتبارها مقولة إسلامية كاستشهادهم على الدوام في كلماتهم عن الحرّية بأقوال الفلاسفة الغربيين الذين ظهروا خلال القرون الثلاثة الأخيرة والتي ما إن تسمع بمفهوم الحرية حتى يعتريها الرعب وتأخذ بإطلاق صيحات الخوف على ذهاب الدين.

لكن يرى أنهم واهمون في مواقفهم لأن الدين أكبر مناد للحرية الصحيحة والمعقولة، ونماء الأفكار وازدهار الطاقات قد يكون من فضائل وجود الحرية.

حول حزب الله اللبناني

برأيه حزب الله اللبناني رغم التهديدات والدعايات المغرضة العديدة يجسد كيانه الرشيد في العالم الإسلامي ويعتبر إدانته في قصاصة أوراق من قبل حكومة فاسدة وعميلة وخاوية، لا أهمية له، وسبب رأيه يوضح بالإشارة إلى الهزائم التي تكبدها الكيان الصهيوني على يد حزب الله اللبناني في الحروب الأخيرة من جهة، وهزائم جيوش قوية لثلاث دول عربية أمام الكيان الصهيوني من جهة أخرى، فبنظرته أن حزب الله وشبابه المؤمن يتألقون كالشمس، وهم فخر للعالم الإسلامي.

حول القضية الفلسطينية

وفي كلمته في المؤتمر الدولي السادس لدعم الانتفاضة الفلسطينية في طهران شدّد خامنئي إلي أولوية القضية الفلسطينية للعالم الإسلامي ولطلاب الحرية في العالم مؤكدا: «يجب ألا تهمَل أبداً أهمية الدعم السياسي لشعب فلسطين وهذا ما يتمتع اليوم بأهمية خاصة في العالم. إن الشعوب المسلمة والمتحررة –على اختلاف مسالكهم واتجاهاتهم– يستطيعون أن يجتمعوا حول هدف واحد هو فلسطين وضرورة السعي لتحريرها.».

وأشار في كلمته إلي وجوب العمل لخدمة القضية الفلسطينية وأهدافها ودعم المقاومة من قبل البلدان الإسلامية والعربية وكل التيارات الإسلامية والوطنية قائلا:

«إن موقفنا تجاه المقاومة موقف مبدئي ولا علاقة له بجماعة معينة. أي جماعة تصمد في هذا الدرب فنحن نواكبها، وأي جماعة تخرج عن هذا المسار ستبتعد عنا.

وإن عمق علاقتنا بجماعات المقاومة الإسلامية لا يرتبط إلّا بدرجة التزامهم بمبدأ المقاومة».

الصراع بين الجبهة الحسينية واليزيدية

غرد حساب الخامنئي الرسمي بتاريخ ٢٥ أغسطس 2024 عبر تطبيق تويتر قائلًا: «المعركة بين الجبهة الحسينية والجبهة اليزيدية هي معركة مستمرة، وقد حدّد الإمام الحسين (ع) ماهيّة هذه المعركة وهدفها

القضيّة قضيّة الظلم والجور؛ الجبهة الحسينية تقاوم اليوم الجبهة اليزيديّة، أي جبهة الظلم والجور»

وجاءت التغريدة مقتطفة من خطاب للخامنئي بذكرى أربعينية الإمام الحسين، صباح يوم الأحد.

وأردف الخامنئي في تغريدة أخرى قائلًا: «تأخذ المعركة بين الجبهة الحسينية والجبهة اليزيدية أشكالًا مختلفة؛ ففي عصر السيوف والرماح لها شكلها الخاص، وفي عصر الذرّة والذكاء الاصطناعي لها شكلٌ آخر. وفي عصر الدعاية والإعلام عبرَ الشِّعر والبيان والكلام لها شكلها أيضًا، وفي عصر الإنترنت والكوانتوم وما إلى ذلك، لها شكلٌ مختلف».

أثارت التغريدة جدلًا واسعًا في مواقع التواصل الاجتماعي، ولاقت العديد من التفسيرات والتأويلات، فالبعض عبر تطبيق إكس علق وفسر «الجبهة الحسينية» بالشيعة، و«الجبهة اليزيدية» بأهل السنة والجماعة، في حين فسر البعض الآخر بأن الجبهة الحسينية هي من يقاتل في غزّة من حماس وحزب الله ومن يتبعها في محور المقاومة الذي تقوده إيران، ضد الجبهة اليزيدية وهي أمريكا وإسرائيل.

وفي عام 2022 شبه الخامنئي رئيس وزراء الاحتلال الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بـ «شمر بن ذي الجوشن» قاتل الإمام الحسين بن علي، فقال: «شمر اليوم هو رئيس وزراء "إسرائيل". نحن نلعن الشّمر لكي نجتثّ جذور العمل الشّمري حول العالم، ونلعن يزيد وعُبيد الله لكي نواجه الحكم اليزيديّ وسيادة الظّلم على المؤمنين حول العالم».

الاحتجاجات خلال زعامته

قامت احتجاجات متعددة في عهد خامنئي، منها احتجاجات قزوين عام 1994 ، التي قُتل فيها –وفقًا لقناة العربية– نحو ٤٠ شخصًا وأصيب أكثر من400 ، واحتجاجات الطلاب الإيرانيين في1999 ، واحتجاجات الانتخابات الرئاسية الإيرانية عام2009 ، التي هتف فيها بعض من المتظاهرين «الموت للديكتاتور»، ومزقوا صور خامنئي، والاحتجاجات الإيرانية في 2011 و2012، والاحتجاجات الإيرانية في 2017 و 2018 في 2016 طلب خامنئي، الذي حدد الإرشادات الانتخابية «بما يتماشى مع المادة 110 من دستور إيران»، رفع مقدار الشفافية في الانتخابات، بواسطة التقنيات الحديثة.

خلال مذبحة ماهشهر، توسعت الاحتجاجات ضد «فساد الحكومة، والمؤسسات الفاشلة، وانعدام الحريات، والحكم القمعي للمرشد الأعلى الإيراني، آية الله علي خامنئي». سُجن صحفيون ومُدوّنون وغيرهم في إيران بتهمة إهانة خامنئي، التي كثيرًا ما اقترنت بتهمة ازدراء الدين.

خلال الإضرابات والاحتجاجات العامة الإيرانية في 2018 و2019، طالب خامنئي بمعاقبة من «يُخلّون بالأمن الاقتصادي» للبلاد.

وفقًا لوكالة رويترز، فإن التصريحات «تهدف بوضوح إلى إيصال رسالة إلى الإيرانيين الذين قد يُخططون لمزيد من المظاهرات».

وخلال الاحتجاجات الإيرانية عامي 2019 و2020، التقى خامنئي بكثير من المسؤولين والوزراء، وقال إنه «سيُحمّل المسئولين المجتمعين مسؤولية نتائج الاحتجاجات إذا لم يوقفوها فورًا».

وفقًا لأحد المسئولين، أوضح خامنئي «أن المظاهرات تتطلب ردًا قويًا»، و«يجب سحق المخربين».

وشملت بعض الأحكام الجلد والسجن، وتوفي البعض في السجن.

خلال احتجاجات رحلة الخطوط الجوية الدولية الأوكرانية 752، طالب آلاف من المتظاهرين خامنئي بالتنحي.

التعامل مع الصحافة

أُدرج خامنئي في قائمة «العشرة الأكثر عداء للصحافة وحرية التعبير» عام2000 ، التي تصدرها لجنة حماية الصحفيين.

اعتُقل الصحفيون المعارضون أحمد زيد آبادي ومحسن سازكارا ومحمد نوري زاد وأكبر غانجي لأنهم نشروا مقالات انتقادية تحتوي على اتهامات غير مثبتة ضد سياسات خامنئي وبعض المنظمات.

ووفقًا لقانون الصحافة الإيراني، فإن «نشر الشائعات والأكاذيب وتشويه أقوال الآخرين» غير مسموح به.

ولا يجوز، بموجب القانون «التشهير بالمسئولين والمؤسسات والمنظمات والأفراد في الدولة أو إهانة الأشخاص الاعتباريين أو الحقيقيين الذين يحترمهم القانون، حتى بواسطة الصور أو الرسوم الكاريكاتورية».

عام2000 ، أرسل علي خامنئي رسالة إلى البرلمان الإيراني يمنع فيها المجلس التشريعي من مناقشة تعديل قانون الصحافة الإيراني الذي سيسمح بمزيد من حرية الصحافة –استُخدم هذا القانون «لإغلاق أكثر من ٢٠ صحيفة مستقلة» بين عامي 1997 و –2000

وكتب: «لقد منع قانون الصحافة الحالي هذا الوباء الكبير. مشروع القانون غير شرعي ولا يخدم مصالح النظام والثورة».

وصف الإصلاحيون وجماعات المعارضة تدخل خامنئي بأنه تعدٍّ على السلطة التشريعية، ولكن رئيس البرلمان مهدي كروبي ذكّر النواب بأن «الدستور يتضمن عناصر تتيح الحكم المطلق للمرشد الأعلى للجمهورية»

كيهان وجمهوري إسلامي صحيفتان تديرهما إدارة خامنئي. ومن بين أفعاله المثيرة للجدل استبعاد آلاف المرشحين البرلمانيين للانتخابات التشريعية الإيرانية عام 2004 من قبل مجلس صيانة الدستور الذي عيّنه.

في الأعوام 2012 و 2013و2014، اختارت مجلة فوربس خامنئي في المرتبة ٢١ و٢٣ و١٩ على التوالي في قائمة أقوى الشخصيات في العالم.

إستراتيجية خامنئي الجديدة في إيران

دخلت إيران حقبة جديدة تصاعدت فيها القومية بعد حرب مع إسرائيل استمرت ١٢ يوما. ويمكن القول إن هذه الحقبة أصبحت أكثر وضوحا عندما طلب آية الله خامنئي، في أول ظهور علني له بعد انتهاء الحرب الإيرانية الإسرائيلية خلال مراسم عاشوراء في ٥ يوليو/تموز2025 ، من الرادود (المنشد) محمود كريمي قراءة نشيد "يا إيران».

كانت إسرائيل قد وضعت خطة من مرحلتين لإسقاط النظام في إيران. تضمنت المرحلة الأولى من الخطة، التي تم تنفيذها بشكل متزامن، تدمير الأهداف العسكرية الإيرانية عبر هجمات العملاء في الداخل، وغارات الطائرات الحربية الإسرائيلية.

أما المرحلة الثانية، فكانت تهدف إلى إظهار ضعف إدارة طهران لتحريض المعارضين داخل إيران، وخلق فوضى داخلية تضع الشعب في مواجهة الجيش، مما يضمن أن تؤدي هذه العملية إلى تغيير النظام في إيران.

كشفت الحرب أن الدراسات التي أجرتها إسرائيل حول المجتمع الإيراني كانت ناقصة وخاطئة. فقد بنت إسرائيل إستراتيجيتها بالكامل على تقييم مفاده أن المجتمع الإيراني سيرى في الهجمات العسكرية فرصة وسيتحرك ضد النظام.

ومع ذلك، فضل الشعب الإيراني وضع جميع انتقاداته ومواقفه المعارضة للنظام جانبا، واختار الوقوف بجانب النظام والتحرك بموقف قومي، مفضلا ذلك على أن يصبح مصيره مثل سوريا، والعراق، واليمن، ولبنان.

أدركت القيادة الإيرانية خلال فترة الحرب هذه أن قوتها الحقيقية في مواجهة الهجمات الإسرائيلية والأميركية تكمن في الوحدة المجتمعية.

وفي هذا الإطار، قررت إبراز الخطاب القومي الذي كانت قد همشته بعد ثورة 1979 بحجة أنه يذكر بعهد الشاه (البهلوي)، بل وقررت إبراز الرموز العائدة لإيران القديمة.

مع طلب آية الله خامنئي من الرادود محمود كريمي قراءة نشيد "يا إيران"، أصبح من الواضح أن التوجه نحو خط قومي هو الخيار المفضل

تراجعت خطابات "الصحوة الإسلامية" و"الجامعة الإسلامية–Pan) " (Islamist التي شكلت السياسة الإيرانية منذ عام 1979 إلى الخلفية، وبدأ يحل محلها خطاب "القومية الإيرانية"، وتماثيل أبطال الحقبة الإيرانية القديمة.

إن العملية التي برز فيها خطاب القومية الإيرانية، والتي بدأت بأمر آية الله خامنئي بقراءة نشيد "يا إيران"، تمتلك القوة للتأثير ليس فقط على السياسة الداخلية لإيران، بل على سياستها الخارجية أيضا.

القومية في إيران

توجد في إيران مقاربات وتيارات قومية مختلفة تتأثر بالأحداث التاريخية، والاجتماعية والمعتقدات الدينية والمذهبية.

ويمكن جمع القومية في إيران تحت ثلاثة عناوين رئيسية:

١/ القومية الفارسية

يتخذ هذا التيار القومي من حقبة ما قبل الإسلام في إيران أساسا له، ويدافع عن القومية الإيرانية من خلال قيم العصر الإيراني القديم السابق للإسلام.

يذكر ضياء إبراهيمي (Zia-Ebrahimi)، الأستاذ في "كينغز كوليدج لندن"، في كتابه "ولادة القومية الإيرانية: العرق وسياسة التمييز"، أن القومية السائدة في إيران هي "قومية انسلاخية (Dislocative Nationalism) "، ويعدد خصائص هذه القومية كالتالي:

الأمة الإيرانية تمتلك تاريخا متواصلا لا يقل عن 2500 عام.

فترة ما قبل الإسلام هي العصر الذهبي لإيران.

العرب والإسلام هم المسئولون عن تخلف إيران.

الإيرانيون ينتمون للعرق الآري وهم أقرباء للأوروبيين.

تحمل القومية الفارسية في جوهرها عداء للأتراك والعرب. وتعتبر أن أسلمة إيران هي تأثير العرب على الثقافة الإيرانية. وتُحدد التفاعل مع الدول الغربية كسياسة أصح وأنسب للتاريخ الإيراني، بدلا من تطوير علاقات جيدة مع دول الجوار.

وتدافع عن ضرورة عودة إيران إلى قوتها القديمة في المنطقة الممتدة من شبه القارة الهندية إلى البحر المتوسط.

٢/ القومية التي لا تعطي الأولوية للهوية العرقية

دافع الكادر الذي قام بالثورة الإسلامية في إيران، وعلى رأسه آية الله الخميني، بعد الثورة، عن فكرة أنه لا فضل لأمة أو قوم في الإسلام.

وابتعدوا عن شخصيات الأساطير الإيرانية القديمة؛ لأنها تذكر بعهد الشاه، وأبرزوا سياسة وخطاب "الصحوة الإسلامية" و"الجامعة الإسلامية".

ورغم أن هذا النهج وصل إلى نقاط راديكالية في بدايات الثورة، فإنه لانَ مع مرور الوقت.

تمت محاولة بناء الهوية الإيرانية عبر خطاب سياسي يقف فيه "المستضعفون" ضد "المستكبرين".

وتُعتبر دعوة ممثلي المنظمات المسلحة من مختلف أنحاء العالم إلى طهران في الثمانينيات، وعدم وجود كلمة "إيران" في اسم "جيش حراس الثورة الإسلامية" (الحرس الثوري)، أمثلة لافتة للنظر في هذا الصدد.

بالنسبة لأصحاب هذا النهج، القومية ليست تمجيد الهوية العرقية، بل هي تقوية إيران وتقدمها من جميع النواحي.

اختارت إيران أن تتوحد داخليا بأساطيرها القديمة بدلا من أن تنقسم تحت الضغط الخارجي

٣/ القومية التوحيدية

يمكن اعتبار هذه القومية بمثابة القومية التي تُقرب وتُوحد بين النوعين الآخرين.

تسعى هذه القومية، التي يُعبر عنها بـ "القومية الدينية–الوطنية"، إلى الجمع بين إيران ما قبل الإسلام وإيران ما بعد الإسلام.

في تقييم المفكر وعالم الاجتماع الإيراني الشهير علي شريعتي للقومية، لا أهمية للعرق والدم والأرض.

يعتبر علي شريعتي القومية شخصية وهوية دينية، ويقيم إيران ما قبل الإسلام وما بعده ككلٍ واحد.

وقد شرح شريعتي أفكاره حول القومية بالتفصيل في كتابه "التعرف على الهوية الإيرانية الإسلامية."

ووفقا لآية الله مرتضى مطهري، الذي يُعتبر أحد منظري الثورة الإسلامية الإيرانية، فإن إيران ما قبل الإسلام وما بعده تُشكل القومية الإيرانية والهوية الوطنية.

يدافع مطهري عن أن الإسلام ضد الجوانب السلبية للقومية.

وفي كتابه "الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران"، الذي يتناول الهوية الإيرانية والعلاقة بين إيران والإسلام ويقدم وجهة نظر مختلفة للهوية الوطنية الإيرانية، يورد العبارات التالية:

"بما أن الأمة الإيرانية ذكية وتمتلك تقليدا حضاريا، فقد مالت إلى الإسلام وخدمته أكثر من الأمم الأخرى. ولأن الإيرانيين قريبون من روح الإسلام ومعناه، فقد أظهروا تقاربا مع أهل البيت أكثر من غيرهم".

كذلك، فإن القومية التي دافعت عنها "حركة حرية إيران"، التي أسسها مهدي بازركان، وإن أظهرت بعض الاختلافات بعد عام 1997، هي في الواقع قومية بعيدة عن العنصرية وتقيم إيران ما قبل الإسلام وما بعده معا.

التوجه نحو القومية

أدركت إيران خلال الحرب التي استمرت ١٢ يوما مع إسرائيل أن القوة الحقيقية للدولة ليست في الدبابة أو المدفع أو البندقية، بل في المجتمع الذي حقق وحدته وتماسكه.

ومع طلب آية الله خامنئي من الرادود محمود كريمي قراءة نشيد "يا إيران"، أصبح من الواضح أن التوجه نحو خط قومي هو الخيار المفضل.

ولكن أي قومية؟

نشيد "يا إيران"، الذي طلب آية الله خامنئي قراءته، كُتب في بدايات الحرب الإيرانية العراقية، وغناه المغني الإيراني الشهير محمد نوري.

كُتب النشيد لإبقاء المشاعر الوطنية للشعب الإيراني حية، ولرفع معنويات الجنود. وبالتالي، لم يختر خامنئي نشيد "يا إيران" بشكل عشوائي، ولم يطلب قراءته عبثا.

وعقب خطوة آية الله خامنئي هذه، نُصب تمثال في ميدان انقلاب، الذي يتمتع بأهمية رمزية لإيران وتُقام فيه العديد من الاحتفالات الرسمية، وعلى رأسها ذكرى الثورة الإسلامية، يُظهر الإمبراطور الروماني فاليريان وهو يركع أمام الملك الساساني شابور الأول.

في عام 260 ميلادية، خرج الإمبراطور الروماني "ليسينيوس فاليريانوس" (توفي 260) بجيش كبير في حملة نحو الشرق لوقف تقدم الملك الساساني شابور (توفي (270) في سوريا وبلاد الرافدين.

لكن تفشي الطاعون في الجيش قبل بدء الحرب أدى إلى وفاة آلاف الجنود. واجه الجيش الروماني الضعيف القوات الساسانية في محيط الرها (أورفا) وحران وتعرض لهزيمة ثقيلة، خاصة بتأثير الفرسان المدرعين.

ولإنقاذ ما تبقى من جيشه، ذهب فاليريانوس مع وفد صغير إلى المعسكر الساساني للتفاوض على السلام مع شابور، وتشير المصادر الرومانية إلى أنه تم أسره هناك نتيجة "خدعة" أو "فخ".

بينما سجلت المصادر الساسانية أن شابور أسر فاليريانوس بيديه شخصيا.

قضى فاليريانوس، باعتباره الإمبراطور الروماني الأول والوحيد الذي أسره العدو، بقية حياته في الأراضي الساسانية، وتم تخليد مشهد ركوعه بينما يمتطي شابور حصانه في النقوش الصخرية في نقش رستم.

التمثال الذي نُصب في ميدان انقلاب بالعاصمة طهران يشير إلى هذه الحادثة التاريخية.

وبعد نصب التمثال، تم إعداد صور تُظهر رئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو والرئيس الأميركي ترامب وهما يركعان أمام آية الله خامنئي، وتم تداولها على وسائل التواصل الاجتماعي.

وقبل ذلك بفترة قصيرة، تم تدشين تمثال ضخم يصور صراع رستم، أحد أهم شخصيات الأساطير الإيرانية، مع التنين، في مدينة شاهين شهر التابعة لأصفهان وسط مراسم احتفالية.

وكذلك، وبينما كانت الاشتباكات مستمرة، نُصب تمثال لرامي السهام آرش، أحد أبرز أبطال الأساطير الإيرانية، في ميدان ونك، الذي يُعد منطقة حيوية أخرى في طهران.

تُقيَم هذه التطورات، التي حدثت تحديدا خلال الحرب الإيرانية الإسرائيلية وبعدها، على أنها محاولة من آية الله خامنئي والدولة الإيرانية لجمع الشمل الإيراني حول الثورة الإسلامية والتاريخ الإيراني.

وبناء على ذلك، تهدف إيران، من خلال إبراز الأساطير الإيرانية ما قبل الإسلام التي ابتعدت عنها في السنوات الأولى للثورة بحجة تذكيرها بعهد الشاه، إلى جمع الشعب الإيراني حول "القومية التوحيدية" التي تجمع بين إيران ما قبل الإسلام وإيران ما بعد الإسلام.

إن اضطرت إيران، في ظل ظروف صعبة واستثنائية مثل الحرب والتخريب والاختراقات الاستخباراتية، إلى تفضيل التوجه نحو خط قومي يجمع بين إيران ما قبل الإسلام وإيران ما بعده.

ورغم أن سياسة إيران القومية الجديدة لها مكاسب، فإنها تنطوي أيضا على بعض المخاطر والتهديدات.

إن توجه الدولة الإيرانية رسميا نحو "القومية التوحيدية" قد يفتح مجالا واسعا وخطيرا لتوسع وتعزيز تيار "القومية الفارسية" غير المتصالح مع مبادئ الثورة الإسلامية وتاريخ إيران ما بعد الإسلام.

إذ تم رصد تزايد قوة الإيرانيين الذين يتبنون القومية الفارسية في وزارات ومؤسسات حساسة مثل وزارة الخارجية الإيرانية، والجيش الإيراني، والحرس الثوري، ووزارة الدفاع خلال فترة رئاسة حسن روحاني.

ويُذكر أن تأثير الدبلوماسيين والبيروقراطيين الذين يتبنون القومية الفارسية داخل الدولة في نشوب التوترات مع تركيا والعالم العربي، وعلى رأسها تدهور العلاقات مع أذربيجان، كان أكبر مما هو متوقع.

وفي حال عدم إدارة العملية بشكل جيد، فمن المحتمل أن تقوى شوكة هياكل مثل أنصار الشاه ومنظمة مجاهدي خلق داخل إيران، ارتباطا بالقومية الفارسية.

ولكن إدارة العملية بخطوات وخطابات صحيحة قد تحقق الوحدة والتماسك الذي تحتاجه إيران في هذه الفترة الصعبة التي تمر بها.

إضافة إلى ذلك، فإن التوجه القومي الجديد سيؤدي إلى تقليل دعم واهتمام إيران بهياكل مثل حزب الله، والحشد الشعبي، وأنصار الله مقارنة بالسابق.

وبالفعل، نلاحظ منذ شهر يونيو/حزيران تراجع اهتمام إيران بحزب الله والهياكل الأخرى، واستخدامها لغة أكثر اعتدالا في تصريحاتها المتعلقة بالمنطقة.

كذلك، وبسبب العملية الصعبة التي تمر بها، ستوقف إيران انفتاحها الخارجي الذي بدأ مع الاحتلال الأميركي للعراق عام 2003، وستوجه كامل قوتها وطاقتها نحو الداخل.

وبتوجيه طاقتها نحو الداخل، وبمقتضى توجهها السياسي الجديد، ستدخل إيران في تفاعل أكثر إيجابية مع دول المنطقة، لزيادة حلفائها وضمان دعم جيرانها في هذه المرحلة الصعبة التي تمر بها.

أحمدي نجاد

ولد محمود أحمدي نجاد في قرية آرادان بالقرب من غرمسار، هو الطفل الرابع من بين سبعة أطفال لوالد يعمل حدادًا وبقالاً وحلاقًا ومعلم للقرآن.

وقد غير الأب اسمه في سن الرابعة من «سابورجان»، عندما انتقلت العائلة إلى طهران.

في عام 1976، اجتاز محمود أحمدي نجاد مسابقات القبول في الجامعات الإيرانية الوطنية. وقيل أنه حاز على المرتبة 132 من بين 400 ألف مشارك في تلك السنة، وسرعان ما التحق بجامعة إيران للعلوم والتقنية كطالب بكلية الهندسة المدنية.

حصل على دكتوراه في هندسة النقل والتخطيط من نفس الجامعة في عام1997 .

بعد الثورة الإيرانية الإسلامية، أصبح أحمدي نجاد عضوًا في مكتب تعزيز الوحدة، وهي منظمة وضعت لمنع الطلاب من التعاطف أو التحالف مع مجاهدي خلق.

كانت أولى مناصبه السياسية، تعيينه كحاكم لمقاطعتي ماكو وخوي في محافظة أذربيجان الغربية خلال الثمانينيات. ثم أصبح مستشارًا للحاكم العام لمحافظة كردستان لمدة عامين. وخلال دراسته للدكتوراه في طهران، عين حاكمًا عامًا لمحافظة أردبيل في عام1993 ، حتى استبعده محمد خاتمي في عام1997 ، فعاد أحمدي نجاد بعد ذلك إلى التدريس.

يعتبره أنصاره، «رجلاً بسيطًا» يحيا حياة «متواضعة». وبعدما أصبح رئيسًا، أراد الاستمرار في سكنى منزل الأسرة المتواضع في طهران، إلا أن مستشاريه الأمنيين أجبروه على الرحيل.

طوى أحمدي نجاد السجادة الفارسية العتيقة الموجودة بقصر الرئاسة، وبعث بها إلى متحف السجاد، واستخدم بدلاً منها سجادًا ذا تكلفة منخفضة.

ويقال أنه رفض مقعد كبار الشخصيات بطائرة الرئاسة، واستبدله بمقعد طائرة شحن بدلاً من ذلك.

وعند وصوله لمقعد الرئاسة، عقد أحمدي نجاد أول اجتماع لحكومته في ضريح الإمام الرضا في مشهد، وهو عمل ينظر إليه على أنه «متدين».

تذكر العديد من التقارير، أنه أثناء قيام الحرب العراقية الإيرانية انضم أحمدي نجاد للحرس الثوري الإيراني، وخدم في جهاز المخابرات والأمن العام، لكن مستشاره مجتبى سمارة هاشمي قال «أنه لم يكن يوما عضوا أو مسئولا بالحرس الثوري الإيراني»، حيث كان أقرب ما يكون بمتطوع باسيج.

ففي عام 2003، كانت نسبة المحافظين من تحالف بناة إيران الإسلامية في مجلس مدينة طهران ١٢٪ فقط. ومع ذلك، عين المجلس أحمدي نجاد المحافظ رئيسًا لبلدية طهران. وهو ما مثّل انعطافًا نحو التيار الديني المتشدد على عكس الاتجاهات الإصلاحية للرؤساء المعتدلين السابقين.

عندما أصبح رئيسًا للبلدية، قام أحمدي نجاد بعكس جميع التغييرات التي أجراها رؤساء البلديات المعتدلون والإصلاحيون السابقون. فقد وضع أسسًا دينية للأنشطة بالمراكز الثقافية التي تأسست لديهم، وفصل استعمال المصعد للرجال والنساء في المكاتب العامة، واقترح أن يُدْفَن الأشخاص الذين قتلوا في الحرب العراقية الإيرانية بالميادين الكبرى في طهران. كما عمل على تحسين نظام المرور، وركّز على الأعمال الخيرية، مثل توزيع الحساء المجاني على الفقراء.

وبعد انتخابه للرئاسة قُبِلَت استقالة أحمدي نجاد من رئاسة بلدية طهران في ٢٨ حزيران/يونيو 2005 بعد العمل سنتين كعمدة.

لم يكن أحمدي نجاد معروفًا على نطاق واسع عندما دخل حملة الانتخابات الرئاسية 2005. بالرغم من كونه عضوًا في الجمعية الإسلامية للمهندسين، ولكن الدعم السياسي الرئيسي له كان من تحالف بناة إيران الإسلامية (ائتلاف ابداجران الإسلامي أو المطورين).

كانت تصريحات أحمدي نجاد متباينة حول خططه الرئاسية، ربما لجذب كلا من التيارات الدينية والطبقات الفقيرة. فكانت حملته تحت شعار: «أنه أمر ممكن، نستطيع أن نفعلها».

حظي نجاد بشعبية كبيرة في هذه الحملة. فقد أشار إلى حياته المتواضعة وأبرز ذلك، حيث قارن نفسه بمحمد علي رجائي، الرئيس الثاني لإيران.

وأعلن نجاد أنه يعتزم إقامة «حكومة مثالية لشعوب العالم» في إيران.

التزم نجاد في عمله السياسي بمبادئ إسلامية وثورية، وكان من أهدافه «وضع دخل النفط على طاولة الشعب»، أي أنه ستُوَزَّع أرباح النفط في إيران على الفقراء.

كان أحمدي نجاد هو المرشح الوحيد للرئاسة الذي أبدى اعتراضه على العلاقات المستقبلية مع الولايات المتحدة. وقال لإذاعة جمهورية إيران الإسلامية، أن الأمم المتحدة «تأخذ جانبًا معاديًا للعالم الإسلامي». وأعلن أنه يعارض حق الفيتو للدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي قائلاً: «إنه ليس من العدل، أن يصبح من حق عدد قليل من الدول الجلوس واستخدام حق النقض على الموافقات العالمية. وأن كان لابد من استمرار هذه الميزة، فلابد أن يتمتع العالم الإسلامي الذي يضم ما يقرب من 1.5 مليار مسلم بنفس هذه الامتياز». كما دافع عن البرنامج النووي الإيراني، واتهم ما وصفها بـ «بعض القوى المتغطرسة» بمحاولة الحد من التنمية الصناعية والتكنولوجية في إيران في هذا المجال، وغيره من المجالات.

في الجولة الثانية من الحملة، قال: «نحن لم نشارك في الثورة لنتغير بتغير الحكومة... وهذه الثورة تسعى للوصول إلى جميع حكومات العالم».

وتحدث عن برنامج موسع لاستخدام التجارة في تحسين العلاقات الخارجية، ودعا إلى مزيد من العلاقات مع الدول المجاورة لإيران وإلغاء استخدام التأشيرات للتنقل بين دول المنطقة، قائلاً أنه «لابد أن يستطيع الناس زيارة أي مكان يرغبون فيه بحرية. لابد أن يتمتع الناس بالحرية أثناء الحج والرحلات».

ووصف أحمدي نجاد آية الله محمد تقي مصباح يزدي، وهو من كبار رجال الدين في قم بأنه معلمه الروحي والعقائدي.

أسس مصباح مدرسة حاغانى الفكرية في إيران، وأيد هو وفريقه بقوة نجاد في حملته في الانتخابات الرئاسية لعام 2005.

في انتخابات عام 2005 الرئاسية حصل أحمدي نجاد على ٦٢٪ من الأصوات في انتخابات الإعادة التي جرت أمام أكبر هاشمي رفسنجاني. وقلده المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي الرئاسة في ٣ أغسطس .2005 فقبّل أحمدي نجاد يد خامنئي خلال الاحتفال لإظهار ولائه.

في ٢٣ أغسطس2008 ، أعلن المرشد الأعلى علي خامنئي أنه «يرى أحمدي نجاد رئيسا في السنوات الخمس المقبلة»، وفسر هذا التعليق على أنه إشارة لدعم إعادة انتخاب أحمدي نجاد.

وفاز أحمدي نجاد بـ 62.63 ٪ من الأصوات، فيما جاء في المركز الثاني مير حسين موسوي بـ 33.75 ٪ من الأصوات.

وحظيت هذه الانتخابات باهتمام شعبي لم يسبق له مثيل في إيران.

فلقد ظلت نتائج الانتخابات محل خلاف بين كل من موسوي وأحمدي نجاد وأنصار كل منهما، الذين يعتقدون بحدوث تزوير في الانتخابات.

وافق المرشد الأعلى الإيراني آية الله علي خامنئي رسميًا على نتائج الانتخابات في ٣ أغسطس2009 ، ليؤدي أحمدي نجاد اليمين الدستورية لولاية ثانية في ٥ أغسطس .2009

تجنب عدد من الشخصيات السياسية الإيرانية حضور الحفل، أمثال الرئيسان السابقان محمد خاتمي وأكبر هاشمي رفسنجاني، الذي ظل يشغل رئيس لجنة مجمع تشخيص مصلحة النظام حتى وفاته، إلى جانب زعيم المعارضة مير حسين موسوي.

طالبت جماعات المعارضة المحتجين على المواقع الإلكترونية الإصلاحية، بتسيير المظاهرات في الشوارع في يوم تنصيبه رئيسًا.

وفي يوم التنصيب، واجه المئات من رجال شرطة مكافحة الشغب المظاهرات الاحتجاجية التي اجتمعت خارج مبنى البرلمان.

وبعد أدائه لليمين الدستورية، أعلن على الهواء في التلفزيون الإيراني، أنه «مسؤول عن حماية العقيدة، ونظام الثورة الإسلامية والدستور».

أعلن كل من فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة، أنهم لن يرسلوا رسائل التهنئة المعتادة.

أحمدي نجاد شخصية مثيرة للجدل محليًا ودوليًا. وقد انتقد محليا بسبب الأزمة الاقتصادية والاستخفاف بحقوق الإنسان.

وفي عام 2007، أطلق مشروعًا للحد من استهلاك الوقود في البلاد، وخفض أسعار الفائدة المصرفية.

ومن جهة أخرى، أجبر مرشح أحمدي نجاد لمنصب النائب الأول للرئيس، اسفانديار رحيم مشائي، على الاستقالة، وهو ما أحرج أحمدي نجاد.

تعرضت الناشطات في مجال حقوق المرأة للاضطهاد، بعد مطالبتهن البرلمان بتطبيق «مشروع قانون حماية الأسرة» قبل صدوره.

كما تعرض نجاد للحرج، بعد إدانة وزير داخليته بالحصول على درجة دكتوراة مزورة.

أحمدي نجاد من أشد المعارضين لسياسة الولايات المتحدة وإسرائيل، لكنه عزز العلاقات بين إيران وروسيا وفنزويلا وسوريا ودول الخليج العربي.

خلال فترة ولايته، كانت إيران واحدة من كبار مانحي المعونة إلى أفغانستان.

دعم نجاد برنامج إيران للطاقة النووية. وأكد مرارًا على أن البرنامج النووي الإيراني معد للأغراض السلمية، وليس لتطوير الأسلحة النووية. وتحت قيادته، رفضت إيران نداءات مجلس الأمن الدولي لإنهاء تخصيب اليورانيوم داخل إيران.

وأعلن أحمدي نجاد أن العقوبات الغربية لإيران بسبب تخصيب اليورانيوم «غير قانونية» وقال أن إيران ستواصل التزامها بتمكين الوكالة الدولية للطاقة الذرية من مراقبة برنامجها النووي، على الرغم من أن إيران لم تفعل ذلك.

يُعرف أحمدي نجاد بتعليقاته المعادية للولايات المتحدة وإسرائيل، لذا فهو دائمًا عرضة للانتقاد من جهات عديدة.

وقد دعا إلى حل دولة إسرائيل، كما دعا إلى إجراء انتخابات حرة في فلسطين.

وأعرب عن اعتقاده بأن الشعب الفلسطيني بحاجة إلى صوت قوي في المنطقة مستقبلاً.

دعا أحمدي نجاد في واحد من أكثر التصريحات المثيرة للجدل، وفقاً لترجمة إذاعة جمهورية إيران الإسلامية الأولى، إلى «محو المستعمر من الخريطة». على الرغم من أن الترجمة التحريرية والشفوية عليها خلاف.

اعتبرت مجلة تايم أحمدي نجاد من بين المئة شخصية الأكثر تأثيرًا في العالم لعام 2006

بعد فترة قصيرة من انتخابه رئيسًا، زعمت بعض وسائل الإعلام الغربية بأن أحمدي نجاد كان بين الطلاب الذين اقتحموا السفارة الأميركية في طهران، مما أثار أزمة الرهائن، وهو ما أنكرته الحكومة الإيرانية.

خلال سنوات رئاسته الأربع الأولى، ارتفع الناتج المحلي الإجمالي لإيران، وانخفض معدل التضخم والبطالة نتيجة لاتخاذ نجاد لأسلوب إدارة اقتصادي أفضل وإنهاء أنماط الإنفاق والاقتراض التي انتهجتها الإدارات السابقة.

قام أحمدي نجاد بزيادة الإنفاق بنسبة ٢٥٪، وزاد من الدعم للغذاء والبنزين. كما أنه في البداية رفض الزيادة التدريجية في أسعار البنزين، وقال أنه بعد الانتهاء من التحضيرات اللازمة، مثل تطوير وسائل النقل العام، ستقوم الحكومة بتحرير أسعار البنزين بعد خمس سنوات.

وخُفِضَت معدلات الفائدة بموجب مرسوم رئاسي إلى ما دون معدل التضخم.

وتسببت محاولاته لتنمية الاقتصاد في زيادة أسعار العقارات ببعض المدن، لتصبح ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل عهد أحمدي نجاد، بسبب سعي بعض الإيرانيين لاستثمار الفائض النقدي وتأمين ظروفهم المعيشية، وهو ما أضر بفقراء الإيرانيين، مما أضر بشعبية نجاد.

ألغى نجاد مؤسسة الإدارة والتخطيط، وهي هيئة حكومية مكلفة برسم إستراتيجية الاقتصاد والميزانية طويلة المدى، واِسْتُغْنِيَ عن الإداريين ذوي الخبرة العاملين بها.

في يونيو2006 ، أرسل ٥٠ من خبراء الاقتصاد الإيرانيين خطاب إلى أحمدي نجاد، ينتقدون فيه تدخله لتثبيت أسعار السلع والاسمنت والخدمات الحكومية، وأمره بموجب مرسوم صادر عن المجلس الأعلى لنقابة العمال ووزارة العمل الذي اقترح زيادة رواتب العمال بنسبة ٤٠٪.

رد أحمدي نجاد علنًا على الرسالة بلهجة شديدة، واستنكر الاتهامات.

طالب أحمدي نجاد بتنازلات معقولة فيما يتعلق بالرأسمالية والاشتراكية الغربية، فقد تسببت الصراعات السياسية الإيرانية الحالية مع الولايات المتحدة في زيادة خوف البنك المركزي من هروب رؤوس الأموال بسبب العقوبات المفروضة على إيران.

هذه العوامل حالت دون تحسين البنية التحتية وتدفق رؤوس الأموال، على الرغم من الإمكانات الاقتصادية العالية 3.5% .من بين الذين لم يصوتوا لصالحه في الانتخابات الأولى، قالوا أنهم سوف يصوتوا له في الانتخابات المقبلة.

محمد خوشيريه، وهو عضو في البرلمان الإيراني شارك في الحملة الانتخابية لأحمدي نجاد، قال إن حكومته «كانت قوية على مستوى الشعارات الشعبية، ولكنها ضعيفة على مستوى الإنجاز».

قام الرئيس أحمدي نجاد بتغيير كل وزراء المجموعة الاقتصادية، بما في ذلك النفط والصناعة والاقتصاد، منذ توليه السلطة في عام .2005 في مقابلة مع وكالة أنباء فارس في أبريل2008 ، انتقد داود دانش جعفري، الذي تولى منصب وزير الاقتصاد في حكومة الرئيس أحمدي نجاد، السياسة الاقتصادية لأحمدي نجاد: «خلال فترة عملي، لم يكن هناك استفادة من التجارب السابقة أو من ذوي الخبرة، ولم يكن هناك أي خطط للمستقبل. القضايا الهامشية التي لم يكن لها أهمية للأمة أُعطيت الأولوية. معظم المفاهيم الاقتصادية العلمية مثل تأثير السيولة على التضخم كانت مثار تساؤلات.»

وردًا على هذه الانتقادات، اتهم أحمدي نجاد وزيره بأنه «رجل غير عادل»، وأعلن أن حل المشكلة الاقتصادية في إيران هو «الثقافة الاستشهادية». وفي مايو2008 ، أعلن وزير النفط الإيراني أن الحكومة أنفقت بطريقة غير مشروعة ملياري دولار لاستيراد البترول في عام .2007 حيث أعلن في البرلمان الإيراني، أنها كانت أوامر الرئيس.

بالرغم من أن عائدات النفط في حكومة أحمدي نجاد بلغت 275 ألف مليار ريال، وهو أعلى معدل في تاريخ إيران، إلا أن حكومته حققت أيضًا أعلى نسبة عجز في الميزانية في تاريخ الثورة الإيرانية.

وخلال فترة رئاسته، أطلق أحمدي نجاد خطته لتقليل استخدام الطاقة للحد من استهلاك الوقود في البلاد، كما خفض نسبة الفائدة، مما زاد من التسهيلات المصرفية في البنوك الحكومية والخاصة. وقد أصدر توجيهاته بأن منظمة الإدارة والتخطيط ينبغي أن تتبع الحكومة.

في ١١ ديسمبر 2006، قاطع بعض الطلاب خطاب أحمدي نجاد الذي ألقاه بجامعة اميركبير للتكنولوجيا (طهران للفنون التطبيقية) في طهران.

واستنادًا إلى وكالة الأنباء الطلابية الإيرانية، أشعل الطلاب النار في صور أحمدي نجاد وألقوا بالألعاب النارية. كما هتف المتظاهرون «الموت للدكتاتور».

كانت هذه أول أكبر مظاهرة احتجاجية شعبية منذ انتخاب أحمدي نجاد. في بيان نشر على موقع الطلاب على الإنترنت، أعلن الطلاب أنهم تظاهروا احتجاجًا على تزايد الضغط السياسي في عهد أحمدي نجاد، واتهموه بالفساد وسوء الإدارة والتحيز.

وأضاف البيان أن «الطلاب قالوا أنه على الرغم من الدعاية الكبيرة للرئيس، إلا أنه لم يتمكن من خداع الأوساط الأكاديمية».

وأفادوا أيضًا أن بعض الطلاب سجلوا غضبهم إزاء المؤتمر الدولي لاستعراض الرؤية العالمية للهولوكوست.

وردًا على هتافات الطلاب، قال الرئيس: «لقد عملنا على التصدي للديكتاتورية، حتى أن أحدًا لن يجرؤ على إقامة ديكتاتورية في الألفية حتى باسم الحرية. ونظرًا لما عانته الأمة الإيرانية من قبل عملاء الديكتاتورية في الولايات المتحدة وبريطانيا، لن يسمح أحد بظهور أي ديكتاتور».

ورغم ما ذكر من أن المتظاهرين قاموا بكسر كاميرات التليفزيون، وألقوا قنابل يدوية الصنع على أحمدي نجاد، إلا أن الرئيس طلب من المسؤولين عدم مساءلة أو عقاب المحتجين.

وعلى موقعه، علق أحمدي نجاد تعقيبًا على الحادث بأنه «شعر بالفرح» بسبب الحرية التي يتمتع بها الناس بعد الثورة.

وفي اليوم السابق للخطاب، تظاهر ألف طالب احتجاجًا للتنديد بزيادة الضغط على الجماعات الإصلاحية في الجامعة.

قبل ذلك بأسبوع، تظاهر أكثر من ألفي طالب للاحتجاج في جامعة طهران في العيد السنوي للطلاب، وقال متحدثون منهم «أنه منذ انتخاب أحمدي نجاد، وهناك حملات على المعارضة في الجامعات».

كيف تسلل الموساد لمفاصل الدولة في إيران؟

في ٣١ يناير/ كانون الثاني2018 ، كشف الرئيس السابق لجهاز الاستخبارات الخارجية الإسرائيلي "الموساد"، يوسي كوهين، كيف تمكّنوا من الاستيلاء على الأرشيف النووي العسكري الإيراني في طهران باستخدام عشرين عميلًا إيرانيًا. قال حينها:

"قبل أكثر من عامين من تنفيذ العملية، تلقّى الموساد معلومات استخبارية حول المكان الذي يُخفى فيه الأرشيف النووي، وبدأنا في البحث عنه. وحين عثرنا عليه، حصلنا على خرائط كشفت عن بنية المبنى الداخلية. وبناءً على ذلك، شُيّد في إحدى الدول الصديقة مبنى مطابق تمامًا للبناء الذي تُخزن فيه الوثائق.

هناك، أجرينا تدريبات على اقتحام المبنى وإفراغ محتوى الخزائن بصمت. تم توظيف عشرين عميلًا مختارًا، لا يحملون الجنسية الإسرائيلية.

وخلال تنفيذ العملية، كان العملاء يرسلون بثًا مباشرًا لما يرونه، ويقدمون شروحًا باللغة الفارسية، ويرسلون صورًا. وعندما رأينا ما تحتويه تلك الخزائن الضخمة، أدركنا أننا عثرنا على ضالتنا. لقد أدركنا حينها أننا استولينا على البرنامج النووي العسكري الإيراني."

في تلك الأيام، اعتُبرت تصريحاته ضربًا من المبالغة، واستخفّت بها إيران قائلة إن "الوثائق المسروقة مزيفة". لكن الهجوم الإسرائيلي الذي وقع ليلة ١٣ يونيو/ حزيران 2025 كشف أن تلك التصريحات لم تكن خالية من الحقيقة.

فلم يكن القصف الجوي وحده هو الضربة، بل اغتيل عدد من كبار القادة والعلماء النوويين الإيرانيين، ليس فقط عبر طائرات " إف– ٣٥" والطائرات المسيرة، والصواريخ التي انطلقت من إسرائيل الواقعة على بعد 1600 كيلومتر، بل أيضًا عبر شبكة عملاء الموساد التي نُسجت داخل إيران على مدى سنوات كشبكة العنكبوت.

ولفهم مدى فاعلية شبكة العملاء هذه، يكفي النظر إلى هوية من سقطوا قتلى في الهجوم. فخلال الغارات، قُتل كل من رئيس هيئة الأركان العامة للقوات المسلحة الإيرانية محمد حسين باقري، وقائد الحرس الثوري الإيراني حسين سلامي، وقائد مقر خاتم الأنبياء المركزي علي رشيد، وقائد أنظمة الدفاع الجوي للحرس الثوري داود شيحيان، وقائد القوات الجوية بالحرس الثوري أمير علي حاجي زاده، وقائد الطوارئ

وقد شاركت الولايات المتحدة في الهجوم عبر تقديم دعم استخباري، وطائرات التزود بالوقود، والأسلحة، بحسب ما أفادت به وسائل الإعلام الأميركية التي أوضحت: "قبل أن تُغير طائرات " إف–٣٥" على الأهداف النووية والعسكرية، مهّد الموساد الطريق بعملية سرية. تم تهريب قطع طائرات مسيرة إلى داخل إيران، ونُفذت الهجمات من الداخل."

على مدار شهور، هرّب الموساد أجزاء من طائرات رباعية المراوح محمّلة بالمتفجرات، وذخائر تُطلق عن بعد، بواسطة حقائب سفر، وشاحنات، وحاويات شحن إلى داخل إيران.

ثم قامت فرق صغيرة وسرية بتركيب هذه الطائرات قرب مواقع الصواريخ وأنظمة الدفاع الجوي. وعندما بدأت الضربات الجوية، حيّدت هذه الفرق الأنظمة الحرجة، واستهدفت منصات الإطلاق الخارجة من المخابئ.

استهدفت فرق الطائرات المسيّرة قوافل الصواريخ والمخازن، وتم تدمير عشرات الشاحنات المخصصة للإطلاق، وهو ما أدى إلى تأخير الرد الإيراني.

هذه الشبكة السرية التي جرى إعدادها على مدى سنوات، تأسست من عملاء دُرِّبوا في الخارج، وتسللوا إلى خطوط الإمداد، وحددوا الأهداف بدقة.

أما إيران، التي لطالما قللت من شأن تغلغل الموساد داخلها، فقد بدأت عمليات مضادة متأخرة. وتمكنت من اعتقال العشرات من عملاء الموساد الذين كانوا يجمعون المعلومات من الميدان، وشاركوا في الهجمات. وتم إعدام بعضهم.

لكن ذلك لا يعني أن تهديد الموساد داخل إيران قد انتهى. إذ إن الشبكة لم تتغلغل فقط بين الناس العاديين، بل وصلت إلى أعلى هرم السلطة، بحسب ما صرح به مسئولون إيرانيون.

ففي نوفمبر/ تشرين الثاني2020 ، بعد عامين من استيلاء الموساد على الأرشيف النووي، قُتل أبرز علماء إيران النوويين محسن فخري زاده، عبر سلاح رشاش يتحكم به عن بُعد، باستخدام الذكاء الاصطناعي.

وبعد الاغتيال، صرّح وزير الاستخبارات الإيراني محمود علوي بأن الشخص الذي سهّل اغتيال فخري زاده هو أحد عناصر الحرس الثوري نفسه، دون أن يُكشف عن هوية ذلك العميل للموساد داخل الاستخبارات الإيرانية.

الرئيس الإيراني السابق محمود أحمدي نجاد، أكد عام 2021 أن أحد كبار المسئولين الأمنيين المكلّفين بالتصدي لعمليات الموساد، كان نفسه عميلًا لدى الموساد. وقال: "إسرائيل تنفذ عمليات معقدة داخل إيران، وتحصل على معلومات حساسة بسهولة تامة. وأجهزة الدولة لا تزال صامتة. الشخص المسؤول عن مقاومة إسرائيل كان عميلًا لها."

وواضح أن الموساد امتلك في إيران شبكة تجسس عملاقة، جعلته قادرًا على تنفيذ اغتيالات كيفما شاء.

وفي2022 ، صرح علي يونسي، مستشار الرئيس السابق حسن روحاني ووزير الاستخبارات السابق، قائلًا: "الموساد تسلل خلال السنوات العشر الأخيرة إلى جميع مفاصل الدولة الإيرانية، لدرجة باتت معها أرواح كل المسئولين في خطر. لقد أصبحوا يهددون المسئولين علنًا. وبصفتي ممن عمل سابقًا في وزارة الاستخبارات، فإن هذا الوضع يؤلمني بعمق."

وفي ٣١ يوليو/ تموز2024 ، وبعد وفاة الرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي في حادث طائرة غامض، حضر الموساد حفل تنصيب خليفته مسعود بزشكيان، لينفّذ بعده عملية اغتيال دقيقة استهدفت قائد حركة حماس إسماعيل هنية، في دار ضيافة محصن.

وبحسب صحيفة "تلغراف" البريطانية، استخدم الموساد عملاء له داخل الحرس الثوري لتنفيذ اغتيال هنية.

ومع استمرار إسرائيل في ارتكاب المجازر في غزة، اتجهت نحو لبنان، مستهدفة حزب الله قبل شن عملية برية. وقد أظهرت مدى اختراقها حزب الله وإيران عبر عمليات اغتيال فردية وجماعية.

ففي عملية نوعية، فجّرت في وقت واحد أجهزة النداء التي يستخدمها الحزب للتواصل، فطالت 3000 من قادته وأفراده دفعة واحدة. وقد نُفذت العملية من جناحين؛ أحدهما في إسرائيل، والآخر في إيران. تم توفير الأجهزة من داخل إيران، في حين تولّى الموساد تحويلها إلى عبوات ناسفة.

ولم تكتفِ إسرائيل بذلك، بل استهدفت قيادات حزب الله واحدًا تلو الآخر، حيث اغتالت في ١٦ يونيو/ حزيران، قائد وحدة "ناصر" سامي طالب عبد الله، وفي ٣ يوليو/ تموز، قائد وحدة "عزيز" محمد نعمة ناصر، ثم القائد الأعلى العسكري للحزب فؤاد شُكر، وفي ٢٠ سبتمبر/ أيلول، قائد وحدة "الرضوان" إبراهيم عقيل، وفي ٢٤ سبتمبر/ أيلول، القائد البارز إبراهيم محمد قبسي، وفي ٢٦ سبتمبر/ أيلول، قائد الوحدة الجوية محمد حسين سرور، وأخيرًا، في ٢٧ سبتمبر/ أيلول، زعيم حزب الله نفسه، حسن نصر الله.

واللافت أنه قبل أيام من اغتياله، وتحديدًا في ٢٤ سبتمبر/ أيلول، وجّه له الأمين العام للمجلس الإسلامي العربي في لبنان، محمد علي الحسيني، عبر إحدى القنوات، تحذيرًا قائلًا: "لو كنت تعلم ما تقوله إيران عنك، لانقلبت المعادلة. اكتب وصيتك، فقد خدعتك أحلامك في دخول القدس، وخذلك شركاؤك".

وبحسب ما نقلته صحيفة "لو باريزيان" الفرنسية عن مصدر أمني لبناني، فإن عميلًا إيرانيًا هو من قدّم لإسرائيل معلومة مفادها أن نصر الله يخطط لزيارة مقر حزب الله في

ضاحية بيروت الجنوبية يوم الجمعة. وأشارت الصحيفة إلى أن هذا العميل "من داخل النظام الإيراني نفسه".

وعقب عملية الاغتيال، صرّح الحسيني: "إيران باعت نصر الله مقابل الحلم النووي. الإحداثيات جاءت من طهران. أُقسم أن كل من سيخلف نصر الله سيُقتل. لقد سرّبت إيران معلومات الجميع".

ومن الواضح أن المقصود بـ "إيران" في هذا السياق هم عملاء الموساد المزروعون داخل مفاصل الدولة. فكما في الهجوم الأخير، لا يمكن أن تُعرف أماكن تواجد هؤلاء القادة بدقة إلا من قبل مسئولين في مواقع مماثلة أو جواسيس يعملون داخل الاستخبارات الإيرانية لصالح الموساد.

بل إن القصف الذي استهدف المنطقة التي يقيم فيها المرشد الأعلى آية الله خامنئي، يثبت أن الموساد يمتلك معلومات داخلية دقيقة.

لكن نشاط الموساد لا يقتصر على إيران. فهذه الأحداث تُظهر أن إسرائيل قادرة على شن عمليات دقيقة ليس فقط في إيران، بل في مختلف دول الشرق الأوسط: لبنان، وسوريا، والعراق، من خلال شبكة التجسس التي نسجتها طوال سنوات.

وهذا الجهاز السري الإسرائيلي بات اليوم يشكّل تهديدًا حقيقيًا على وجود واستقرار دول المنطقة كافة.

إيران وحماس

أثارت علاقة حركة المقاومة الإسلامية حماس، الحركة السنية الإخوانية المشرب، وجمهورية إيران الإسلامية الشيعية الاثنى عشرية، جدلا كبير وما زالت، وأسالت مدادا كثيرا، لأنها استطاعت التخلص من وطأة تاريخ متسم بالعداء ين السنة والشيعة، وحاضر يصل ما انقطع، بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران، ويقلب المواجع.

** ناصر الدين القاجاري (١٨٣١-١٨٩٦): ملك حكم إيران في الفترة (١٨٤٨-١٨٩٦) وهو الملك الرابع في الأسرة القاجارية. أغتيل على يد واحد من تلامذة جمال الدين الأفغاني في عملية وصفت بأنها أولى ملامح ظهور حركات الإسلام السياسي على مشارف القرن العشرين. حمل نصر الدين شاة ألقابا كثيرة، منها: قبلة العالم، والسلطان صاحبقران وكان هذا اللقب يعطى لمن زاد حكمه على ٣٠ عاما. تعد فترة حكمه التي وصلت إلى ٥٠ عاما هي الأطول بين ملوك القاجار. كان مولعا بالأسفار وتدوين مذكراته، وتعد يومياته التي وثقت لزياراته خارج إيران من المصادر المهمة لتلك الفترة.

وكشفت مراسلات ناصر الدين شاة مع عدد من مسئولي «الأليانس» الرابطة اليهودية العالمية، في النصف الثاني من سنة ١٨٧٣ عن دور ناصر الدين شاة في تعزيز نفوذ يهود إيران.

وأورد ناصر الدين شاه في مذكراته، التي وثق فيها أسفاره إلى دول أوروبية، حديثا تبادله مع أحد أعضاء فرع عائلة روتشيلد في فرنسا؛ إذ قال: "كان يتحدث كثيرا عن دعم اليهود، ويطالب بتوفير الرخاء ليهود إيران، فقلت له: سمعت أنكم أنتم الإخوة (روتشيلد) تمتلكون أموالا طائلة، أرى أن الأفضل أن تخصصوا جزءًا من دولة ما أو تشتروا بلدًا تجمعون فيه يهود العالم وتكونوا رؤساء له بدل أن تبقوا مشتتين.. ضحك كثيرًا دون أن يبدي أي إجابة.

وكان إنشاء المنظمات الصهيونية في إيران التي اختلقت صورة سياسية تاريخية عن «أرض الميعاد» هو العامل الأول والأهم في إثارة موضوع الهجرة في أوساط الطائفة اليهودية في إيران وشجعها على الهجرة من وطنها إلى فلسطين. وترجع بعض المصادر

اليهودية وجود التنظيمات الصهيونية في إيران إلى ١٩١٠ عندما أنشأت مجموعة من الشباب اليهودي من همدان منتدى لدراسة اللغة العبرية.

في ١٩١٥ تشكلت في فلسطين لجنة أطلق عليها «لجنة مهاجري القدس والشام» كانت ترعى المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وكان من بين المهاجرين ٥١ مهاجرا إيرانيا، بقي أمر هجرتهم سرا لا يعلم، ويرجح أنهم غادروا إيران بمساعدة مراكز مرتبطة بالحركة الصهيونية.

** لقد هدفت بريطانيا من إصدار "الوعد" إلى تحويل يهود شرق أوروبا عن غربها، أي التخلص من فائض اليهود وتوطينهم في أي مكان خارج أوروبا.

فالأمر فيه معاداة لليهود"؛ لأن آرثر بالفور نفسه دعم قانون الغرباء" الذي صدر قبل وعده بنحو ١٥ سنة لوضع حد لدخول اليهود اليديشية إلى بريطانيا. وكان بلفور يرى أنه ليس من مصلحة أي بلد أن يكون فيه يهود مهما بلغت درجة وطنيتهم وانغماسهم في الحياة القومية" وهذا ما جعل المؤتمر الصهيوني الخامس يصف تصريحاته بأنها معادية للشعب اليهودي بأسره، وهاجمته الصحافة البريطانية.

** يقول نواب الصفوي المؤسس منظمة «فدائي الإسلام» في خطابه عن القضية الفلسطينية: علينا أن نخطو إلى الميدان بعلم الاستشهاد الأحمر، لأن فلسطين لن تتحرر بالكلام والمفاوضات، ولن يفهم العدو شيئا غير لغة الاستشهاد الحمراء.

** رغم معاداة الشعب الإيراني لإسرائيل، إلا أن نظام الشاه (رضا بهلوي) قدم تسهيلات عدة للصهاينة والوكالة اليهودية لنقل اليهود الفارين من الدول العربية إلى فلسطين المحتلة عبر إيران وتركيا، وذلك في إطار سياسة صبت لصالح تقوية إسرائيل عسكريا واقتصاديا.

** في الفترة ما بين ١٩٤٨ تاريخ إعلان دولة إسرائيل و١٩٥٠ تاريخ اعتراف إيران بها، لم تكن السياسة الإيرانية تجاه القضية الفلسطينية واضحة، وقد تكون المواقف الشعبية المعارضة لإسرائيل قد أعاقت بعض الوقت اعتراف الحكومة الإيرانية بإسرائيل، لتعترف بها بحكم الأمر الواقع.

** على إثر انتصار الثورة الإيرانية، ١٩٧٩، وإقامة الجمهورية الإسلامية حدث تغير جذري في السياسة الخارجية الإيرانية؛ فقد أصبحت إيران خارج المعسكر الغربي واتجهت نحو دعم قضايا العالم الثالث وعدم الانحياز، ورفعت شعار مقارعة الاستعمار والاستكبار وسارعت إلى إلغاء الاعتراف بإسرائيل وبدأت الأدبيات السياسية الإيرانية تصفها بأنها غدة سرطانية، وأنها ورم يجب استئصاله وقطع أي علاقات اقتصادية وسياسية وثقافية معه.

أصبح دعم القضية الفلسطينية في مقدمة أولويات سياسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية الخارجية، وترى الأدبيات المتعلقة بفكر مؤسس الجمهورية الإسلامية، روح الله آية الله الخميني، أنه إذا كانت إقامة حكومة إسلامية في إيران هي أولى أولويات الفكر السياسي للإمام الخميني، فإن تحرير بيت المقدس وفلسطين كان شاغله الفكري والسياسي الأهم خارج إيران، وكان يرى أن قيام إسرائيل هو نتيجة لعلاقة الصهاينة بالرأسمالية الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية."

قبل انتصار الثورة احتلت فلسطين مكانا بارزا في شعارات وخطب قادتها، وفي ذروة الاحتجاجات ضد نظام الشاه انتقد الإمام الخميني علاقاته السرية والعلنية مع إسرائيل. وكان الخميني أول مرجع تقليدي وعالم شيعي يفتي بمساعدة المقاتلين الفلسطينيين من أموال الزكاة والخمس. يقول آية الله الخميني: "إحدى القضايا التي وضعتنا في مواجهة الشاه هي مساعدته إسرائيل. فطالما قلت: إن الشاه تعاون مع إسرائيل منذ بداية وجودها، وعندما بلغت الحرب بين إسرائيل والمسلمين ذروتها استمر الشاه في اغتصاب نفط المسلمين وإعطائه لها وهذا أحد أسباب معارضتي له".

نظر آية الله الخميني إلى الصهيونية على أنها ظاهرة سياسية جشعة وعنصرية استعمارية، تتخذ الديانة اليهودية دثارًا وتصور نفسها منقذا للشعب اليهودي، وأن ادعاء الصهاينة الوحدة العرقية ليهود العالم وهم، فهم يريدون تسويغ اغتصاب الأرض الفلسطينية وجرائمهم في الأراضي المحتلة بالتشبث بهذا الوهم. ويربط الخميني الاستعمار البريطاني الذي سلم الراية لرجال البيت الأبيض من بعده والصهيونية باعتبارها حركة سياسية. ورأى أن الاستعمار الغربي الجديد لا يهتم بدين الله والناس المتدينين ولا يفكر

إلا بمصالحه الاستعمارية؛ ولذلك يقدم الدعم للصهيونية التي تعد حركة سياسية في صراع أساسي مع مبدأ الدين والأهداف الإلهية للأنبياء."

كان زعيم الثورة الإسلامية يرى في العودة إلى الإسلام والتوحيد شرطًا لإنقاذ فلسطين ومنع الرغبات التوسعية للصهيونية، وطالب بنبذ أي خلافات، ومن بينها الخلافات المذهبية ورأى أن قضية فلسطين مرتبطة بالإسلام كله ولذلك شجع باستمرار جميع المسلمين، وخاصة شيعة لبنان، على مساعدة الفلسطينيين، ونظر إلى مشكلة فلسطين على أنها مشكلة العالم الإسلامي، وأن حكم عدد صغير من الصهاينة على أكثر من مليار مسلم في العالم وصمة عار.

** ألغت الجمهورية الإسلامية الاعتراف بإسرائيل، وسلمت مقار ومكاتب التمثيل الدبلوماسي الإسرائيلي إلى الفلسطينيين لتفتح أول سفارة فلسطينية، ليس في طهران فقط بل كانت أول سفارة فلسطينية في العالم، وقدمت الدعم السياسي والمالي للمنظمة بوصفها قائدة الثورة الفلسطينية.

ولكن من الواضح أن توقعات كل طرف من الآخر كانت متباينة، وما كان يراد للعلاقة من تطور لم يتحقق. فقد برز الخلاف الأيديولوجي سريعا إلى السطح؛ إذ سرعان ما اصطدم التوجه الإيراني بعلمانية المنظمة التي أبدى قادتها حساسية عالية تجاه السعي الإيراني لأسلمة الثورة الفلسطينية. ومع اندلا ع الحرب مع العراق وجدت طهران حليفها الفلسطيني الأبرز ينحاز إلى العراق بفعل التوجه القومي لدى بعض قادة المنظمة.

** استمرت الثورة الإيرانية في دعم القضية الفلسطينية رغم الفتور في العلاقة منظمة التحرير الفلسطينية، وظلت العلاقة قائمة حتى ١٩٩٣ لما وقع عرفات "اتفاقية أوسلو" التي عارضتها إيران ورأت فيه تخليا عن المقاومة وتفريطا في القضية الفلسطينية. انتهى الرهان الإيراني على منظمة التحرير، ولكن البحث عن حليف فلسطيني قوي لم يتوقف، وكانت حركة الجهاد الإسلامي هي الأقرب أيديولوجيا لإيران في الساحة الفلسطينية، فقد رأت الحركة التي انشقت عن جماعة الإخوان المسلمين في ١٩٨٠، في الثورة الإيرانية أنموذجا ملهما وكان زعيمها فتحي الشقاقي معجبًا بحركة التغيير التي

أحدثتها الثورة الإسلامية، ومع ذلك كانت إيران تسعى إلى تحالف مع قوة يكون حجمها ونشاطها أوسع، وهو ما وجدته في حركة المقاومة الإسلامية (حماس).

** يستند علماء الشيعة من المعارضين لدعم القضية الفلسطينية في موقفهم إلى المصادر الشيعية التقليدية التي لا ترى قدسية للمسجد الأقصى وبيت المقدس، وتستفيض بدلاً من ذلك في الحديث عن فضائل كربلاء والنجف وغيرهما... وهذا ما يجعل التقديس لفلسطين وحرمة الأقصى في الأدبيات الثورية الإيرانية مثيرا للدهشة. ويرجع الفضل في ذلك إلى أطروحات الإمام الخميني الذي جعل من صراع الجمهورية الإسلامية الإيرانية مع إسرائيل أحد الرموز المهمة للهوية الثورية الإسلامية للنظام. وهذا الموقف من الأقصى وفلسطين يُعد خروجا على المدونة الفقهية التقليدية للشيعة، على غرار «ولاية الفقيه» التي قدمها الإمام الخميني في كتابه «الحكومة الإسلامية»، ومن قبله النراقي ونائيني.

** يرى الباحث حميد عظيمي "أن المناصرين للقضية الفلسطينية في الجمهورية الإسلامية معظمهم من الطبقة المتوسطة المتدينة وأن القضية الفلسطينية أدت إلى كسر «حاجز الغيبة» فقد كان الفكر السياسي الشيعي مبنيا على فكرة الانتظار، انتظار القائم (المهدي)، لكن ظهور الصهيونية وما تلاه من تحديات، أسهم في تحرير العقل الشيعي من سلطان الغيبة".

كما أن القضية الفلسطينية ترتبط بالدستور الإيراني الذي قال له الإيرانيون نعم، وبنيه السلطة في إيران تجعلهم ملزمين بتنفيذ بنوده، ولا خيار آخر أمامهم.

** تأسس فيلق القدس عقب انتهاء الحرب مع العراق، عندما قرر الحرس الثوري الإيراني تعزيز أنشطته الخارجية وتنظيمها، فأصدر علي خامنئي، سنة ١٩٩٠، بعد فترة وجيزة من توليه منصب القائد الأعلى، مرسوما يقضي بتشكيل قوة جديدة في الحرس الثوري باسم "قوة القدس" أو "فيلق القدس"، ليصبح الفيلق القوة الخامسة في الحرس الثوري الإيراني بعد القوات البرية والجوية والبحرية والبسيج (قوات التعبئة والاستخبارات)

ويعد فيلق القدس جزءًا من العقيدة العسكرية الإيرانية المرتكزة على مفهوم الدفاع الفسيفسائي؛ أي الحرب الشبكية لوحدات صغيرة ورشيقة، مستقل بعضها عن بعض.

لقد أوجد حضور إيران العملياتي في الخارج مشكلات في علاقاتها الخارجية، ويشكل مثار خلاف داخلي كشفت عنه تسجيلات مسربة لوزير الخارجية الإيراني السابق جواد ظريف، يشتكي فيها من الأثمان الكثيرة التي تحملتها الدبلوماسية الإيرانية بسبب الميدان الذي كانت له الأولوية لدى النظام وتمت التضحية بالدبلوماسية من أجل الميدان، وكان ظريف يقصد بالميدان نشاط "فيلق القدس".

** ظل مفهوم "تصدير الثورة" عنصرًا أساسيًا في إستراتيجية إيران الدفاعية. وكان من أولوياتها الأمنية، بعد حربها مع العراق، بناء تحالف إقليمي يكون قوة ردع تواجه أعداءها في الخارج وتبعد الخطر عن حدودها، فتكون خطوط الدفاع الإستراتيجي الإيراني، في المقام الأول في لبنان وسوريا، والعراق واليمن وفلسطين.

فلو وقع هجوم أميركي / إسرائيلي على إيران فإن المنطقة بأكملها "ستتحول إلى منطقة حرب فسيفسائية، بحيث لا يبقى للعدو أي نقطة آمنة.. ولن تكون القواعد الأميركية والإسرائيلية الـ ٣٢ في المنطقة، في مأمن من الصواريخ الإيرانية.. وستكون مصالحهم مهددة في عشرات الدول، في الوقت نفسه "

وفي هذه السبيل قامت سياسة إيران على:

أن يكون التحالف الإقليمي، أساسا، من شبكات ترتبط بإيران عقائديا واقتصاديا وإستراتيجيا. ومن أمثلة ذلك ما يسمى "مدافعي الحرم"، وهم مقاتلون من بلاد شتى يدافعون عن مصالح إيران خارج حدودها، بعضهم في "لواء فاطميون"، ولأسرهم منزلة خاصة عند قائد الثورة، علي خامنئي، وعنها يقول: هذه العائلات لها دين في عنق الإيرانيين جميعًا، فقد قاتل أبناؤها دفاعا عن حريم آل البيت في سوريا والعراق، وواجهوا أعداء إيران في الخارج، وبدون هذه المواجهة كان يمكن لهؤلاء الأعداء أن يدخلوا إيران، ولو لم يقفوا في وجههم فإن إيران كانت مجبرة على محاربتهم في كرمنشاه وهمدان وبقية المدن الإيرانية.

جعل المساعدات الأمنية للحركات الإسلامية محورًا في إستراتيجية الأمن القومي.

المرونة في التعاطي مع الجماعات المؤيدة لها؛ فتترك لهم حرية اتخاذ القرار وفقا للمعطيات الميدانية التي يرونها، وتتغاضي عن خصوصية بعضهم المذهبية والفكرية والميدانية؛ فلا تنتظر من حماس مثلا أكثر من قتال إسرائيل يقول مجتبى أبطحي: "قرارنا هو الدفاع عن حماس، وإذا ما حدثت المعركة مع إيران فمن المؤكد أن حزب الله سيشارك والحشد الشعبي سيشارك وكذلك أنصار الله وزينبيون، وهي إستراتيجية دفاعية بنيناها أما حماس فيكفي أن تقاتل إسرائيل، وليس مطلوبا منها أن تقاتل معنا إذا تعرضنا لهجوم، إن المعركة الوحيدة التي ينتظر من حماس أن تخوضها هي الحرب مع إسرائيل لتحرير الأراضي الفلسطينية المحتلة".

حماس: ظروف النشأة وبناء العلاقات

**تعرف حركة حماس نفسها في الباب الأول من ميثاقها بأنها حركة فلسطينية متميزة، منهجها الإسلام، وإليه تحتكم في كل تصرفاتها، وبأنها جناح من أجنحة الإخوان المسلمين في فلسطين، وتعمل على رفع راية الله على كل شبر من فلسطين، كحلقة من حلقات الجهاد في مواجهة الغزوة الصهيونية و ترتبط بانطلاقة الشهيد عز الدين القسام وإخوانه المجاهدين من الإخوان المسلمين، عام ١٩٣٦، وتمضي لتتصل وترتبط بحلقة أخرى تضم جهاد الفلسطينيين وجهود وجهاد الإخوان المسلمين في حرب ١٩٤٨ والعمليات الجهادية للإخوان المسلمين، عام ١٩٦٨ وما بعده".

تزامن ميلاد حركة حماس مع انطلاق شراة الانتفاضة الأولى، إثر دعس أربعة عمال فلسطينيين (٨) ديسمبر / كانون الأول ١٩٨٧ وقد أحدث ميلاد الحركة تحولا كبيرا في جماعة الإخوان المسلمين في فلسطين؛ حيث انتقلت من حركة اجتماعية تربوية إلى قوة سياسية عسكرية تزاحم القوى العلمانية المنضوية تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية.

** في اللقاء الأول بين وفد إيران وحركة حماس تم عرض مساعدة مالية للحركة لكنه قوبل بالرفض من قبل وفد حماس.. لقد كسبت حماس برفضها المال احترام الإيرانيين، حتى إنهم أثاروا القضية مع الشهيد فتحي الشقاقي، وقارنوا بين موقف الحركة وموقف غيرها من الفصائل الفلسطينية، وشكل ذلك الرفض أرضية مختلفة للتعامل مع الحركة، وقدر الإيرانيون صدق الحركة في الدفاع عن قضيتها المقدسة.

وعند مناقشة موضوع مستقبل العلاقة بين الطرفين؛ أعرب وفد حماس للإيرانيين عن رغبة الحركة في إقامة علاقات مع السعودية والعراق، وبعد ذلك مع إيران. وكانت الحركة تسعى إلى خلق حالة من التوازن في علاقتها بالجمهورية الإسلامية وحتى لا تبدو كأنها تابعة لها. وبالفعل، أوفدت حماس مندوبين إلى العراق والسعودية ثم إيران.

** وعندما شكلت حماس الحكومة فُرض عليها حصار شامل في ٢٠٠٧، فكانت إيران تدفع للحكومة ٢٠ مليون دولار شهريا، لكن تلك المساعدة لم تستمر طويلا وما لبثت أن تراجعت. وبعد ٢٠١٤، قدم الإيرانيون للعمل العسكري مليون دولار. وفي ٢٠١٩، بلغت المساعدات ١٨ مليون دولار تتصرف فيها الحركة وفق المصلحة والأولويات.

** في الفترة ١٩٩٢-١٩٩٩، مرت العلاقة بين الحركة والأردن بمنعطفات عدة، وشهدت محطات توتر جاء بعضها بسبب عمليات نفذتها الحركة في العمق الإسرائيلي يعتقد أنها سببت ضغطا إسرائيليًا ودوليًا على الأردن خاصة بعد اتفاقية وادي عربة في أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٤

فبعد توقيع الاتفاقية، بدأت السلطات الأردنية في التضييق على أنشطة الحركة وقادتها، فقد استدعى محافظ العاصمة إبراهيم غوشة، الناطق باسم حماس، وطلب منه الكف عن إصدار التصريحات الاستفزازية ضد السلطة الفلسطينية. وفي مايو/ أيار ١٩٩٥، أبعد رئيس المكتب السياسي، موسى أبو مرزوق، فتوجه إلى الولايات المتحدة حيث كان يملك إقامة دائمة، إلا أنه اعتقل هناك نحو عامين ثم أفرج عنه وسمح له بالعودة إلى الأردن في ١٩٩٧

** بعد وفاة الملك الحسين في ١٩٩٩ وتولي نجله عبد الله، أنهى الأردن وجود حماس الرسمي، فأغلق مكاتب الحركة، وأصدر مذكرة اعتقال في حق ستة من قادتها بتهمة مخالفة الأنظمة والتعليمات وهم: خالد مشعل، رئيس المكتب السياسي، وموسى أبو مرزوق، وإبراهيم غوشة، وعزت الرشق، وسامي خاطر، ومحمد نزال. وقد صدرت المذكرة بينما كان الثلاثة الأوائل في زيارة إلى إيران، فقرروا العودة إلى الأردن لاعتبارات سياسية، فلما عادوا اعتقلتهم السلطات الأردنية. وإثر وساطة من أمير قطر آنذاك،

الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وافق الأردن على إبعادهم إلى الدوحة، فنقلوا إلى طائرة قطرية مكبلين بالأصفاد معصوبي الأعين، فوجدوا على متنها وزير الدولة للشؤون الخارجية آنذاك، أحمد بن عبد الله آل محمود، فشرح لهم ما حدث.

** نقل الملف إلى الحرس: قفزة إستراتيجية في العلاقة

كان ملف العلاقة مع حماس بيد وزارة الخارجية الإيرانية، بينما كان ملف العلاقة مع حركة الجهاد بيد وزارة الاستخبارات، وحدث الانتقال المؤثر للملف إلى مؤسسة الحرس الثوري على مراحل ليصبح ملفا بيد الحرس بصورة كاملة عقب فوز حماس في الانتخابات، عام ٢٠٠٦

وبعد صراع بين المؤسسات الثلاث المعنية الخارجية والاستخبارات والحرس على إدارة الملف انتقل إلى مؤسسة الحرس الثوري، وكان ذلك الانتقال واحدا من أبرز التطورات في مسار العلاقة، فقد بدأت مرحلة جديدة من الدعم الإستراتيجي العسكري والمالي.

وحسب أبو مرزوق، فقد كان من أبرز نتائج انتقال الملف إلى الحرس الثوري الاستجابة لمطالب حماس في التدريب والتسليح التي لم تستطع وزارة الخارجية تلبيتها. لقد كان التسليح عاملاً أساسيًا في تقوية علاقة حماس بإيران؛ لأنه "لا توجد دولة غير إيران تقدم للحركة سلاحا وتدريبا"

لقد كان الدعم بالسلاح ولا يزال، وفقًا لمحمود الزهار، من أهم العوامل في العلاقة بين حماس وإيران؛ فقد كان من الضروري في مواجهة عدو صهيوني يملك السلاح النووي أن يكون الحرس طرفًا أساسيا من أطراف العلاقة وأصولها، والكلام للزهار.

** وجدت حماس نفسها، بعد أشهر قليلة من تشكيل الحكومة، في مواجهة مسلحة مع أنصار فتح في قطاع غزة، وانهار الاتفاق الذي أبرمته مع حركة فتح في مارس/ آذار ٢٠٠٧، لتشكيل حكومة وحدة وطنية. وفي يونيو/ حزيران من العام نفسه، احتدم الصدام مع عناصر فتح، فلجأت الحركة إلى الحسم العسكري وبسطت سيطرتها على قطاع غزة، فهرع الاحتلال إلى تشديد الحصار على القطاع، وسارعت مصر إلى إغلاق معبر رفح، وأقال رئيس السلطة، محمود عباس، رئيس الوزراء، إسماعيل

هنية، وحكومته وفرض حالة الطوارئ). وكلف عباس سلام فياض بتشكيل حكومة في الضفة الغربية، فاستأنف الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة الأميركية دعمهما المالي للسلطة الفلسطينية.

** لقد تعاونت إيران مع حماس بشكل كبير، أكبر من تعاونها مع حركة الجهاد الإسلامي، لأن الإيرانيين أدركوا أن قاعدتها الشعبية وانتشارها أكبر بكثير داخل فلسطين.

** وعندما اندلعت الثورة في سوريا عبرت حماس عن اقتناعها بأن ما حدث حراك للشعب السوري، وانسجاما مع رؤيتها بعدم التدخل، سعت في بداية الأمر إلى التدخل إيجابيا لإصلاح الوضع، نظرًا لما كان لها من رصيد احترام عند السوريين والنظام على السواء يؤهلها للوساطة، لكن الحركة فوجئت في وقت كانت فرصة إصلاح ذات البين ورأب الصدع ما زالت قائمة باتصال من القصر الرئاسي يطلب منها الكف عن الوساطة التي كانت بموافقة النظام نفسه.

ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان لحزب الله، في شخص أمينه العام، السيد حسن نصر الله دور في الوساطة بين النظام والمعارضة.

ويبسط موسى أبو مرزوق الكلام في وساطة حماس فيقول: إن الحركة كان تشاطر حزب الله رأيه في الأزمة السورية ومفاده أن الحل الأمني مرفوض، وأن على النظام أن يقدم تنازلات لصالح الجمهور الثائر، وأن الحوار هو الأساس لحل الأزمة. لقد اتفقت على هذه الأسس الثلاثة مع الحزب وإيران واستمر ذلك إلى أن اتخذت الحركة قرار الخروج من سوريا.

وذكر أبو مرزوق أن الرئيس الأسد كان موافقا على هذا المنهج، ولكن القوى الأمنية اختلفت مع الرئيس السوري. لقد كان الأسد يثق في الحركة وكان كذلك الثوار، مما أهل الحركة للقيام بدور سياسي في سوريا.

بينما رأى حزب الله، خلافًا لموقف حركة المقاومة الإسلامية حماس، أنها صراع إستراتيجي إقليمي للإطاحة بمحور المقاومة والتمهيد لإسرائيل كي تتسع وتتضخم. وأن تدخله في سوريا ليس ضد الشعب السوري وإرادته، إنما ضد الذين تستخدمهم دوائر

مختلفة هنا أو هناك في مشروع لصالح الغرب وإن ظهر في لحظة من اللحظات أنه ليس كذلك.

** وفي مايو آيار ٢٠٢٢ أجمع قادة حماس في اجتماع لهم على إحياء العلاقة بسوريا والعودة إليها، ويشهد خليل الحية أن خالد مشعل كان ينظر إلى العلاقة مع سوريا نظرة إيجابية قوية ولم يتحفظ على القرار إلا عضو واحد لم يكن من حمس الخارج.

وكما كان الخروج من دمشق صعبا على حماس، كانت العودة إليها صعبة أيضا، فقد واجهت الحركة اتهامات وانتقادات من الداخل والخارج، وكانت زوايا النظر إلى الأمر متباينة، سياسية وأخلاقية وشرعية، وهي الانتقادات نفسها التي تستهدف علاقة الحركة بإيران.

فتمسك حماس بخيار المقاومة المسلحة يجعلها بحاجة إلى بيئة حاضنة لا توفرها الأنظمة السياسية الأخرى.

** في ٢٧ ديسمبر / كانون الأول ٢٠٠٨، بدأ الاحتلال الإسرائيلي عدوانا عسكريًا على قطاع غزة سماه «الرصاص المصبوب»، استمر نحو ٢٣ يوما، وسمته المقاومة «معركة الفرقان» في خضم ذلك العدوان بادر الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين إلى لقاء عدد من الحكام العرب ليبحث معهم سبل مساعدة المقاومة الفلسطينية ومد يد العون لأهل غزة. وكان من ضمن من اجتمع بهم وفد الاتحاد، برئاسة يوسف القرضاوي العاهل السعودي آنذاك، الملك عبد الله بن عبد العزيز، وحضر اللقاء بعض مساعدي الملك والمقربين منه.

وكان ذلك اللقاء، بإجماع أعضاء وفد الاتحاد، "أسوأ اللقاءات" لأن العاهل السعودي "لم يقبل، لا حقيقة ولا مجاملة، أي شي مما عرضه الوفد عليه".

كان اللقاء متوترًا لدرجة أحجم فيها الوفد عن الكلام وانحصر الحديث بين الملك والقرضاوي، "لقد طلبنا منه أي شكل من أشكال مساندة غزة، فكان يتهرب ولا يرى أنه بالإمكان أن يفعل شيئًا، وأنهم قد فعلوا الشيء الكثير من قبل، وأن حماس لا تتجاوب ولا تلتزم بوعودها ... ولام حماس كثيرًا على علاقتها بإيران "

حاول الشيخ القرضاوي أن يقنعه باستخدام سلاح النفط ضد الدول المساندة للعدوان فرفض رفضا باتا ولو تلويحا، كما رفض أن يكلم حسني مبارك في مسألة الحصار الظالم على غزة وكان يدافع عن وجهة نظر مبارك وموقفه، وخرج الوفد من اللقاء دون شيء يُذكر.

** السعودية تصنف حماس حركة إرهابية

وفي يناير/ كانون الثاني٢٠٢٢، وصفت صحيفة "عكاظ" السعودية حركة حماس بأنها دمية بيد إيران وأن وجودها يهدد الأمن العربي. وقالت الصحيفة: إن حماس "وجدت من أجل مشروع التمدد الإيراني في المنطقة، فهي أحد الأضلاع الثلاثة مع ميليشيا الحوثي وحزب الله لإيران في المنطقة، والدليل الساطع أن حماس فرضت على أهالي غزة رفع الرايات السوداء حدادًا على مقتل قاسم سليماني، قائد فيلق القدس في الحرس الثوري، بعد أن أقامت له في القطاع بيت عزاء"

** في مايو/ أيار٢٠١٩، نشرت صحيفة «مكة» السعودية قائمة بأسماء ٤٠ شخصية إسلامية صنفتها إرهابية، على رأسها مؤسس حماس، أحمد ياسين وكبار قادتها، إسماعيل هنية، وخالد مشعل، ويحيى السنوار، ومحمد الضيف ووفقا للمقال، الذي اضطرت الصحيفة إلى حذفه من موقعها ومن حسابها على تويتر (سابقا) بعد موجة غضب عارمة منها، فإن أربعين شخصية على علاقة بالإخوان المسلمين دعموا الإرهاب، ومن بينهم مؤسس حركة حماس الشهيد أحمد ياسين، والقيادي بالحركة، عبد العزيز الرنتيسي ومؤسس حركة الإخوان المسلمين، حسن البنا، ويوسف القرضاوي وسيد قطب.

وفي ردها على ادعاءات «مكة» ربطت حركة حماس القائمة بـ «المشروع الأمريكي» وقالت: إن المطبعين والمهرولين الذين يصفون قادة المقاومة بالإرهاب لن ترضى عنهم أمريكا، ولن ترضى عنهم إسرائيل، إنما يريدون أخذ أموالهم ليمرروا المشروع الأمريكي في المنطقة.

** اتبعت أبو ظبي سُنَّة السعودية حذو القذة بالقذة؛ فصنفت حماس "إرهابية"، وتزامن ذلك مع تنامي علاقات الإمارات العربية المتحدة بالكيان الصهيوني والانخراط في

تطبيع غير مشروط معه. وهو ما سمته التفكير الإستراتيجي المرتبط باتفاق "إبراهام" ليكون ملهما لدول أخرى بالمنطقة لإعادة تصور المستقبل.

تحول كتبة الصحف الإماراتية مع نظرائهم السعوديين إلى يد واحد على المقاومة يرمونها عن قوس واحدة؛ فلم يرقهم شكر حماس إيران على دعمها المادي والسياسي للمقاومة، واتهموها بأنها أداة في يد إيران.

**يميل البعض إلى قراءة دعم إيران للقضية الفلسطينية على أنه استثمار إيراني في الفراغ العربي وتخلي الدول العربية عن دعم القضية الفلسطينية، وأن الدعم يصب في خانة صالح إيران السياسية، لكن الشهيد صالح العاروري يرى غير ذلك ويعتقد أن علاقة إيران بالقضية الفلسطينية مبدئية وأصيلة وكانت محورا أساسيًا في خطاب الثورة والنظرة إلى المشروع الصهيوني، فالعلاقة مع الولايات المتحدة وإسرائيل كانت في لب الخلاف بين الخميني والشاه، وقد أعقب انتصار الثورة خطوات عملية لفائدة القضية الفلسطينية"

وزيادة في البيان يقول العاروري: "كانت إيران حريصة دائما على الحضور في الموضوع الفلسطيني، وهذا الحرص ليس موسميا ولا انتهازيا، ولا يقوم على رد الفعل، بل يرتبط بروح الثورة، ولذلك لا علاقة للحضور العربي من عدمه بموضوع العلاقة مع إيران. وأكدت التجربة، وفقا للعاروري، أن سقف التأييد الإيراني للقضية الفلسطينية سواء أكان سياسيًا أو تنفيذيا ماديا لا يبلغه أحد من دول المنطقة.

ويذهب حمدان، رفيق العاروري في النضال المذهب نفسه؛ فالعلاقة مع إيران جاءت بشكل طبيعي وتصاعدي، وهو تصاعد كان مقدرا له أن يستمر، حتى لو توافر الدعم العربي؛ لأن الحركة ترى أن مجال دعم القضية الفلسطينية يجب أن يكون مفتوحًا، وأن أي دعم يأتي من أي دولة حتى في الغرب هو أمر مقدر.

** وفي وثيقة أصدرتها حماس تقول الوثيقة: إن من أوجب الواجبات على العاملين لنصرة قضية فلسطين بوصفها قضية الإسلام الأولى تطبيق فقه الأولويات على كل تصرف أو تدبير أو عمل أو اجتهاد يتعلق بهذه القضية، وهذا يستلزم ضرورة تشكيل هيئة أو هيئات مختصة بتقدير المصالح والمفاسد وتشخيصها والموازنة بينها، وهذه الهيئة

تتكون من مجموعة من المختصين في أبواب الفقه وأصوله والأولويات والمقاصد والسياسة الشرعية زيادة على مجموعة من أصحاب الخبرة السياسية مع الاستفادة من أهل الاختصاصات والخبرات الأخرى عند النظر في مسائل متعلقة بمجالاتهم، وترى أن هذا النوع من الاجتهاد سوف يرشد مسيرة الاجتهاد في مسائل القضية، ويوحد الجهود، ويصحح المسارات.

وتخلص الوثيقة إلى أنه يظل للمقاومة، باعتبارها طرفًا سياسيا، الحق الواجب في إنشاء تلك العلاقات التي من شأنها أن تخدم القضية وتحمي مقاومة وعناصرها وتدعمهم دون النظر إلى سلوك الأطراف الأخرى في غير حل العلاقة، لضرورة الحال، وطبيعة المرحلة وقوانين السياسة الحاكمة.

** رأى خامنئي في طوفان الأقصى هزيمة للاحتلال لن يكون من السهل عليه التعافي منها، وأكد أن الهجوم استهدف بعض هياكل النظام بمستوى يصل إلى "عدم القابلية للإصلاح".. ويرجح القائد الأعلى في إيران ألا يتمكن الكيان الصهيوني الغاصب من استعادة فاعلية تلك الهياكل رغم كل ما يفعله، وكل الدعم الذي يتلقاه من الغربيين. لقد ضُرب، ولا يمكن تعويض ما لحق به بسهولة".

وأكد خامنئي أن العملية "فلسطينية، ولكن الاحتلال يلقي باللوم على الآخرين لعجزه أمام الشجاعة والتخطيط الذكي للشباب الفلسطيني"

قرأ خامنئي "طوفان "الأقصى" في سياق أوسع أطلق عليها سياسة "اجتثاث الأمركة". ورأى أنه حدث تاريخي استطاع أن يقلب أجندة السياسات الأميركية في المنطقة، وأن الطوفان سيستمر وسيمحو أجندة السياسات الأميركية في غرب آسيا.

لذا، فإن إحدى سمات التغيير في خريطة الجغرافيا السياسية للمنطقة هي أن عملية "اجتثاث الأمركة" قد بدأت؛ فبعض الدول التي كانت خاضعة بنسبة ١٠٠٪ للسياسة الأمريكية بدأت تجد زاوية في علاقتها مع أمريكا وهو أمر سيستمر ويتصاعد.

** يواصل معصومي محاججة الأصوات المؤمنة بكون ما حدث في طوفان الأقصى مؤامرة وفخا نصب الحماس بالقول: إذا نظرنا إليها بالعين المجردة، فإن "فضيحة السبت" قد سيطرت على النظام في إسرائيل إلى درجة لن يكون بالإمكان الهروب من عواقبها في

وقت قريب، وستواجه مسيرة نتنياهو السياسية تعقيدات ومشكلات جمة، ولن يخرج منتصرا من هذه الحرب، حتى لو سوى غزة بالأرض، وسيذهب كما ذهب أولمرت إلى مزبلة التاريخ في حرب الـ ٣٣ يوما، وسيكون من الصعب جدا على اليهود الذين يعيشون في الأراضي المحتلة أن يستعيدوا ثقتهم بالحكومة وأجهزتها الأمنية في المستقبل القريب.

في مقابل الفريق المشكك والمتمترس خلف المؤامرة، يرى فريق آخر في طوفان "الأقصى" دليلاً على أن الموساد وأجهزة استخبارات الكيان الصهيوني ليست بتلك التي لا يمكن هزيمتها، وليست بتلك الهالة من الكفاءة التي استطاعت أن تسوقها، ولا تملك نخبا ورقابة معلوماتية، وهذا ما يسري كذلك على جيش الاحتلال، وهذا ما يدعمه أسامة حمدان بالقول: "هذا الكيان الذي يتمتع بمستوى كبير من القوة العسكرية والأمنية ليس كائنا خارقا للطبيعة، خاصة وأن وجوده في المنطقة طارئ."

لقد كشفت تجربة صباح السبت أن قوة الموساد الحقيقية، تتغذى على التساهل والإهمال والاستهتار وعدم التدريب عند منافسي إسرائيل وأعدائها. وهذا الذي أطلق يد الموساد، أكثر من أي شيء آخر. ووفقا لاستنتاجات معصومي من دراسته النمط السلوكي للموساد سنوات عدة، فإن خططه وإجراءاته كلاسيكية وثابتة نسبيا، من أنظمة واسعة النطاق وشبكات هرمية ومعركة معلوماتية تقليدية مع الخصوم، وتوظيف أشخاص غير محترفين وفي بعض الأحيان استغلال نقاط الضعف المالية أو المعنوية لعدد من الأشخاص.

بناء على هذا التفسير، فإن نجاح حماس في طوفان الأقصى اعتمد، في المقام الأول، على تحويل شبكات واسعة وهرمية إلى وحدات عملياتية منفصلة ومخفية، فقد جرى إخفاء طبيعة ومهمة كل وحدة عن الأخرى، وهو أمر يمكن الإشارة إليه بالتطور السلوكي لحماس والانتقال من الروتين السابق إلى تجربة حرب المعلومات غير المتكافئة. وهذا شيء لم يحدث بين عشية وضحاها، لكن ثماره برزت في يوم واحد.

تم بحمد الله وتوفيقه

خالد النجار

alnaggar66@hotmail.com

مصر